

سلسلة
عالم
الثقافة

10



بقلم

الأزرق بن علو

المختصر المفيد

المختصر المفيد



سلسلة عالم الثقافة 10

المختصر المفيد

إعداد

الأزرق بن علو

الناشر

دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

المالك والمدير العام العقيد شيرين ثابت

اسم الكتاب: المختصر المفيد
اسم المؤلف: الأزرق بن علو
سنة النشر: 2011 م
رقم الإيداع: 2007/21954 م
الترقيم الدولي: 4 - 09 - 6240 - 977 - 978 .

الناشر
دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة
المالك والمدير العام العقيد شيرين ثابت

E-Mail: modern_qubaa@hotmail.com

www.qubaaelhadetha.com

الإدارة: (16) عمارات العبور - شارع صلاح سالم - الدور الثالث -
مدينة نصر - القاهرة

تليفاكس: 2/22621365 تليفون: 02/24025777

محمول: 0123140315 - 0123171722

حقوق الطبعة محفوظة للمؤلف

٢011

الإهداء

إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين جمعية دينية وطنية إصلاحية تربوية تعليمية. تأسست في 5 مايو (أيار) عام 1931 بفضل مساعي عدد من كبار العلماء من بينهم الأستاذ الشيخ عبدالحميد بن باديس رحمه الله الذي انتخب أول رئيس لها.

جعلت هذه الجمعية المباركة شعارها: «الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا» وكان من أهدافها وإنجازاتها:

- رفع لواء الدفاع عن الإسلام، وتحرير العقول من البدع والضلالات، وإحياء اللغة العربية.
- عملت على إنشاء المدارس الحرة لتربية الجيل الجديد على تعاليم الإسلام الصحيحة، ونشر الثقافة العربية، والوعي بال شخصية الجزائرية العربية.
- عارضت سياسة إدماج الجزائر في الدولة الفرنسية، وحاربت نشاط بعثات التبشير بالدين المسيحي في مناطق واسعة من القطر الجزائري.

- أنشأت معهداً للتعليم الثانوي في مدينة قسنطينة هو معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله الذي تخرج منه مئات الطلاب.
- بذل رئيسها الثاني العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي جهوداً كبيرة لإرسال بعثات طلابية لمواصلة التعليم في البلدان العربية الشقيقة.
- كونت هذه الجمعية المباركة، بفضل مساعي علمائها الأفاضل، ودعم الشعب الجزائري، عشرات الآلاف من التلاميذ والطلبة في مدارسها المنتشرة عبر القطر الجزائري التي تجاوز عددها 150 مدرسة.
- وفي عام 1956، بعد قيام ثورة التحرير الجزائرية، اندمجت مؤسسات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في هياكل جبهة التحرير الوطني من أجل مواصلة الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي.

المحتويات



رقم الصفحة	الموضوع
11	- مقدمة "حول سلسلة عالم الثقافة"
القسم الأول	
23	- فجر الإسلام
41	- أحاديث نبوية : أخلاق المؤمن
59	- مذاهب وفرق إسلامية :
	الخوارج - الشيعة الإمامية - الشيعة
	الإسماعيلية - المرجئة - المعتزلة - الجبرية -
	الأشعرية - الزيدية - الدرروز - الصوفية
113	- نبذة عن الحضارة الإسلامية
133	- فرسان الحضارة الإسلامية :
	الجاحظ - الكندي - أبو بكر الرازي -
	الفارابي - ابن الهيثم - البيروني - ابن سينا -
	عمر الخيام - الإدريسي - ابن الطفيل - ابن
	رشيد - ابن البيطار - ابن خلدون
171	- استنهاض الهمم (مقدمة)
	الاسكندر المقدوني - حنبل - يوليوس قيصر -
	طارق بن زياد - عبد الرحمان الداخل - أبو مسلم

الخرساني - المنصور بن أبي عامر - عبد الله بن
 ياسين - يوسف بن تاشفين - صلاح الدين
 الأيوبي - السلطان محمد الثاني - سليمان
 القانوني - كريستوفر كولمبوس - محمد علي

القسم الثاني

- 213 من حديث الروح -
- 220 حول الخير والشر -
- 225 حول التاريخ -
- 233 حول اليوطوبيا :
 - الدولة الصالحة - مجتمع الثراء والشقاء -
 - مجتمع المشاعر المنسجمة - حول الخير والشر -
 - مذكرات العام ألفين وخمسمائة - الرجل الذي
 - لم يذنب - رحلة خيالية - الفردوس المسترد -
 - حول تطور الإنسان - جزيرة أطلانطس - من
 هم المتوحشون - كفاحي
- 265 الإنسان، الحيوان، الروح -
- 279 بين الظن .. واليقين -
- 285 على هامش الحضارة -
- 292 حول التربية والتعليم -

رقم الصفحة	الموضوع
297	- حوار
203	- الطبيعة والقوانين
313	- أحلام الشباب.. وسنن الحياة
317	- الاعتماد على النفس
327	- آراء من الغرب حول الدين
342	- طاقات الإنسان الكامنة
348	- من أنباء اليهود
353	- من سجلات التاريخ :
	- قصة هابيل وقايل - موسى عليه السلام -
	- معجزة البحر - كليوباترا ويوليوس قيصر -
	- كليوباترا وأنطونيوس - من معجزات المسيح -
	- أهل الكهف - من مذكرات كولبوس - نهاية
	- غرناطة - شكسبير فى شبابه - نهاية نابليون -
	كمال أتاتورك
373	- الوقاية خير من العلاج
377	- مراحل العمر، حسن الختام

المقدمة



هذا هو الكتاب العاشر من سلسلة «عالم الثقافة» التي تضم بين أحضانها موضوعات أدبية، وتاريخية، واجتماعية، وأخلاقية، وفلسفية، وعقائدية، وثروة من كلام الحكماء، وحكايات متنوعة يجد فيها القارئ العبرة والتسلية.

– الكتاب الأول وعنوانه "كلمات تنعش الحياة" يعبر عنوانه بحق عن مضمونه. فهو يقدم للقارئ باقات من المقالات والمقتبسات والأقوال المأثورة والحكم والمواعظ والنصائح حول الحياة، والإنسان، والأخلاق الفاضلة، والأسرة، والمال، والحب، والنجاح، والأصدقاء، وغير ذلك من الكلمات الطيبة التي تساعد الإنسان على حسن التعامل مع نفسه ومع الناس من حوله.

– الكتاب الثاني من السلسلة وعنوانه "الشعر والحياة" يقدم مجموعات شعرية تتناول الحياة العملية والمعنوية والمشاكل الحياتية المرتبطة بالحياة اليومية مثل المال، والزواج، والبيئة، والقوة، والظلم، والعلاقات العائلية، وغير ذلك من مسرّات الحياة ومساوئها. ويؤكد مضمون هذا الكتاب أن الحياة تحتاج إلى الفن والأدب وكل ما يغذي الفكر والروح، كما تحتاج إلى العلوم التي تساعد على التطور المادي.

- الكتاب الثالث وعنوانه "حصاد الأيام" ويتحدث في مقدمته عن موضوع الخير والشر في نفس الإنسان، ويسجل شهادات قيمة من كلام الفلاسفة حول نزعات الإنسان نحو الفساد، وجنوحه إلى الظلم والأنانية؛ وكذلك عن سعيه وراء طيبات الحياة وعن طموحه الجامح.

ويضم هذا الكتاب بين صفحاته أخبار عدد من الأدباء والعظماء والفلاسفة، ويُقدم نبذة مفيدة عن شخصيات تاريخية؛ ويختم بمجموعة هامة من الحكايات والموضوعات الهامة.

- الكتاب الرابع وعنوانه "الإنسان والقلق" تركز محتوياته على معالجة عدد من الانفعالات السلبية مثل القلق، والتوتر، والعدوانية وغيرها من الصراعات النفسية مثل الاكتئاب، والشعور بالخيبة، والشعور بالذنب، ويتناول المؤلف بالبحث مسببات هذه الحالات النفسية، ونتائجها، ويقدم عددًا من الاقتراحات عن معرفة النفس، وعن كيفية التكيف من أجل التغلب على حالات التوتر والمشاعر السلبية.

ويوجه الأستاذ الأزرق بن علو اهتمامه، في كتابه «الإنسان والقلق» إلى تحليل مفهوم «النجاح في الحياة» فيذكر أن مدلوله يختلف في الزمان والمكان، وحسب اختلاف ثقافة الناس ومعتقداتهم وعاداتهم والبيئة التي نشؤوا فيها. ويجري المؤلف تجربة ميدانية فيتصل بعدد من الأشخاص من مستويات وجنسيات مختلفة، ويطرح عليهم السؤال:

«ما هو النجاح في الحياة، في نظرك؟» ويجد القارئ 18 جواباً تبين اختلاف وجهات نظر الناس فيما نسميه «النجاح في الحياة».

– الكتاب الخامس من سلسلة «عالم الثقافة»، وعنوانه "نفحات من الأدب العالمي" يقدم ملخصاً عن نشأة المسرح في اليونان، ونبذة عن بعض المسرحيات؛ كما يعرض موجزاً عن بعض حكماء الصين والهند، ونماذج من كتاباتهم.

ويتناول المؤلف في هذا الكتاب حياة عدد كبير من مشاهير الأدباء والفلاسفة الرومان، والإنكليز، والفرنسيين وغيرهم، ويقدم لنا نماذج من كتاباتهم، وملخصات من حكاياتهم، نادراً ما توجد مجتمعة في كتاب آخر.

– الكتاب السادس وعنوانه "الرحلة"، يقدم المؤلف في مطلع هذا الكتاب نبذة عن عدد من الأساطير التي كان الإنسان يلجأ إليها في العهود الغابرة لتفسير بعض الظواهر الطبيعية الغامضة وقوى الخير والشر... ثم يقودنا الكاتب في جولة تاريخية، فيحدثنا بإيجاز عن الملك حمورابي وقوانينه، وعن أخناتون، ورمسيس الثاني، والاسكندر المقدوني، وغيره من عظماء التاريخ.

ثم يعرض علينا الأستاذ ابن علو ملخصات دقيقة بأسلوب واضح

عن عدد من مشاهير الأدباء والعلماء، من بينهم شكسبير، وموليير، ومونتسكيو، وفولتير، وداروين، وغيرهم؛ ويسجل لنا نبذة مفيدة لعدد من مسرحيات شكسبير، ومن حكايات مسلية لأدبيين مشهورين هما الأديب الإيطالي بوكاتشو، والأديب الإنكليزي تشوسر. ويتناول الكتاب في القسم الأخير موضوعات ثقافية وتاريخية واجتماعية ممتعة.

- الكتاب السابع وعنوانه "منارات في رحاب الأدب العالمي". ويتحفنا المؤلف في هذا الكتاب بمقدمة قيّمة عن مواصفات الأدب الكلاسيكي والحركة الرومانسية في الأدب الغربي. يضم هذا الكتاب بين صفحاته أكثر من مائة وعشرين موضوعاً اقتبسها الكاتب من مؤلفات كبار الأدباء والفلاسفة الرومان، والفرنسيين، والإنكليز، وتقدم هذه الموضوعات مراحل مختلفة من مسيرة الأدب الغربي، وهي تشتمل على نصوص اجتماعية، ومقالات ثقافية، ومعلومات تاريخية، ورسائل رومانسية، وتعاليم أخلاقية، وحكايات ممتعة، وتأملات حول الحياة والموت... إلخ.

ومن جملة محتويات هذا الكتاب حكاية «الأرملة والجندي»؛ و«إمبراطور يقتل أمه»؛ و«مناهج الزواج...»؛ و«لؤلؤة الحب»؛ و«حكاية العقل والحقيقة»؛ و«كليوباترا وأنطونيو»، وغير ذلك من المقالات التي تعتبر ثروة عظيمة يجدر بكل مثقف أن يقرأها.

- الكتاب الثامن وعنوانه "قلائد الذهب في الحكمة والأدب". يتناول هذا الكتاب في القسم الأول ثلاثة موضوعات. يقدم في الأول فكرة موجزة عن أخلاق المسلم كما وردت مبيّنة بآيات بينات من القرآن الكريم. ويعرض في الموضوع الثاني نصوصاً مقتبسة من الإنجيل المقدس (الذي يعرف أيضاً بالعهد الجديد) وخاصة من إنجيل متي، وإنجيل يوحنا. ويقدم في الموضوع الثالث مقتطفات واسعة من الكتاب المقدس لدى اليهود (الذي يعرف أيضاً بالعهد القديم).

وينبه الكاتب في «المدخل» (صفحة 127) إلى أنه على المسلم أن يأخذ من هذين الكتابين المقدسين فقط ما كان منها موافقاً لما جاء في القرآن الكريم.

وفي القسم الثاني من «قلائد الذهب...» يقدم الأستاذ ابن علو معرضاً واسعاً يزخر بأقوال أدباء، وحكماء، وفلاسفة الصين، والهند، واليونان وغيرهم. ويصور هذا المعرض مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والعقائدية والأدبية في تلك الحضارات التي سادت قروناً طويلة، وكان لها تأثير بالغ على الفكر البشري.

- الكتاب التاسع وعنوانه "أضواء على مسرح الحياة" يشتمل هذا الكتاب على مجموعات من المقالات، والنصوص، والمقتطفات، والحكم، والتأملات، التي تزخر بالأفكار القيمة والأقوال المأثورة مما جادت به قرائح الأدباء والفلاسفة والتي حلقت فوق جسور

المكان، وأمواج الزمان حتى بلغتنا لتثري أفكارنا، وتثير آفاق حياتنا، وتزودنا بخير ما تركت الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة.

- الكتاب العاشر المعنون «المختصر المفيد» يستهله الأستاذ ابن علو بتقديم موجز عن الظروف التي بزغت فيها شمس رسالة الإسلام، وخاصة عن الحروب المستعرة آنئذ بين دولتي الفرس والروم. ويتبع ذلك نبذة مفيدة عن عدد من الفرق الإسلامية، ومنها الخوارج، والشيعية، والمعتزلة، والدروز وغيرها. وينتقل المؤلف إلى الحديث عن عظمة الحضارة الإسلامية العربية، وعن عدد من أبطالها الذين أثاروا سماء الحضارة شرقاً وغرباً بمؤلفاتهم وإنجازاتهم في مختلف ميادين العلوم.

وفي القسم الثاني يقدم الأستاذ ابن علو موضوعات أدبية واجتماعية وتاريخية شيقة، منها مقالات تتعلق بموضوع الروح، والخير والشر، و«اليوطوبيا» التي تعرض مقالات وحكايات خيالية في معظمها أعرب فيها الأدباء والفلاسفة عن رغباتهم في إنشاء مجتمعات مثالية، ومنهم من وضع مخططات ومشروعات عملية لتأسيس مدن أو ظروف اجتماعية يعيش فيها الإنسان سعيداً في ظلال الأمن والعدل والمساواة.

ومن الموضوعات الشيقة في هذا القسم مقال حول الإنسان والروح؛ وآخر حول الطبيعة والقوانين؛ وآراء حول الدين؛ وحول

المقدمة

التاريخ؛ ومقالات مفيدة عن الحضارة؛ وأحلام الشباب؛ وغير ذلك؛ كما تجدر الإشارة إلى موضوع «من سجلات التاريخ»؛ وإلى مقال «حسن الختام» الذي يتحدث عن مراحل عمر الإنسان.

والخلاصة أن مجموعة سلسلة «عالم الثقافة» ثروة ثقافية تناولت مختلف مجالات المعرفة، بأسلوب سهل يتمتع بمطالعتها الكبار والصغار، وهي ثروة فكرية حياتية يجدر أن يكون لها وجود في مكتبة كل أسرة.

أ/ عدنان ع. التنافعي

القسم الأول



فجر الإسلام



فجر الإسلام



ما أبعد الفرق بين عالمنا اليوم في القرن الواحد والعشرين، وما ينتشر فيه من وسائل الاتصالات والإعلام السريعة الانتشار، وبين عالم القرن السادس الذي ولد فيه الرسول الأكرم ﷺ، والقرن السابع الذي ناضل فيه بشجاعة من أجل نشر رسالة الإسلام. وكم هو سهل اليوم على المرء أن يطلع على ما يجري في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب، وكم كان بطيئاً على سكان مكة والطائف والمدينة وغيرها أن يطلعوا على ما كان يحدث في الدولة الفارسية، وفي الإمبراطورية الرومانية البيزنطية، وفي الحيرة، واليمن، والحبشة وفلسطين، وبلاد الشام.

ونلاحظ أن أخبار السيرة النبوية وكتبها متوفرة في كل بيت ومدرسة، ولكن معظم الناس لا يعرفون إلا قليلاً عما كان يجري في بلاد الفرس والروم وفي البلدان المجاورة لهما، التي احتك بها تاريخ الإسلام منذ نشأته، ثم دخلها واستفاد من حضارتها، ثم أنارَ ربوعها. ويهدف هذا المقال إلى تقديم فكرة موجزة عن بعض الحوادث التي أحاطت آنئذ بنشأة الإسلام، وعن الصراع بين دولتي الفرس والروم.

يحدُّ شبه الجزيرة العربية من الشرق الخليج الفارسي، والحيرة، ودجلة والفرات؛ ومن الجنوب المحيط الهندي، وخليج عدن؛ ومن الغرب البحر الأحمر؛ ومن الشمال فلسطين وبادية الشام. وكانت الإمبراطورية الفارسية تقع شرق شبه الجزيرة، والإمبراطورية الرومانية الشرقية (أو الامبراطورية البيزنطية) تقع غربها؛ ودولة الحبشة في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية.

وكانت كل من الدولة الفارسية والدولة الرومانية الشرقية (بيزنطة) تستعين بالقبائل العربية المستقرة على حدودها، في الحيرة على تخوم فارس، وفي الشام وفلسطين على حدود المستعمرات الرومانية، كل من الدولتين تستعين بهذه القبائل لصد غارات البدو الرحل على القرى الزراعية والمراكز التجارية الواقعة داخل حدودها. وقد نشأ من تلك القبائل العربية المستوطنة دولتان: دولة المناذرة على حدود فارس، ودولة الغساسنة على حدود الروم في بلاد الشام. وكان من أشهر ملوك الحيرة، على حدود فارس الملك النعمان بن المنذر الذي حكم من 580 إلى 602 م؛ ومن أشهر ملوك الغساسنة الحارث بن جبلة الذي تَوَجَّهَ الإمبراطور جستنيان ملكاً على القبائل العربية المستقرة على حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وبقي في الحكم من 528 - 569 م. وكان جستنيان يهدف من تأسيس هذه المملكة العربية على حدود مستعمرات الروم في الشام إلى تكوين إمارات قوية لمواجهة ملوك المناذرة في الحيرة.

عبارة الإمبراطورية الرومانية الشرقية تعني الإمبراطورية البيزنطية، كما تعني دولة الروم، وعاصمتها القسطنطينية (إسطنبول حالياً). وكان يحكمها الإمبراطور جُستنيان خلال الفترة من 527 - 565 ميلادية.

أما الامبراطورية الفارسية الساسانية فكان يحكمها كسرى الأول خلال الفترة من 531 - 579 ميلادية، وكان يعرف بكسرى أنوشروان، وتعني «الروح الخالدة». ويروى أنه كان ملكاً عادلاً، أنجز إصلاحات كبيرة، واشتهر برعايته للعلماء والآداب والفنون، كما اشتهر بحروبه ضد الإمبراطورية البيزنطية.

وكان يعاصره جُستنيان، إمبراطور الروم، فعقدا صلحاً بينهما سنة 532 ميلادية، فساعد هذا الصلح جستنيان ليتفرغ إلى غزو شمال إفريقيا. غير أن كسرى (الأول) خشي أن تتسع قوة خصمه فيصبح خطراً على بلاد الفرس، فأعلن الحرب عليه عام 539، واستولى على مناطق واسعة من بلاد الشام. وعُقد صلح آخر بين الدولتين تعهد فيه جستنيان بأن يدفع لكسرى مبالغ كبيرة من الذهب.

كان القائد الحبشي أبرهة الأشرم يحكم بلاد اليمن من طرف النجاشي، ملك الحبشة، فبنى أبرهة هيكلًا في اليمن ليصرف القبائل العربية عن الحج إلى مكة المكرمة، غير أن مهمته هذه فشلت فتوجه بجيش إلى مكة ليهدم الكعبة، ولكنه فشل في تحقيق هدفه كذلك، فعاد إلى اليمن مريضاً مهزوماً، ولم يعمر طويلاً.

وخلفه في الحكم ولداه، ولكنهما بالغاً في الإساءة إلى أهل اليمن الحميريين، فلجأ سيف بن ذي يزن الحميري إلى المنذر بن ماء السماء، حاكم الحيرة التي كانت تابعة لبلاد الفرس. وعندما مثل سيف بن ذي يزن أمام كسرى، وأبلغه بأن قومه يعانون من ظلم الأحباش وحكامهم؛ وافق كسرى على إرسال قوة لمساعدة أهل اليمن على التخلص من سيطرة الأحباش، وجعل سيف بن ذي يزن الحميري حاكماً على اليمن مقابل أن يؤدي له جزية سنوية.

وقعت حادثة الفيل المذكورة سنة 570 ميلادية، وهي السنة التي ولد فيها الرسول الأكرم ﷺ. وقد كان ميلاده في 12 من شهر ربيع الأول. وقيل أنه يوافق 20 من شهر أبريل (نيسان) عام 571 ميلادية.

مكث الرسول ﷺ عند مرضعته حليلة السعدية حتى بلغ الخامسة. وتوفيت أمه وهو في السادسة من العمر. وكان أبوه قد توفي قبل ولادته فكفله جدّه عبد المطلب، وبعد وفاة جده كفله عمه أبو طالب، ورعاه كأحد أبنائه، واصطحبه معه في رحلة إلى الشام وهو لم يتجاوز 12 سنة من العمر.

واشتغل الرسول ﷺ بالتجارة، وسافر إلى الشام واليمن؛ ثم تعرف على السيدة خديجة بنت خويلد، فأرسلته في تجارة لها إلى الشام برفقة غلامها ميسرة؛ وأعجبت بصدقه وأمانته، وأنس الرسول بها فتزوجها؛ وبدأ مرحلة جديدة، وكان سنه 25 عاماً.

وقررت قريش أن تجدد بناء الكعبة، فشارك محمد ﷺ في بنائها، وحكّمته قريش عندما اختلفت فيمن يعيد الحجر الأسود إلى موضعه على الجدار، فبسط رداءه، ووضع عليه الحجر الأسود، وطلب من كل زعيم أن يأخذ بطرف من الرداء. وكان سنه عندئذ نحو 35 سنة.

توفي إمبراطور الروم جستينان سنة 565 ميلادية، وخلفه على عرش القسطنطينية جستين الثاني الذي حكم من سنة 565 - 578. ورأى هذا الإمبراطور أن في سيطرة كسرى الأول (أنوشروان) على اليمن عملاً عدوانياً، فأعلن الحرب على الإمبراطورية الفارسية سنة 572. كانت الحرب سجّالا خلال بضع سنوات؛ وفي عام 579 هزم الروم الفرس، وكانت هذه المعركة هي المعركة الوحيدة التي هُزمت فيها جيوش كسرى أنوشروان، الذي توفي في السنة نفسها، بعد أن حكم بلاد فارس طيلة 48 سنة، وكان أعظم من ملك البلاد. كان عمر الرسول آنئذ نحو تسع سنوات.

وبعد وفاة كسرى تولى السلطة ابنه هرْمُزُ الرابع. غير أن قائده بهّرام قوبين خلعه، وأعلن نفسه وصياً على كسرى الثاني ابن هرْمُز الرابع المخلوع سنة 589، ثم أعلن نفسه ملكاً على عرش فارس. وعندما بلغ الشاب كسرى الثاني سن الرشد طالب بعرش أبيه فتكر له بهرام. وفرّ كسرى الثاني إلى سوريا الرومانية، وطلب من إمبراطور الروم موريس أن يساعده على استرجاع ملك أبيه، فوافق موريس على طلبه شريطة أن ينسحب الفرس من بلاد أرمينيا. وهكذا تمكن كسرى

الثاني، الذي أصبح يعرف بكسرى أبرويز (الظافر) من استعادة عرش أبيه سنة 596، بفضل مساعدة موريس إمبراطور الروم. وكان سن الرسول ﷺ عندئذ نحو 16 عاماً.

وحدث أن ثار قائد روماني، يدعى فوكاس، على موريس إمبراطور الروم، فقتله واستولى على عرشه، فأغضب هذا الانقلاب كسرى الثاني لأن موريس كان قد ساعده على استرجاع عرشه؛ فاتخذ من هذا الانقلاب ذريعة، وأعلن الحرب على الروم سنة 603، وشن حملات واسعة النطاق دامت سنوات طويلة على الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة).

كانت هذه الإمبراطورية تعاني الضعف بسبب النزاعات الداخلية، ونتيجة الهجمات الخارجية التي كانت تتعرض لها من طرف الآفار، والصقالبة، واللومبارد. ومما زاد الوضع سوءاً ما قام به فوكاس، بعد استيلائه على العرش، من أعمال وحشية، وما ارتكب من فظائع ضدّ الحكام والأشراف وأسرههم. ولكنه عجز عن مواجهة جيوش الفرس الغازية.

وفي ظل الانهزامات التي منيت بها القسطنطينية، دولة الروم، وما حاق بها من فوضى واضطرابات، استغاث أشراف الدولة بقائد يدعى هرقل كان حاكماً على مستعمرات الروم في شمال إفريقيا، وطلبوا منه أن يعجل لإنقاذ الإمبراطورية.

جهز هذا القائد ابنه، هرقل الأصغر، بأسطول انطلق به من شمال إفريقيا، وتوجه إلى القسطنطينية، ف قضى على الحاكم المستبد فوكاس، وجلس على عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) سنة 610، وهي السنة التي بدأ فيها نزول الوحي على الرسول ﷺ.

الرسول ﷺ من بداية الوحي إلى الهجرة (610 - 622):

كان الرسول ﷺ يذهب من حين إلى آخر إلى غار حراء، وينقطع هناك للتأمل والتحنُّث. وبينما هو في الغار ذات يوم جاءه الملك جبرائيل وفي يده صحيفة، وقال له اقرأ...! فكان ذلك اللقاء بداية نزول الوحي على الرسول الأكرم ﷺ؛ وحدث ذلك في يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان المبارك، وفي سنة 610 ميلادية.

سارعت خديجة رضي الله عنها إلى تصديق أقوال محمد ﷺ، فأمنت برسالته، وبأنه نبي هذه الأمة. وتبعها ابن عمه علي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة (الذي تبناه النبي ﷺ)؛ واعتنق الإسلام بعدهم بلال، وأبو بكر الصديق؛ وتلاههم رجال من كبار أهل مكة، وطائفة من الموالي والفقراء.

بدأت عداوة قريش للرسول ﷺ وللمسلمين واشتدوا في أذاهم، كما هو مفصل في كتب السيرة. وبعد ثلاث سنوات من الدعوة سرّاً أمر الله نبيه أن يجهر بما ينزل عليه من الوحي. وفي السنة الخامسة للبعثة (615 ميلادية) نصح الرسول ﷺ عدداً من المسلمين بالهجرة

إلى الحبشة. كان عددهم 83 رجلاً و17 امرأة، وكان من بينهم عثمان ابن عفان، وزوجه رقية، والزيير بن العوام، وجعفر بن أبي طالب، وعمرو بن سعيد وغيرهم.

وفي السنة نفسها قررت قريش أن يقاطعوا بني هاشم وبني عبد المطلب للتضييق على المسلمين، وفرضوا عليهم حصاراً في شعب من شعاب مكة دام نحو سنتين. وازداد أذى المشركين للنبي وأصحابه بعد أن توفي عمه أبو طالب، وزوجه خديجة سنة 619 ميلادية. وفي العام التالي (620م) هاجر الرسول ﷺ إلى الطائف، ودعا طائفة من أهله إلى الإسلام، فلم يجد منهم أذناً صاغية.

وفي تلك الظروف القاسية التي توالى فيها عداوة قريش للمسلمين وقعت حادثة الإسراء والمعراج، وفرضت الصلوات الخمس على المسلمين. وفي عام 622 ميلادية بدأت بوادر الانفراج تظهر في السنة الثالثة عشرة من البعثة، عندما قدم من يثرب إلى مكة 73 رجلاً ممن أسلموا من قبيلتي الأوس والخزرج، فاجتمعوا بالرسول ﷺ، وكان برفقته عمه العباس، وبايعوه على أنه إذا قدم إليهم في يثرب فإنهم سيرحبون به ويحمونه ويدافعون عن دعوته.

خرج الرسول ﷺ، وبصحبه أبو بكر الصديق، قاصداً مدينة يثرب التي أصبحت تعرف بعد ذلك بالمدينة المنورة، ووصل إليها في 16 ربيع الأول، الموافق للرابع والعشرين من شهر سبتمبر (أيلول) من عام 622 ميلادية. وكانت هذه الهجرة بداية عهد جديد للإسلام.

اعتلى هرقل عرش الإمبراطورية الرومانية كما تقدم سنة 610؛ واستغل كسرى ضعف الدولة الرومانية فواصل حملاته، واستولت جيوشه على أرْمينيا، وسوريا، وفلسطين، ودخلت مدينة القدس فنهبته، وأخذت الصليب المقدس، وأخذت أعداداً كبيرة من الأسرى؛ وهاجمت قوات فارسية أخرى مدينة خَلْقَدون الواقعة عبر مضيق البوسفور، مقابل القسطنطينية عاصمة الروم. وتابعت جيوش الفرس زحفها فاستولت على مدينة الإسكندرية عام 616، وما لبثت أن سيطرت على مصر سنة 619.

وقد فرح كثير من أهل مكة بالانتصارات التي حققها الفرس على الروم، غير أن الرسول ﷺ لم يفرح بانتصار المجوس على أهل الكتاب، وفي تلك المناسبة نزل عليه الوحي ليطمئنه بأن النصر سيكون في النهاية للروم:

﴿آلَمَ (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ...﴾ (سورة الروم - الآيات 1 - 4) .

ظل هرقل طوال هذه السنوات العصيبة يسعى جاهداً لتنظيم الجيش وتقوية الأسطول، وكان يوزع الأراضي على الفلاحين الذين يرسلون أولادهم للانخراط في الجيش، ويعمل على تدعيم اقتصاد البلاد وأركان الدولة المنهارة. وحدث أن وافق البطريق سرجيوس على أن يقدم له قروضاً من ثروة الكنائس ليساعده على تحرير البلاد

والانتقام لما فعله الفرس في مدينة القدس. وسعى هرقل إلى عقد الصلح مع الآفار ليتفرغ لمحاربة الفرس.

وعندما شعر هرقل أن ساعة الانتقام من كسرى قد دقت، لم يعبر بجيشه مضيق البوسفور ليهاجم على جيش الفرس المعسكر في خلقدون القريبة، ولكنه أبحر إلى البحر الأسود (سنة 622)، ثم اخترق بجيشه أرمينية، وهاجم جيوش كسرى من خلفها، ثم هاجم مدينة كلورومية (مسقط رأس زرادشت)، انتقاماً لما فعله كسرى في مدينة القدس.

وأرسل كسرى جيوشه واحداً تلو الآخر لمواجهة جيش الروم، ولكن دون جدوى. وحدث أثناء غياب هرقل أن حاصرت قوات من جيوش الفرس، والآفار، والبلغار مدينة القسطنطينية، سنة 626، فسارع هرقل إلى إرسال جيش هزم المحاصرين، وحرّر مدينة خلقدون عبر البوسفور. وتابع هرقل حملته الرئيسية حتى استولى على مدينة طيسفون (المدائن).

وفي النهاية ثار بعض القواد على كسرى وسجنوه؛ ودبرت مؤامرة وسط الأسرة المالكة، فحكموا عليه بالموت، وقتله أحد أبنائه يدعى شيروى سنة 628. ونجح هرقل في أن يسترد جميع ما استولى عليه الفرس من أراضي الروم ومستعمراتهم، وعاد إلى القسطنطينية، عاصمة الروم، بعد غياب دام نحو سبع سنين.

الرسول ﷺ في المدينة المنورة (622 - 632):

وصل الرسول ﷺ إلى مدينة يثرب (المدينة المنورة) في 16 من شهر ربيع الأول، الموافق لـ 20 من شهر سبتمبر (أيلول) عام 622 ميلادية. وكانت هذه الهجرة بداية عهد جديد للإسلام، وفتحا عظيماً على المسلمين.

بدأ الرسول الأكرم، ﷺ، بتنظيم العلاقات الاجتماعية، فأخى بين الأنصار والمهاجرين بأخوة الإسلام بدلاً من صلات الدم والقبيلة وحدها. وشرع في تطبيق التعاليم العقائدية، وتنظيم المعاملات الضرورية للحياة اليومية الجديدة في المدينة المنورة. وعقد عهداً مع القبائل اليهودية، فوادعهم وأقرهم على ذمهم وأموالهم. وخصص جزءاً هاماً من نشاطه للتشاور والتحاور مع زعماء القبائل وكبار المهاجرين والأنصار. لقد أتاحت له الفرصة الآن لينهض بجميع الأعمال التي يتطلبها تأسيس دولة مدنية حضرية ومجتمع يكون الولاء فيه لله ولرسوله ولتعاليم الإسلام.

ورغب المسلمون في استرجاع بعض ما استولى عليه أهل مكة من أموالهم، عندما اضطروا لمغادرة مساكنهم، فأمرهم الرسول ﷺ بالإغارة على قوافل قريش التجارية التي تمر قرب المدينة، ومن ذلك أنهم اعترضوا قافلة كان يقودها أبو سفيان، من الشام إلى مكة، وكان ذلك من الأسباب التي أدت إلى غزوة بدر الشهيرة (وبدر واد على بعد نحو 20 ميلاً من المدينة). وقد حدثت هذه الغزوة سنة 624 ميلادية، والتقى فيها 300 من جنود المسلمين بألف من رجال قريش؛ وحقق فيها المسلمون نصراً عظيماً.

وقررت قريش أن تنتقم لهزيمتها في معركة بدر، فخرجت في نحو 3 آلاف رجل، في شهر شعبان من السنة الثالثة للهجرة (الموافق لعام 625 ميلادية)، وعسكروا بالقرب من جبل أحد (على نحو 3 أميال من المدينة المنورة)، وتصدى لهم جيش المسلمين وعددهم نحو 700 مقاتل، بعد أن تخاذل عبد الله بن أبي ورجع إلى المدينة في 300 رجل. وكان النصر في الجولة الأولى للمسلمين، غير أن الرماة خالفوا أمر الرسول ﷺ وغادروا أماكنهم، فهاجم فريق من جيش قريش المسلمين من الخلف؛ وكاد المسلمون يهزمون، ولكنهم جمعوا شملهم مرة ثانية وصمدوا في وجه جيش المشركين.

ومن الحملات الكبيرة التي قامت بها قريش للقضاء على شوكة المسلمين وقوتهم في المدينة المنورة أنها جمعت في عام 626 ميلادية جيشاً قوامه نحو عشرة آلاف مقاتل توجهوا به إلى المدينة. وتعرف هذه الحادثة بغزوة الأحزاب (وغزوة الخندق). وفضل المسلمون أن يدافعوا عن مدينتهم ببناء خندق حولها. وبعد أن حاصر جيش قريش المدينة المنورة مدة عشرين يوماً، اختلفوا في أمرهم، ثم تفرقوا وعادوا من حيث أتوا دون نتيجة. وعلى إثر ذلك جهز الرسول ﷺ جيشاً لمعاينة يهود بني قريظة الذين كانوا قد نقضوا العهد، واشتدوا في عداوتهم للمسلمين.

وفي سنة 628 ميلادية أرسل الرسول ﷺ إلى قريش يعرض عليهم الصلح، ويضمن لهم سلامة قوافلهم التجارية، إذا رضوا أن يدخل مسلموا المدينة مكة لأداء شعائر الحج، فقبل زعماء قريش

بذلك، وسجلت شروط الهدنة بين الفريقين، وبذلك تمكن مسلمو المدينة (نحو ألفين منهم) من دخول مكة مسلمين في السنة التالية، أي 629 ميلادية. وباتت هذه الهدنة تعرف بصلح الحديبية.

وفي 628 ميلادية (السادسة للهجرة) أرسل الرسول ﷺ رسائل إلى عدد من الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام؛ ومن هؤلاء هرقل، إمبراطور بيزنطة؛ وكسرى أبرويز، ملك الفرس؛ والنجاشي، ملك الحبشة؛ والمقوقس، عامل هرقل على مصر؛ والحارث الغساني ملك الحيرة؛ والحارث الحميري ملك اليمن. ويروى أن المقوقس أرسل إلى الرسول ﷺ بهدايا منها جاريتان، تزوج بإحدهما، وأهدى الأخرى إلى الشاعر حسان بن ثابت.

كان اليهود أشد خطراً على المسلمين من قريش؛ وكان يهود خيبر يمثلون قوة كبيرة، يدعمهم في عداوتهم يهود بني النضير. وخشي الرسول ﷺ أن يجمعوا أحزابهم ويثوروا ضد المسلمين، فقرر أن يبادرهم ويتخلص من تهديدهم، فخرج إليهم وحاصر حصونهم حتى استسلموا الواحد تلو الآخر بعد دفاع مريع. وعندما تم النصر للمسلمين، ترك لهم الرسول الأرض والنخيل ليستغلوها على أن يكون نصف إنتاجها للمسلمين.

وفي سنة 630 ميلادية نقضت إحدى القبائل المتحالفة مع قريش شروط الهدنة التي أقرها الرسول ﷺ مع قريش (في صلح الحديبية)، فجمع الرسول جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل، وعسكر خارج مكة، فجاءه أبو سفيان معلناً إسلامه، وعاد إلى مكة فنصح القوم ألا

يعارضوا دخول المسلمين إلى مكة لأنهم لا يقدرّون على مواجهة جيشهم. وأعلن الرسول الكريم عفوًا عامًا على أهل مكة التي خرج منها مختفيًا قبل ثماني سنوات فقط.

وفي السنة العاشرة للهجرة خرج الرسول ﷺ للحج في أكثر من مائة ألف من المسلمين، وهو ما يعرف بحجة الوداع. وعندما وقف على جبل عرفات ألقى خطبته المشهورة. وقد تم نزول القرآن عندئذ بقوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة - الآية 3).

خطبة حجة الوداع:

بعد أن حمد الله وأثنى عليه، قال رسول الله ﷺ:

«أيها الناس، اسمعوا قولي، فإنني لا أدري لعلي لا ألتاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع وإن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعًا في بني ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء

الجاهلية، أما بعد: أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يُطعَ فيما سوى ذلك فقد رضي به فيما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس، إن النسيء⁽¹⁾ زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يُحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية، ورجب الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد: أيها الناس، فإن لكم على نساتكم حقاً ولهن عليكم حقاً، لكن عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإنني قد بلغت، وقد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً: كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟ فقال الناس: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد».

(1) النسيء: النسيء والنساء والنسيئة يعني: التأخير.

لقد جهز الرسول ﷺ خلال السنوات العشرة التي مكثها في المدينة 65 غزوة وسرية حربية، وأثبت قدرته على إدارة شؤون المسلمين في السلم والحرب، وأدى رسالة ربه على أكمل وجه.

وفي شهر مارس (آذار) من عام 632 ميلادية جهز النبي ﷺ جيشاً بقيادة أسامة بن زيد، وبينما كان المسلمون يستعدون للخروج لهذه الغزوة الموجهة إلى الشام لمحاربة الروم، علموا أن المرض اشتد على الرسول ﷺ، والتحق بالرفيق الأعلى بعد مرض دام 13 يوماً. وكانت وفاته ﷺ في 12 ربيع الأول سنة 11 هجرية (الموافق لـ8 يونيو (جوان) من عام 632 ميلادية).

انتشار الإسلام:

جاء الإسلام برسالة التوحيد، وجعل رابطة العقيدة أساس المجتمع الإسلامي، ورفض الروابط القبلية والعنصرية والقومية والطبقية، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى؛ ويؤكد هذا المبدأ صريح الآية ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات - الآية رقم 13).

وتواصلت الفتوحات، وانتشر الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، والدولة الأموية، والعباسية، وشملت رسالة الإسلام عالماً واسعاً وأممًا مختلفة من المحيط الأطلسي إلى الشرق الأقصى.

وقد جعل الإسلام من أهم اللبانات التي تبنى عليها الدولة

(بعد عقيدة التوحيد): طلب العلم، الجد في العمل، العدل، والشورى، والقيم الأخلاقية الإنسانية.

اعتنقت شعوب وقبائل عقيدة الإسلام، ورحبت برسائله عن طوع واختيار، على مبدأ «لا إكراه في الدين» و«لكم دينكم ولي ديني». وعلى من اختار أن يبقى على دينه أن يدفع الجزية؛ وظل الإسلام يحرص على معاملة أهل الكتاب من النصارى بالعدل والإحسان.

وانتشر إشعاع الحضارة الإسلامية شرقاً وغرباً خلال قرون امتدت من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر الميلادي، وبدأ المسلمون بإحياء علوم اليونان والرومان وآدابهم ومعارفهم، ثم دخلوا مراحل الإنتاج والإبداع، فحققوا إنجازات كثيرة في ميادين الفلك، والهندسة، والطب، والجغرافيا، والرياضيات، والفلسفة.

ومن المعروف أنه خلال القرون التي انتشرت فيها الحضارة العربية الإسلامية، ازدهرت وأثمرت في مجالات العلوم النظرية والتطبيقية، وهي الفترة التي تعرف في أوروبا «بالقرون الوسطى»، كانت دول هذه القارة تتحدر نحو الانحطاط، وكانت شعوبها ترزح تحت سحب الجهل والتخلف. وخلال تلك العصور الطويلة لم يبق في أوروبا من العلوم والآداب إلا ما كان مخزوناً في الأديرة والكنائس.

أخلاق المؤمن



فيما يلي باقة من الأحاديث الشريفة التي

رويت عن الرسول الأكرم ﷺ

- أخلاق المؤمن :

قال رسول الله ﷺ: «إن من أخلاق المؤمن: قوة في دين، وحزمًا في لين، وإيمانًا في يقين، وحرصًا في علم، وشفقة في مقعة⁽¹⁾، وحلمًا في علم، وقصدًا في غنى، وتجمالًا في فاقة، وتحرجًا عن طمع، وكسبًا في حلال، وبرًا في استقامة، ونشاطًا في هدى، ونهيًا عن شهوة، ورحمة للمجهود. وإن المؤمن من عباد الله لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم في من يحب، ولا يضيع ما استودع، ولا يحسد ولا يطعن ولا يلعن، ويعترف بالحق، وإن لم يُشهد عليه، ولا يتنازب بالألقاب، في الصلاة متخشعًا، إلى الزكاة مسرعًا، في الزلازل وقورًا، في الرخاء شكورًا. قانعًا بالذي له، لا يدعي ما ليس له، ولا يجمع في الغيظ، ولا يغلبه الشح عن معروف يريده. يخالط الناس كي يعلم، ويناطقهم كي يفهم. وإن ظلم وبُغِيَ عليه صبر حتى يكون الرحمن هو الذي ينتصر له».

رواه الترمذي

- في التراحم والتعاطف :

عن النعمان بن بشير، قال ، قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

رواه الشيخان

(1) مقعة : محبة.

- اتقاء الشبهات :

عن النعمان بن بشير، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول، وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه: «إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما مُشبهات لا يعلمنهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات، استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

رواه الشيخان

- شارب الخمر :

عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ أتى برجل قد شرب الخمر، فجلده بجريدتين نحواً من أربعين. وفعله أبو بكر. فلما كان عمر استشار الناس. فقال عبدالرحمن بن عوف: أخف الحدود ثمانين، فأمر به عمر.

رواه مسلم

- فليقل خيراً أو ليصمت :

عن أبي شريح العدوي أنه قال: سمعت أذناي وأبصرت عيناي

حين تكلم رسول الله ﷺ فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته» قالوا: وما جائزته يا رسول الله! قال: يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

رواه الشيخان

- لا تحاسدوا :

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً».

رواه الشيخان

- الأعمال، ليس المظاهر :

عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم».

رواه مسلم

- الصدق والكذب :

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البرِّ، وإن البرِّ يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب صديقاً؛ وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب كذاباً».

رواه الشيخان

- الرفق بالحيوان :

«بينما رجل يمشي بطريق، اشتدَّ عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها، فشرب منها ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ماءً، ثم أمسكه بفيه ثم رقي وسقي الكلب، فشكر الله له فغفر له، فسئل النبي فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر».

رواه الشيخان

- حق الطريق :

قال النبي ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات، فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: فإذا أبيتم إلا المجلس، فأعطوا

الطريق حقها، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: غضّ البصر، وكفّ الأذى، وردّ السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر».

رواه الشيخان

- الغيبة :

قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشدّ من الزنا، إن الرجل قد يزني ويتوب، فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله تعالى له حتى يغفر له صاحبه».

- من المفلس ؟

روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أخذ ما خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار».

- البطانة :

قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من

خليفة إلا وكانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله».

- الصدقة :

قال رسول الله ﷺ: «تبسّمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة».

رواه البخاري

- المؤمن القوي :

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القويُّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

رواه مسلم

- البيع، الخطبة:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تناجشوا»⁽¹⁾، ولا يبيع المرء على بيع أخيه، ولا يبيع حاضر لبادٍ، ولا يخطب المرء على خطبة أخيه، ولا تسأل المرأة طلاق الأخرى لتكتفى ما في إنائها».

رواه مسلم

- من حقوق الزوج:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه (فلم تأتته) فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح».

رواه الشيخان

- أربعة يبغضهن الله تعالى: البياع الحلاف، والفقير المحتال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر.

رواه النسائي

- «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن

(1) نَجَش: زاد في ثمن السلعة.

ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يُعنه».

رواه النسائي

- «أربع من كنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

رواه البخاري ومسلم

- «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها دخلت الجنة».

- حول الزواج :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «تتكح المرأة لأربع، لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت⁽¹⁾ يداك».

رواه الشيخان

(1) تربت : التصقت بالتراب.

- المرأة الصالحة :

عن عبدالله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

رواه مسلم

- استوصوا بالنساء خيراً :

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فإذا شهد أمراً فليتكلم بخير أو ليسكت، واستوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، استوصوا بالنساء خيراً».

رواه الشيخان

- الرجل القوي :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب».

رواه الشيخان

- الرفق بالحيوان :

عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «عُذِبَتْ امرأة في هرة سجنها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقيتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

رواه الشيخان

- رعاية الجار :

عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه ليورثه».

رواه الشيخان

- «إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم».

رواه الشيخان

- «أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علماً، ثم يعلمه أخاه المسلم».

رواه ابن ماجه

- «اعلموا أنه ليس منكم من أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله؛ مالك ما قدّمت ، ومال وارثك ما أخّرت».

رواه البخاري

- «اغتمم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك».

رواه البيهقي

- «أعظم الناس حقاً على المرأة زوجها؛ وأعظم الناس حقاً على الرجل أمه».

رواه النسائي

- الغيبة :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟» قال الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته، وإن لم يكن فقد بهتته»⁽¹⁾.

رواه مسلم

(1) كذبت عليه.

- من أعظم الذنوب :

«إن أعظم الذنوب عند الله رجل تزوج امرأة فلما قضى حاجته منها طلقها، وذهب بمهرها، ورجل استعمل رجلاً فذهب بأجرته».

رواه البيهقي

- «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

رواه مسلم

- حق الزوج على زوجته: أن لا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب، وأن لا تصوم يوماً واحداً إلا بإذنه إلا لفريضة، فإن فعلت أثمت، ولم يتقبل منها، وأن لا تعطى من بيته شيئاً إلا بإذنه، فإن فعلت كان له الأجر، وكان عليها الوزر، وأن لا تخرج من بيته إلا بإذنه، فإن فعلت لعنها الله وملائكة الغضب حتى تتوب أو تراجع وإن كان ظالماً.

رواه الطيالسي

- ستة أشياء تحبب الأعمال: الاشتغال بعيوب الخلق، وقسوة القلب، وحب الدنيا، وقلة الحياء، وطول الأمل، وظالم لا ينتهي.

رواه الديلمي

- «سارعوا في طلب العلم، فالحديث من صادق خير من الدنيا وما عليها من ذهب وفضة».

- عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».

رواه مسلم

- عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله بها عنه كربة من كربة من يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

رواه الشيخان

- «اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا أتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم».

رواه البيهقي

- «أربعة من كَنز الجنة: إخفاء الصدقة، وكتمان المصيبة، وصلة الرحم، وقول: لا حول ولا قوة إلا بالله».

- «أربع من كنّ فيه حرّمه الله تعالى على النار، وعصمه من الشيطان: من ملك نفسه حين يرغب، وحين يرهب، وحين يشتهي، وحين يغضب. وأربع من كنّ فيه نشر الله تعالى عليه رحمته، وأدخله جنّته: من آوى مسكيناً، ورحم الضعيف، ورفق بالملوك، وأنفق على الوالدين».

- «أربع من أعطيهنّ فقد أعطى خير الدنيا والآخرة: لسان ذاكراً، وقلب شاكراً، وبدن على البلاء صابراً، وزوجة لا تبغيه خوفاً في نفسها ولا ماله».

رواه الطبراني

- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يا ربّ كيف أعودك وأنت ربّ العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لوعدته لوجدتني عنده؛ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا ربّ كيف أطعمك وأنت ربّ العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته

لوجدت ذلك عندي؛ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يا ربّ كيف أسقيك وأنت ربّ العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي».

رواه مسلم

- قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

حديث شريف

- قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».

حديث قدسي

- قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

حديث شريف

- قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه».

حديث شريف

المختصر المفيد حول بعض المذاهب والفرق الإسلامية



المختصر المفيد

حول بعض المذاهب والفرق الإسلامية



بعد وفاة الرسول الأكرم، ﷺ، نشأت اختلافات بين كبار الصحابة، رضي الله عنهم، وظهرت آراء واجتهادات كان هدف كل جماعة منهم المحافظة على مسيرة الدين الحنيف ورسالته العظمى، كان الخلاف بين المهاجرين والأنصار حول من يتولى شؤون المسلمين، وكان ما كان من حوار بينهم، إلى أن تقدم عمر بن الخطاب وبابك، فهدأت النفوس. ويروى المؤرخون أن علياً بن أبي طالب كان مشغولاً بتجهيز جثمان الرسول، ﷺ، ودفنه، وأن جمعاً من الصحابة كان يرى أن علياً كان أولى من أبي بكر بتولي شؤون المسلمين، ومن هؤلاء الصحابة عمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، وحذيفة، والعباس بن عبد المطلب، وكثير غيرهم.

ثم أوصى أبو بكر ﷺ بالخلافة لعمر بن الخطاب ﷺ، فنهض بشؤون الإسلام والمسلمين بعدل وحزم، وسارت الأمور في عهده على أحسن ما يرام. ورأى عمر قبل وفاته أن يجعل أمر الخلافة من بعده في يد جماعة من كبار الصحابة، وبعد مشاورات سلموا الخلافة للصحابي الجليل عثمان بن عفان ﷺ.

وسرعان ما ظهر بعض الاستياء والتبرم في صفوف المناصرين

لعلي بن أبي طالب، ولكن منذ السنوات الأولى لخلافة عثمان بن عفان بدأ هذا الاستياء يتحول إلى توتر وتنافس بين بني هاشم وبني أمية، أي بين أنصار علي رضي الله عنه ومن يدعمون عثمان بن عفان رضي الله عنه.

لقد كان الخليفة من العشرة المبشرين بالجنة، وهو صاحب الفضل والأجر العظيم في تجهيز جيش العسرة من ماله، وهو ذو النورين، صاحب الفضائل والورع، غير أنه رضي الله عنه سمح لحوادث سلبية عن حسن نية منه، في السنوات الأخيرة من خلافته نسبت إلى تقدمه في السن، وإلى ضعف إرادته وشدة ثقته بمساعديه.

ومن الأمور التي أخذت على عثمان رضي الله عنه أنه سمح للحكم بن أبي العاص بالعودة إلى المدينة المنورة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخرجها منها؛ ونفيه لأبي ذر الغفاري إلى الربذة؛ وأنه زوج ابنته لمروان بن الحكم، وسلمه مغانم وهبات؛ وإيواؤه لعبد الله بن أبي سرح، وكان الرسول قد أهدر دمه؛ وتقديمه لأقاربه وأبناء عشيرته على غيرهم؛ واستسلامه لآراء مروان بن الحكم، بدلاً من الأخذ بنصائح علي بن أبي طالب وغيره من كبار الصحابة؛ وكان شديد الولاء لأشراف بني أمية الذين كانوا من أشد أعداء الإسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وقد استغل بعضهم قرابته من عثمان وتولوا مناصب هامة في عهده؛ وعدم اهتمامه ببني هاشم ومنهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ولا مناص في هذا السياق من الإشارة إلى الدور الذي لعبه عبد الله بن سبأ في نشر الفتنة. يعرف ابن سبأ بابن السوداء، كان على ملة اليهود ثم أسلم، ولكن لم يحسن إسلامه. وكان يتشيع لأهل البيت،

ويقول بإمامة علي بن أبي طالب قبل غيره، ويطعن في من سبقه من الخلفاء.

بدأ ابن سبأ دعوته منتقلاً بين الأمصار، انطلاقاً من الحجاز إلى البصرة، والكوفة، والشام، ثم إلى مصر. وكان يرسل أصحابه ويتصل بالثائرين الناقمين على الخليفة، واستطاع أن يؤثر في نفوس العامة، وأن يؤلب الولايات الإسلامية على سياسات عثمان وولاته، وعمل على نشر المقالات التي تقدر علي بن أبي طالب، وتطعن الخليفة وولاته.

ظل ابن سبأ يؤكد حق علي في إمامة المسلمين مباشرة بعد وفاة الرسول ﷺ، وأنه هو «الوصي» الأحق بالخلافة، غير أن الخلفاء الثلاثة اغتصبوا حقه. وواصل جهوده في مختلف بلاد الإسلام يحرض الناس ويطعن في الولاة الذين عينهم عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وكان يظهر تهكمه من أولئك الذين يصدقون إن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام سيعود إلى الحياة؛ ليملاً الأرض عدلاً وهداية، ولا يصدقون مثل ذلك في محمد الرسول ﷺ؛ وكان يبشر الناس بأن علياً هو الذي سيعود (بعد وفاته)؛ ليملاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً. وقد تطورت هذه الفكرة بمرور الزمن إلى القول باختفاء الأئمة وعودتهم إلى الحياة، وأصبحت تعرف «بالرجعة» وبعودة «المهدي المنتظر»، وقد تبناها عدد من المذاهب والفرق الإسلامية.

نجح ابن سبأ في استمالة كثير من الناس إلى دعوته بعد أن كساها بلباس العقيدة، وجعل أساس دعوته «أهل البيت وحقهم المقدس في الإمامة»، وروج بين المسلمين أن علياً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يستمد حقه في الإمامة

من الله، لأنه وصيُّ رسول الله، وهي نظرية «الحق الإلهي» التي أخذها ابن سبأ عن الفرس.

ويبدو أنه استطاع كذلك أن يؤثر على آراء الصحابي الورع الزاهد أبي ذر الغفاري الذي كان ينتقد من يدخرون المال ويكنزون الذهب والفضة، ولا ينفقونها على الفقراء. وعلى الرغم من أن أبا ذر كان يدعو إلى الإحسان ومساعدة المساكين عن حسن نية وعقيدة سليمة، فإن آراءه ساعدت على تحريض الناس على الخليفة عثمان رضي الله عنه نظراً لتسامحه مع الأثرياء من أقربائه وولاته.

وبالإضافة إلى البدع والضلالات التي كان ينشرها المنافق ابن سبأ، وإلى المواقف الشجاعة والصريحة التي أعلنها أبو ذر الغفاري ضد تصرفات الخليفة عثمان، وضد معاوية وعدد من الولاة الآخرين، فإن فئة من الصحابة أعلنوا استيائهم من سياسات عثمان في الفترة الأخيرة من خلافته، ومن هؤلاء الصحابة عمار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة وغيرهم.

وفي نهاية المطاف خرج من مصر عدد من المسلمين يتجاوز عددهم خمسمائة شخص، كانوا من الناقمين على سياسات عثمان، وعندما وصلوا إلى المدينة طلبوا من عثمان أن يعتزل الخلافة؛ فلما رفض حاصروا منزله، ثم كان ما كان من اقتحام منزله وقتله.

بويح علي بن أبي طالب بالخلافة، وكان مثلاً سامياً للتقوى والعدل والتواضع والإخلاص لدين الإسلام. وبدأت مرحلة أصبحت

فيها السياسة وحب السلطة تقدم على شعائر الدين وتعاليمه. وكان ما كان من تحزبات ومنازعات وعداوات وتصفية الحسابات بين شخصيات إسلامية. وحدثت معركة «الجمال» فهزم من هزم وانتصر من انتصر. ثم حدثت معركة صفين بين جيش علي بن أبي طالب وجيش معاوية، وانتهى الأمر بحادثة التحكيم. وحدث أن اتخذت طائفة من جيش الخليفة علي رضي الله عنه من هذه الحادثة ذريعة للخروج عليه.

وانتهت حياة هذا الرجل العظيم، البطل المخلص للإسلام عندما طعنه رجل من الخوارج يدعى عبد الرحمن بن ملجم، فانتقلت الخلافة إلى معاوية، وانتصر الحزب الأموي على الهاشميين، وأصبحت الخلافة ملكية وراثية في بني أمية، ولكن إلى حين.

الخـوارج



تقع «صفين» على الضفة اليمنى من نهر الفرات على الحدود السورية. وفي ذلك المكان التقى جيش علي بن بي طالب القادم من العراق، بجيش معاوية بن أبي سفيان القادم من الشام. وفي الوقت الذي كاد أن يحسم فيه أمر المعركة لصالح الخليفة علي، أشار عمرو ابن العاص، وكان في صف معاوية، بأن ترفع طائفة من الجند المصاحف على رؤوس الرماح مطالبين بتحكيم كتاب الله بين الفريقين. وفي هذه الظروف أجبر أهل العراق علياً رضي الله عنه بأن يوقف القتال، ويدخل في مفاوضات مع معاوية، وهو ما عرف بعملية «التحكيم».

غير أن طائفة من جيش الخليفة علي سرعان ما أنحوا عليه باللائمة. وعنفوه على قبوله بالتحكيم بينه وبين العدو معاوية، وانشقوا عليه رافعين شعار "لا حكم إلا لله". انسحبت هذه الطائفة إلى مكان يدعى "حروراء"، وانتخبوا خليفة لهم يدعى عبد الله بن وهب الراسي، وأصبحوا يعرفون بالخوارج لخروجهم على الخليفة علي رضي الله عنه، ويعرفون كذلك "بالشراة"، لأنهم باعوا أنفسهم لله، وذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ (البقرة - الآية رقم 207).

وبما أن طائفة الخوارج اتخذت عملية "التحكيم" ذريعة للخروج على الخليفة، فإن مبدأ تأسيسها كان سياسياً، غير أنها سرعان ما تبنت

مبادئ عقائدية تتعلق بقضايا اختيار الإمام والإمامة، وبالحكم على الإمام علي ومن سبقه من الخلفاء، وعلى أصحاب معركة الجمل، وعلى مرتكب الكبيرة وغير ذلك. ومن معتقدات الخوارج وأرائهم ما يلي:

- الإمامة والخلافة : لا يشترطون أن يكون الإمام قرشياً، بل شرطهم أن يتوفر فيه الإسلام والعدل؛ فيجوز عندهم أن يكون حراً أو عبداً، قرشياً أو نبطياً؛ وهذا أسلوب جمهوري ديمقراطي.

- اعترفوا بخلافة أبي بكر وعمر، وبخلافة عثمان في عهده الأول.

- اعترفوا بخلافة علي حتى حين انجلت معركة صفين عن "التحكيم"، بعد ذلك قالوا بأن علياً كفر بقبوله بتحكيم الرجال، ولا حكم إلا لله، وكان خروجهم من صفوف علي تحت شعار: "لا حكم إلا لله". مع ملاحظة أنهم هم الذين حملوا الخليفة علي رضي الله عنه على قبول التحكيم.

- طعنوا في أصحاب معركة "الجمل": طلحة، الزبير، عائشة، رضي الله عنهم جميعاً.

- اعتبروا معاوية مغتصباً للخلافة وكفروه، كما كفروا أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص.

- كفروا كل من قعد عن القتال في صفوفهم، وأباحوا قتل أطفال المخالفين لهم ونسائهم.

- عندهم أن مرتكب الكبائر كافر، وكل من خالف مبادئهم كافر. وهم يرون أن تطبيق أركان الإسلام وفرائضه جزء من الإيمان، فإذا نطق المسلم بالشهادتين، وأهمل فرائض الدين، يرتكب الكبائر، وهو كافر.

وقد اشتهرت جميع فرق الخوارج (أو الشراة)، ما عدا الأباضية، بالمغالاة والتطرف في حكمهم على غيرهم من المسلمين بالكفر. ولكنهم اشتهروا كذلك بالشجاعة في محاربة أعدائهم، وبالإخلاص لعقائدهم، وبالورع والانهماك في العبادة، والعزوف عن متاع الدنيا وزخرفها.

ومن أشهر فرق الخوارج طائفة الأزارقة، وهم أتباع نافع بن الأزرق، خرجوا معه أيام عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب. وكان من زعماء هذه الطائفة قطرى بن الفجاءة. وقد حاربهم المهلب بن أبي صفرة في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي حتى قضى عليهم.

ومن مبادئ هذه الطائفة ومعتقداتها، بالإضافة إلى ما سبق ذكره:

- أطفال أعدائهم مع آبائهم في النار يوم القيامة.
- لا يقبل ممن خالفهم إلا الإسلام أو السيف.
- يرى الأزارقة أن "التقية"⁽¹⁾ لا تجوز في القول ولا في العمل.
- أسقطوا الحكم بالرجم على الزاني، وأوجبوه على المحصنات من النساء.
- قالوا بأن جميع أصحاب معركة "الجمل" مخلصون في النار.

(1) "التقية" عند بعض الفرق الإسلامية هي إخفاء الحق (في غير دولتهم) ومصانعة الناس تجنباً للضرر.

- أثنوا على عبدالرحمن بن ملجم (لعنه الله) الذي قتل الإمام
علي رضي الله عنه.

ومن فرق الخوارج طائفة «الإباضية»، وهم أتباع عبد الله بن
إباض التميمي الذي خرج في أيام مروان بن محمد، آخر خلفاء بني
أمية. وقد تمكنت هذه الطائفة من إنشاء دولة في عمان، جنوب شرق
الجزيرة العربية؛ وما زال لهم أتباع في عمان، وفي بلاد المغرب.
والإباضيون أقل تشدداً من الأزارقة في حكمهم على غيرهم من
المسلمين. ومن آرائهم ومعتقداتهم:

- أن أفعال العباد مخلوقة لله، ولكنها مكسبة للعبد في الحقيقة.

- يرون أن مرتكبي الكبائر موحدون، ولكن ليسوا بمؤمنين. فمن ارتكب
كبيرة كَفَرَ كُفْرَ النعمة، وليس كُفْرَ الملة.

- لا يسمون إمامهم «أمير المؤمنين».

- أجازوا تعذيب أطفال المشركين على سبيل الانتقام، ولكن أجازوا لهم
أن يدخلوا الجنة تفضلاً.

- قالوا عن المنافقين أنهم ارتكبوا كبيرة، ولكن ليسوا بمشركين، فقد
كفروا في الكبيرة وليس بالشرك، فهم موحدون كما حدث في عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- يقولون أن مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين، تجوز
مناكحتهم، وموارثتهم.

ومن فرق الخوارج: النجدية؛ العجاردة؛ الصفرية؛ المكرمية؛
البيهسية؛ وغيرها.

الشيعة



كلمة الشيعة تعني الفرقة، الجماعة، الأتباع، الأنصار.. وقد جاء في التنزيل الحكيم ﴿فَاسْتَوَيْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ (القصص - الآية رقم 15)؛ وجاء فيه ﴿لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ (مريم - الآية رقم 69).

ويقول ابن خلدون في مقدمته بأن كلمة «الشيعة» تطلق في عرف الفقهاء والسلف الصالح على أتباع علي وبنيه رضي الله عنهم. وترى الشيعة أن الإمامة من أركان الدين، وأن علياً هو الذي عينه الرسول ﷺ بنصوص، يؤولونها على مقتضى مذهبهم، ليتولى شؤون المسلمين من بعده.

ويطرح السؤال: متى نشأت بذرة الشيعة والتشيع؟ فهل زرعت هذه البذرة مباشرة بعد وفاة الرسول ﷺ عندما رأى بعض الصحابة، ومنهم عمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، والعباس وبنوه، وأبي بن كعب، أن أهل البيت الأقربون إلى الرسول ﷺ هم الأولى بأن يتولوا شؤون المسلمين؟ ويروى أنه عندئذ جاء العباس بن عبد المطلب إلى ابن أخيه علي بن أبي طالب وقال له: هات يدك أبايعك فأنت أولى أن تتولى شؤون المسلمين.

ومرت السنون، وتطورت فكرة الشيعة والتشيع، وراح أتباع أهل البيت من الشيعة يقولون بأن الرسول ﷺ أوصى لعلي بن أبي طالب،

تصريحاً وتعريضاً، وفي مناسبات عديدة، ليتولى الأمر من بعده؛ ورووا لذلك عن رسول الله نصوصاً تناقلوها وأولوها، ومنها:

- «من كنتُ مولاه، فعَلِيٌّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا هل بلغت (ثلاثاً)».

- أنه ﷺ قال: أفرضكم زيد، وأقرأكم أبي، وأعرفكم بالحلال معاذ، وأقضاكم علي».

والتضاء أساس الإمامة. ويؤكد أتباع أهل البيت من الشيعة أن الخلافة قاعدة من قواعد الإسلام، وركن من أركانه، لذلك لم يكن لرسول الله ﷺ أن يغفلها، بل أوصى بها لعلي رضي الله عنه. وأضافوا بأن الخلافة تبقى في ذرية علي وفاطمة رضي الله عنهما. وهم يرون أن خلافة المسلمين من الأهمية بحيث أنها لا تترك لعموم الناس ليختاروا من شاؤوا، ولا يمكن أن يفوض الأمر لجماعة ليعينوا واحداً منهم ليتولى أمور المسلمين، بل لابد من وجود نص يعين الإمام أو الخليفة، وهذا هو ما فعله الرسول الأكرم ﷺ عندما أوصى لعلي رضي الله عنه.

وبناء على اعتقاد الشيعة بأن الإمامة حق لعلي بن أبي طالب بالوصاية، وميراث لأولاده، فهم لا يعترفون بشرعية خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، بل يرون أنهم اغتصبوا حق من كان أولى بها. ونجد من أتباع مذهب الشيعة من طعنوا في إسلام كبار الصحابة وكفروهم، وتناسوا ما نزل في حقهم من نصوص القرآن التي

تشهد لهم بالصلاح والرضا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة - الآية رقم 100). وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (الفتح - الآية رقم 18).

وتشير عبارة الإمامية «الاثني عشرية» إلى طائفة الشيعة الذين يعتقدون بأن الإمامة تنحصر في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتستمر في ذريته حتى الإمام الأخير (الثاني عشر) وهو محمد المهدي بن الحسن العسكري، ويعتقد الشيعة مخلصين بأن هؤلاء هم الأئمة الأحق من غيرهم بإمامة المسلمين.

ومن معتقداتهم كذلك أن الإمام علي ومن جاء بعده من الأئمة من ذريته معصومون عن الخطأ وعن ارتكاب الذنوب؛ ويعتقدون أيضاً «بالرجعة» أو العودة، وهي أن يرجع الإمام إلى الحياة بعد وفاته، وهو ما أصبح يعرف بالإمام المنتظر الذي يرجع إلى الدنيا ليملأ الأرض عدلاً، بعد أن ملئت جوراً وعدواناً. والمهدي المنتظر عند الشيعة الاثني عشرية هو محمد المهدي بن الحسن العسكري (آخر أئمتهم) الذي سيعود آخر الزمان ليصلح أحوال المسلمين.

ومن معتقدات هذا المذهب ومبادئه فكرة «التقية»، ومعناها أنه يجوز للمسلم الشيعي أن يخفي حقيقة معتقداته، وأن يظهر غير ما يبطن، أثناء الظروف المعادية، إذا كان هذا السلوك ضرورياً للمحافظة على معتقداته وعلى مصالح المسلمين. ومن مبادئهم القول «بحرية الإرادة» التي يقول بها المعتزلة، وهي أن الإنسان قادر بعقله على التمييز بين الخير والشر، وبذلك مسؤول عن أفعاله.

وبينما يأخذ مذهب أهل السنة بمبدأ «الإجماع»، عند غياب النصوص، كمصدر لاتخاذ قرارات في إطار الشريعة، يرى مذهب الشيعة أن الإمام هو مصدر المعرفة وتعاليم الشريعة، لأنه الإمام وحده له صفة المعصومية.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن بعض فرق الشيعة وقعت تحت تأثيرات فارسية وأفكار هندية، ونظريات وشعائر يهودية ونصرانية، وتطورت تعاليمها بفعل هذه التأثيرات، فأصبحت تصور الإمام في صورة مخلوق ميتافيزيقي، وتجاوزت بعض هذه الفرق حدود العقل والإيمان والمنطق فراحت تُشبه المخلوق بالخالق جل وعلا، وتشبه الله بالمخلوق؛ وتبنّت نظريات الحلول والتناسخ من مصادر خارجة عن الدين الحنيف، وقالوا بأن الكمال والعصمة في الإمام لا تكونان لغيره، لذلك فإن روحه تنتقل بعد وفاته إلى الإمام الذي يأتي بعده ليرث منه صفة الكمال، وهذا قول صريح بتناسخ الأرواح.

وفيما يتعلق بنظرية «المهدي المنتظر» سبق أن الاثنى عشرية تقول بأنه محمد بن الحسن العسكري، وتؤكد أنه دخل في سرداب واختفى، وسيخرج في آخر الزمان؛ ولكن من الفرق من يقول بأن المهدي المنتظر هو الإمام جعفر الصادق؛ ومن يؤكد أن المهدي المنتظر هو محمد بن الحنفية، وأنه لم يمّت، بل إنه مقيم في جبل رضوى، وعن يمينه ويساره نمرٌ وأسدٌ يحرسانه، وأن رزقه يصل إليه كل يوم، في انتظار أن يخرج إلى الخلق ليملاً الأرض عدلاً. وتقول فرقة الدروز: إن الإمام المهدي المنتظر هو الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي سيعود ليحكم العالم ويصلح أحوال البشرية؛ هذا بالإضافة إلى أسماء أخرى منهم

علي بن أبي طالب، وسلمان الفارسي، والمسيح عليه السلام الذي سيعود إلى الأرض ليقتل «الذجال».

ومن المفيد في هذا السياق الإشارة إلى ما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته إذ يقول: «اعلم أن المشهورين الكافة من أهل الإسلام، على ممرِّ الأعصار، أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويستولى على الممالك الإسلامية، ويسمى «المهدي»، ويكون خروج الذجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح، على أثره؛ وأن عيسى ينزل من بعده، فيقتل الذجال... ويأتي بالمهدي في صلاته».

ويورد ابن خلدون من الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر، ويقول إن من أغربها إسناداً ما ينسب إلى مالك بن أنس (ويذكر العنينة) أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كذَّبَ بالمهدي فقد كفر، ومن كذَّبَ بالذجال فقد كذَّبَ». (والله أعلم بصحة «العنينة»).

ويورد ابن خلدون حديثاً آخر عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه واسم أبيه اسم أبي».

ويلاحظ أن فكرة المهدي المنتظر تنتشر أثناء الأزمات الاجتماعية لأنها تبعث الأمل في النفوس، فيتوقع «المعذبون في الأرض» أن المهدي سيقضي على الشرور والمظالم، ويحقق العدل، ويملأ الأرض رحمة وسعادة.

الشيعة الإسماعيلية



ظلت الشيعة الإمامية تسير في درب موحد، تتوالى أئمتها من الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي ذريته من فاطمة رضي الله عنها الحسن، الحسين، علي بن زين العابدين، ومحمد الباقر، وحتى جعفر الصادق، وهو الإمام السادس في سلسلة الشيعة الإمامية.

عين جعفر الصادق ابنه الأكبر إسماعيل ليصبح خليفة له، ويكون الإمام السابع للشيعة. غير أن جعفر الصادق لم يلبث أن غير رأيه، فخلع إسماعيل، وعيّن بدله الابن الأصغر موسى الكاظم إماماً خليفة له.

غير أن طائفة من الشيعة لم ترض بهذا التغيير، وظلت تعترف بالإمام إسماعيل وبصفته الإمام السابع، فأصبحت تعرف بالإسماعيلية، وكذلك «بالسبعية». وكان لإسماعيل ابن يدعى محمد التام، فاعترفت به طائفة الإسماعيلية إماماً لها بعد أبيه، وأصبحت تعتقد بإخلاق بأنه هو «الإمام المنتظر» الذي سيعود إلى الحياة ليملأ الأرض عدلاً، كما ملئت جوراً.

أما طائفة الشيعة الإمامية التي ظلت تعترف بإمامة موسى الكاظم، وبأنه هو الإمام السابع وليس أخاه إسماعيل، فتعتقد بأن الإمامة الشيعية ظلت تنتقل في أولاد موسى الكاظم حتى الإمام الثاني عشر، ولذلك سميت «بالإمامة الاثني عشرية».

فالإسماعيلية إذاً هي طائفة انفصلت عن الشيعة الإمامية الاثني عشرية في عهد الإمام جعفر الصادق عندما عين ابنه إسماعيل للإمامة في أول الأمر، ثم غير رأيه وقدم ابنه الأصغر موسى الكاظم.

وقد حصل اختلاف بشأن وفاة الإمام إسماعيل، فمن قائل بأنه توفي في حياة أبيه، جعفر الصادق، ومنهم من قال بأن إسماعيل لم يمت في عهد أبيه وإنما أعلنت وفاته واختفى حتى لا يقتله العباسيون. وتولى الإمامة بعده ابنه محمد التام، بصفته الإمام السابع، وبه بدأ عهد الأئمة المختفين (أو المستورين) الذين كانوا يتنقلون في البلاد بسرية كاملة، ويوصون دُعواتهم بالظهور لمواصلة الدعوة جهراً. وفي هذا السياق يقول الشهرستان في كتابه «الملل والنحل»: ... ولن تخلو الأرض قط عن إمام حتى قائم، إما ظاهر مكشوف، وإما باطن مستور، فإذا كان الإمام ظاهراً، يجوز أن تكون حجته مستورة، وإذا كان الإمام مستوراً، فلا بد أن تكون حجته ودعواته ظاهرين. وقالوا: إنما الأئمة تدور أحكامهم على سبعة، كأيام الأسبوع، أو السماوات السبع، والكواكب السبع».

وخلال فترة «اختفاء الأئمة» التي دامت نحو قرن من الزمن؛ وخلال هذه الفترة تطورت حركة الإسماعيلية ولعبت أدواراً مهمة في الميادين الدينية والسياسية والاجتماعية، وقد استمر نشاطها من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر الميلادي. ومن بين الطوائف التي تفرعت عن مذهب الشيعة الإسماعيلية، طائفة القرامطة، ومنها الفاطميون، والحشاشون، والنزارية، والكيسانية، والخرامية، والإسماعيلية المغالية، والباطنية، وغيرها.

ولعل الفقرة التالية من «فجر الإسلام» لأحمد أمين تلقي بعض الضوء على مدى ما اتسمت به آراء فرق الإسماعيلية ومعتقداتهم من المغالاة والخروج عن حدود الدين الحنيف. يقول أحمد أمين: «...هؤلاء (يعني أتباع الإسماعيلية) لعبوا دوراً طويلاً في تاريخ الإسلام، وأخذوا مذهب الأفلاطونية الحديثة، وطبقوه على مذهبهم الشيعي تطبيقاً غريباً، واستخدموا ما نقله إخوان الصفا في رسائلهم من هذا المذهب الأفلاطوني. ويقول بعض المؤرخين إنهم وضعوا لهم تعاليم درجوها تسع درجات تبتدئ بإثارة الشكوك في الإسلام، كسؤالهم: ما معنى رمي الجمار؟ وما العدو بين الصفا والمروة؟ وتنتهي بهدم الإسلام والتحلل من قيوده».

ويتناول أبو الفتح الشهرستاني الحديث عن طائفة من الإسماعيلية عرفت «بالباطنية» فيقول: «وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، ولهم ألقاب كثيرة سوى هذه على لسان قوم وقوم، فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية، وبخراسان التعليمية والملحدة؛ وهم يقولون نحن إسماعيلية لأننا تميَّزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم، وبهذا الشخص؛ ثم إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة... فقالوا عن الباري تعالى: إنا لا نقول هو موجود، ولا لا موجود، ولا عالم ولا جاهل، ولا قادر ولا عاجز، وكذلك في جميع الصفات فإن الإثبات الحقيقي يقتضي شركة بينه وبين سائر الموجودات...»⁽¹⁾.

(1) الملل والنحل.

وقد سبقت الإشارة إلى طائفة «القرامطة» ومن المفيد تقديم فكرة عن هذه الفرقة المغالية الباغية. القرامطة حركة دينية إسماعيلية واشتراكية مفسدة متطرفة، عاثت فساداً في الأرض، وارتكبت جرائم يندى لها جبين الإنسانية، طيلة حقبة مديدة من الزمن. وقصتها طويلة ومعقدة لا يتحمل هذا الموجز تفاصيلها.

تفرعت حركة القرامطة عن الإسماعيلية، واشتهرت بتطرفها في العبادات والمعاملات. وتعود نسبتها إلى حمدان بن الأشعث المشهور «بقرمط» الذي عاش في القرن التاسع الميلادي. وكان حمدان قرمط هذا قد تولى زعامة الدعوة الإسماعيلية بعد وفاة داعية آخر يدعى حسين الأهوازي سنة 877 ميلادية.

استطاع حمدان قرمط في عام 890 ميلادية أن يؤسس لأتباعه مركزاً في منطقة واسط بالعراق، ودعاه «دار الهجرة».

ونجحت الحركة القرمطية في تأسيس دولة في منطقة الخليج الفارسي؛ واستطاع حمدان قرمط أن يكسب أتباعاً كثيرين من القبائل العربية في الكوفة، وانضم إليه دعاة أقوياء مثل زكرويه، وأبي سعيد الجنابي؛ وانتشرت دعوة القرامطة في مناطق عديدة منها البحرين، واليمن، وجنوب العراق، فقويت شوكتهم واشتد بأسهم.

وامتدت ثورة القرامطة فهاجموا بلاد الشام، وحاصروا دمشق عام 902 ميلادية، واستولوا على حمص وحماه وغيرهما من المدن، وعاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الخراب والهلع في مناطق واسعة،

وارتكبوا مجازر تقشعر لها الأبدان. وكان القرامطة بقيادة زعيمهم زكرويه يقتفون قوافل الحجاج في مسيرتها إلى مكة وعودتها منها، فينهبون أموالهم، ويسبون نساءهم، ويستولون على ركائبهم، ويتركونهم يموتون في فيافي الصحراء عطشاً وجوعاً.

ولما تواصلت جرائم القرامطة وإرهابهم للمسلمين في الشام جهز الخليفة المكتفي بالله جيشاً لمواجهة جيش القرامطة، فهزمهم وقتل زعيمهم يحيى بن زكرويه على أبواب دمشق. وتولى أخ للزعيم المقتول قيادة الجيش، وواصل الهجوم على مدن عديدة في الشام.

وظهرت حركة القرامطة كذلك تحت زعامة أبي سعيد الجنابي وابنه أبي طاهر سليمان. واستمر هذا الأخير في استباحة حرمة المسلمين وقتل الأبرياء. ونظم هجوماً على مكة في يوم «التروية»، فلم يرع حرمة البيت الحرام، ونهب هو وأصحابه أموال الحجاج، وأخذ زعيم القرامطة، أبو طاهر، الحجر الأسود، واقتلع باب البيت الحرام، وأمر برمي جثث القتلى في بئر زمزم، وأخذ كسوة البيت الحرام فوزعها على أصحابه، ونهب القرامطة ديار سكان مكة.

ويحدثنا العلامة ابن خلدون عن هجوم القرامطة على مكة فيقول⁽¹⁾: ثم سار أبو طاهر سليمان إلى مكة، فلما كان يوم التروية هجم على الحجاج ونهب أموالهم، وقتل فيهم بالقتل حتى في المسجد والكعبة، واقتلع الحجر الأسود وحمله إلى هجر.. وطرح القتلى في زمزم، ودفن الباقيين في المسجد حيث قتلوا، ولم يغسلوا ولا صلى

(1) تاريخ ابن خلدون ، الجزء الثالث، صفحة 463.

عليهم ولا كفنوا. وقسم أبو طاهر كسوة البيت على أصحابه، ونهب بيوت أهل مكة. وبلغ الخبر المهدي عبيد الله بإفريقيا (وكانوا يظهرون الدعاء له)، فكتب إلى أبي طاهر؛ النكير واللعن، ويتهدده على الحجر الأسود؛ فرده أبو طاهر وما أمكنه من أموال الناس، واعتذر عن بقية ما أخذوه بافتراقه في الناس».

ومن الحوادث المهمة في تاريخ الشيعة الإسماعيلية (السبعية) تأسيس الدولة الفاطمية في شمال أفريقيا. فقد انتشرت الدعوة الإسماعيلية في تلك الأصقاع على يد الداعية أبي عبد الله وحققت نجاحاً كبيراً. وكان قد ظهر في الشرق الأوسط خبر رجل يدعى عبيد الله ادعى أن نسبه يرجع إلى الإمام محمد بن إسماعيل (الإمام السابع)، وأنه من سلالة فاطمة ابنة الرسول ﷺ. وشاع ذكر هذا الرجل (عبيد الله) على أنه هو «المهدي المنتظر»، فخشي أن يبطش به العباسيون، ففرّ برفقة ابنه وعدد من أتباعه إلى شمال أفريقيا حيث كانت الدعوة الإسماعيلية قد قويت وحققت نجاحاً كبيراً على يد الداعية أبي عبد الله.

وبذلك تحقق عنصران متكاملان لتأسيس الدولة الشيعية الفاطمية وهما انتصارات ميدانية على يد الداعية أبي عبد الله، ووصول «المهدي المنتظر» من الشرق وهو عبيد الله الذي لقي كل الترحيب من الداعية المنتصر، ونادى به أمير المؤمنين للدولة الفاطمية الشيعية التي تأسست سنة 911 ميلادية، وانتهت بوفاة آخر خلفائها العاضد سنة 1171 ميلادية بعد أن دامت نحو 260 سنة.

واستطاعت الدولة الفاطمية أن تستولى على مصر عام 969 ميلادية، وأن تحقق نجاحاً كبيراً في الميادين السياسية، وأن تكون شبكات واسعة من دعاة الشيعة الفاطمية عبر العالم الإسلامي. وهكذا كانت الدولة الفاطمية مدينة للداعية الشيعي أبي عبد الله الذي سعى لإنشائها في المغرب، ومدينة للقائد أبي الحسن جوهر الصقلي الذي قاد الجيوش من شمال إفريقيا للإستيلاء على مصر، والذي عمل على تشييد مدينة القاهرة ومسجد الجامع الأزهر.

ومن الحوادث الطارئة على الدولة الفاطمية أنه عندما توفي الخليفة الفاطمي المستنصر سنة 1094 ميلادية حدث انقسام في الطائفة الفاطمية الإسماعيلية، فاتفق الإسماعيليون في مصر على المستعلي (ابن الخليفة المتوفى) إماماً لهم؛ واعترف زعماء الإسماعيلية في سوريا وإيران وغيرها بالابن الأكبر للخليفة المتوفى، واسمه نزار إماماً لهم؛ وبذلك أصبح لطائفة الإسماعيلية إمامان، وانقسمت إلى طائفتين، المستعلية والنزارية.

وانتهت طائفة الإسماعيلية «المستعلية» في مصر على يد صلاح الدين الأيوبي سنة 1171 ميلادية، بينما استمر نشاط الطائفة الإسماعيلية النزارية بقيادة حسن الصباح في الشرق، فاستولوا على عدد من الحصون والقلاع في سوريا وإيران، وأشهر هذه القلاع «قلعة الموت»، وأصبحوا يعرفون «بالحشاشين»⁽¹⁾، واستمروا في ممارسة أعمال العنف والإرهاب والقتل حتى القرن الثالث عشر عندما أضعفت شوكتهم هجمات المغول والمماليك.

(1) لعل مصدر هذه التسمية هو تعاطيهم للحشيش والمنبهات.

وفيما يلي نبذة عن بعض معتقدات الشيعة الاسماعيلية وتعاليمهم:

- يقولون إن لتفسير القرآن طبيعة مزدوجة: ظاهرية وباطنية، وأنه إنما يفهم عن طريق التأويل والمجاز.

- معتقداتهم تتبع من كتاب «الحكمة»، وتعاليمها سرية، لا يطلع عليها الإسماعيلي العادي إلا عن طريق التدرج الهرمي ضمن تنظيم المذهب، وهو تحت سلطة الإمام. وإنما تفوض أسرار «الحكمة» بواسطة «الداعي» الذي يعمل على إدخال «المؤمن» الاسماعيلي ضمن دائرة الصفوة بعد إطلاعه على تعاليم الطائفة عبر سلم تصاعدي.

- يرون أن الوحي ليس سوى «صفاء النفس»؛ وأن الشعائر الدينية تهم عامة الناس فقط.

- عندهم أن الأنبياء إنما أرسلوا لعامة الناس، وأن الفلاسفة هم أنبياء الخاصة من الناس؛ وأنه على أهل المعرفة أن يخرقوا الحجب المادية ليصلوا إلى المنابع الروحانية الطاهرة.

- تبنت بعض فرق الإسماعيلية أفكاراً فلسفية غامضة تتحدث عن «العقل الكلي» و«النفس الكلية»، و«نظرية الفيض» في المخلوقات..

- أعطوا للعبادات وأحكام الشريعة، مثل الصيام والصلاة والزكاة.. معاني أبعدها عن حقيقتها وأهدافها.

- يقولون إن الأرض لا تخلو من إمام من أئمتهم، إما أن يكون ظاهراً أو متخفياً مستوراً، ومن هذا يلقبون «بالباطنية».

- ومن الفكرة السابقة جاء اعتقادهم بنظرية «التقية» وهي أن يتستر الإمام ويختفي اتقاء شر الأعداء. وقد تبنى زعيمهم الحسن الصباح نظرية الإمام «المستور» بدلاً من الإمامة الظاهرة، ونجح في نشر دعوة الفاطميين.
- وعندهم أن من مات ولم يعرف إمامه مات موتة جاهلية، وكذلك من مات ولم تكن في عنقه بيعة لإمامه مات موتة جاهلية.
- التمييز بين الإسماعيلي العادي، والإسماعيلي الذي ينتمي إلى نخبة الأعضاء المطلعين على «الحكمة» وتعاليم الطائفة.
- ومن فرق الإسماعيلية من يزداد تطرفهم ومغالاتهم وإحادهم، مثل النزارية، والقرامطة. فمن معتقدات القرامطة، بالإضافة إلى ما سبق:
- عدم الالتزام بالشعائر والفرائض والمبادئ العقائدية.
- القرآن ليس كلام الله، بل هو تعبير عن أفكار ومعارف تتبع من العقل الكلي.
- أسرار العقيدة لم تنكشف بعد، لذا لا بد من الخضوع الكامل لسلطة الإمام.
- مبدأ المساواة بين جميع الناس، وعليه فإن الملكية، والمال، والنساء.. تحت نظام الشيوع، وهي مشتركة بين جميع الناس.
- عدم التقيد بتعاليم أهل السنة ومعتقداتهم.

المرجئة



كلمة «المرجئة» من فعل «أرجأ» بمعنى أخر، وسموا «مرجئة» لأنهم يؤجلون الحكم على ما حدث من خلاف ونزاع بين الصحابة إلى يوم الحساب ليحكم الله بينهم.

ونشأت طائفة المرجئة عندما اشتد الخلاف بين المسلمين وراح الخوارج يكفرون علياً ومن ناصره، وراحت الشيعة يكفرون أبا بكر وعمر وعثمان ومن تبعهم، وراح الخوارج والشيعة يكفرون الأمويين، وراح هؤلاء يضيّقون عليهم ويقاثلونهم، وكل طائفة تدعى أنها على حق.

وقد نشأت طائفة المرجئة أولاً كحزب سياسي لا يرغب في أن ينضم إلى حزب دون آخر، ولا يريد أن يحكم بتخطئة طائفة ومدح طائفة أخرى، ولا يرغب في النزاعات والحروب بين الصحابة والمسلمين. ولكن سرعان ما اضطرت طائفة المرجئة إلى بحث المسائل اللاهوتية مثل «الإيمان، الكفر، الكبائر، القيامة..»؛ وقد دفع المرجئة إلى إبداء رأيهم في العقائد والشعائر ما شاهدوه من تطرف الخوارج في القول بأن كل من ليس معهم فهو كافر، وتطرف الشيعة الذين قالوا بأن الاعتقاد بالإمام ركن من أركان الدين. وهكذا يلاحظ أن مغالاة بعض الطوائف وتشدهم في المبادئ والعقائد والحكم على غيرهم بالكفر، يقابله تساهل طائفة المرجئة في حق من لا يلتزم بأركان الإسلام وفرائضه.

ولعل نشوء طائفة المرجئة يرجع كذلك إلى حديث رواه أبو بكره عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ستكون فتنُ القاعد فيها خير من الماشي؛ والماشي خير من الساعي إليها؛ ألا فإذا نزلت ووقعت فمن كانت له إبل فليلحق بإبله؛ ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه؛ ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه» فقال رجل: يا رسول الله فمن لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: «يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاة».

ومن معتقدات المرجئة ومبادئهم :

- خففوا دائرة الإيمان واختصروها فجعلوها تتحصر في أن يعتقد المرء بقلبه وينطق بالشهادتين؛ وهم بهذا الاعتقاد يقدمون النيات والعزم والعقد على الفعل، ومن ذلك قولهم: لا تضرر مع الإيمان معصية، ولا تنفع مع الكفر طاعة.

- يرون أن النطق بالشهادتين يرفع المسلم فوق العبادات، لأن الأعمال الظاهرية في رأيهم ليست جزءاً من الإيمان.

- مرتكب الكبيرة عند المرجئة لا يخرج من دائرة الإيمان، وبناء على رأيهم هذا لا يخرجون من دائرة الإيمان الخليفة عثمان وطائفته، ولا الإمام علي وأتباعه، ولا عائشة وأنصارها يوم الجمل، ولا معاوية وعمرو بن العاص يوم صفين، ولا فرق الخوارج، ولا يحكمون بالكفر على الشيعة ولا على الأمويين، ولا على أي مسلم يرتكب الكبائر والمعاصي إذا نطق بالشهادتين بنية صادقة وقلب مؤمن، بل تؤجل المرجئة حساب جميع هؤلاء إلى حكم الله يوم القيامة.

- طائفة المرجئة طائفة «مسألة» أفرطت في التساهل بفرائض الدين وأركانها وشعائرها؛ ومنهم فئة بالغت في المغالاة فقالوا: إن العبد يكون مؤمناً إذا تمكن الإيمان من قلبه، فإذا أعلن الكفر بلسانه، أو عبد الأوثان، أو مال إلى النصرانية في دار السلام وعَبَدَ الصليب، ومات على ذلك، فهو مؤمن كامل الإيمان، وهو وليّ لله عز وجل، ومن أهل الجنة.

- ويقولون إنه إذا اشتبه الأمر فيمن هو مسلم ومن هو كافر يترك الأمر لحكم الله، وهو خير الحاكمين، ذلك أن معنى الإرجاء عندهم هو عدم الحكم على المسلم بالكفر مهما عظمت ذنوبه.

المعتزلة



كان واصل بن عطاء الغزال من تلامذة الفقيه الشهير الحسن البصري، وحدث أن حصل خلاف بين التلميذ وأستاذه حول مسألة المسلم الذي يرتكب إحدى الكبائر: هل يسمّى كافراً أم يعتبر مؤمناً عاصياً؟ قال واصل بن عطاء: إن هذا المذنب يوضع في منزلة متوسطة بين المنزلتين المذكورتين، ويسمّى «فاسقاً». وعلى إثر هذا الخلاف انتحى التلميذ زاوية من المسجد، وأخذ يشرح تعاليمه لأتباعه. وتبعه في الرأي عمرو بن عبيد، واعتزل معه مجلس الحسن البصري، وكان هذا الاعتزال بداية نشأة مذهب المعتزلة.

نشأ مذهب المعتزلة في البصرة، ثم انتشر في العراق في العهد الأموي، وفي العهد العباسي كذلك، وأصبحت له مدرستان كبيرتان في البصرة وفي بغداد. واشتهر المعتزلة بكونهم أول مذهب إسلامي وضع «علم الكلام»، وأضاف أفكاراً فلسفية لمجادلة الخصوم من الديانات الأخرى، وكذلك أولئك الذين أسلموا من الأمم الأخرى وظلوا يحملون مبادئ وآراء من عقائدهم السابقة من المجوسية والدهرية والنصرانية واليهودية. وقد شاهدت آراء المعتزلة انتصاراً كبيراً في عهد الخليفة المأمون، والخليفة المعتصم، وجعل المأمون تعاليم المعتزلة عقيدة الدولة.

ومن مبادئ مذهب المعتزلة ومعتقداتهم:

- التوحيد: ومعناه نفي الصفات الأزلية عن الله جلّ شأنه حتى لا

يوصف بما يوهم التعدد. فصفات مثل «القدرة» و«الحياة»، و«الإرادة»، و«العلم»، وما شابهها تتنافى مع وحدانية الله، ولذلك لا يعقل أن تكون معاني قائمة بذاتها، بل هي صفات ذاتية. فالله سبحانه عالم، قادر، سميع، بصير... بذاته، وذلك تجنباً لوصفه بالتعددية وهو أحد. لا شريك له.

- تنفي المعتزلة أن يكون لله جل شأنه صفات توهم بالتجسيد كصفات المخلوقات، مثل الكلام، والسمع، والبصر، واليد... كما نفوا عنه تعالى كل صفة تفيد المكان والزمان والجسم وما شابهها.

- يستحيل على الباري عزوجل أن يرى الخلق رؤى العين، كما يستحيل على البشر أن يروا الله رؤى العين.

- يقولون بأنه يجب تأويل الآيات التي توهم بأن لله صفات تشبه صفات المخلوقات كاليد، والكلام، والبصر... إلخ.

- يعملون على التوفيق بين الدين والعقل، ويلجؤون إلى التأويل والتفسير المجازي (وليس الحرفي فقط) فعلى سبيل المثال: ليس لله وجه، ولا يد، ولا كرسي يجلس عليه، وهو لا يمكر، ولا ينتقم، ولا يبغض بالمعنى الذي يعرفه البشر.

- يرفضون فكرة «قدم القرآن»، مع كل تكريمهم لكتاب الله وإيمانهم الصادق بكلمته، ويرون أن القرآن مخلوق، وليس أزلياً كالخالق نفسه. أما أهل السنة فيقولون بأن القرآن «كلمة الله» وهي أزلية كالخالق نفسه.

- يعتمدون على العقل، وليس على النقل فقط، في بحوثهم ومجادلاتهم من أجل إقناع المتشككين.

- يرى المعتزلة بأن «الإمامة»، إمامة المسلمين، ليست محددة في أسرة أو قبيلة، ولا علاقة لها بالحسب والنسب، بل هي حق للأمة تختار إمامها من بين أهل الإيمان والتقوى والعدل والصلاح.

- ومن المسائل المهمة التي تناولها المعتزلة في بحوثهم ومجادلاتهم مسألة فعل الخير والشر، ومدى قدرة الإنسان وإرادته وحرية في تصرفاته، ومدى مسؤولياته في اختيار أفعاله خيرها وشرها.

وكان السؤال الذي يطرح في هذا الجدل هو: هل الإنسان مخير أم مسير في ما يفعل؟ وهل أفعاله مكتوبة مقدرة عليه، أم له الخيار في إتيانها أو تركها؟ في قبولها وتنفيذها أو رفضها وتجنبها؟ وهل الإنسان يتصرف بإرادته وحرية فيما يفعل أو لا يفعل، وبهذه الحرية يصبح خاضعاً لقانون الثواب إن فعل خيراً، والعقاب إن فعل شراً، أم هو مجرد آلة في يد القدر، مجبر على ما يفعل إن خيراً أو شراً، بحكم أنه لا شيء يحدث في العالم إلا بحكم الله وقدرته وقضائه. وقد شغلت هذه التساؤلات عدداً لا يحصى من الفلاسفة ورجال الدين منذ القدم.

ويرى المعتزلة أن الله مَنَّْ على الإنسان بنعمة العقل، وجعله قادراً على التمييز بين صالح الأعمال وفاسدها، ومنحه الإرادة للإقبال على فعل الخير وتجنب فعل الشر، ولذلك جعل العقل شرطاً للتكليف. فإذا عرف الإنسان أنه يستحق الثواب على الأول، ويلاقي العقاب على

الثاني، كانت له الحرية في أن يختار عن علم سبيل الخير أو سبيل الشر والضلال.

وقد جاء في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية ما يدعو الإنسان إلى التفكير والتدبر في هذا الموضوع، ومن ذلك قوله تعالى:

- ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾
(الزلزلة - الآية رقم 7).

- ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (النساء - الآية رقم 111).

- ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (الكهف - الآية رقم 29).

- ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ (النحل - الآية رقم 36).

- ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور - الآية رقم 40).

- ﴿وَنَبَلُوكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَّا وَاللَّيْنَا تَرْجِعُونَ﴾ (الأنبياء - الآية رقم 35).

وجاء في الحديث الشريف عن جابر قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه».

الجبرية (الجهمية)



يقول الشهرستاني: إن «الجبر» هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الله تعالى. والجبرية أصناف منها الجبرية الجهمية (الجبرية الخالصة)، والجبرية المتوسطة، والنجارية. وتعرف الجبرية بالجهمية نسبة إلى الجهم بن صفوان السمرقندي، وهو من الموالي، ظهر في الكوفة، في أواخر حكم بني أمية، وكان خطيباً مفوهاً.

وتقول الجهمية بالجبرية الخالصة وهي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، وهي ترى أن الإنسان مجبور على جميع ما يفعل، وأن الله يخلق فيه هذه الأفعال دون اختيار ولا رغبة منه، تماماً كما يخلق الحياة في الأشجار والمياه والجمادات؛ وأنه إذا كانت الأفعال جبرية فكذا يكون الثواب والعقاب جبرياً، أي أن الله جل شأنه قدر لفلان كذا وكذا، وقدر له الثواب، وقدر على آخر المعصية وقدر له أن يعاقب، ولا يسأل عما يفعل.

وقد تناول الجهم بن صفوان الكلام في مسائل أخرى منها أنه يوافق رأي المعتزلة في مسألة نفي الصفات الأزلية عن الباري جلّ شأنه، وأنكر أن تكون لله صفات غير ذاتية، وأن ما ورد في القرآن من صفات مثل سميع، بصير... ينبغي تأويله لأن ظاهره يدل على صفات للمخلوقات يتعالى عنها المولى جل شأنه. وقال إن القرآن مخلوق، خلقه

اللَّهِ، لأنه إذا كان الله لا يتكلم فليس القرآن بكلام الله القديم إلا على التأويل. وقال الجهم: إن الجنة والنار تفنيان بعد أن يتمتع المؤمنون بالجنة، ويعاقب الكافرون بالنار، إذ أنه لا يتصور حركات لا تنتهى أولاً ولا آخرًا.

ومن فرق الجبرية فرقة «النجارية»، وهم أصحاب الحسين بن محمد النجار. وهي توافق المعتزلة في نفي صفات العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر.. على المولى عزّ وعلا وتوافق الصفاتية في مسألة خلق الأعمال. يقول النجار: إن الله هو خالق أعمال العباد خيرها وشرها، حسنها وقبيحها؛ وأن الله جل شأنه مريد للخير وللشر، وللنفع وللضرر، بمعنى أنه تعالى لا يكره على فعل شيء، ولا يغلب في قضاء؛ ويقول: إن الإيمان هو التصديق، ومن ارتكب كبيرة ومات عليها من غير أن يتوب يعاقب عليها، ولكنه لا يخلد في النار لأنه ليس بكافر. وهكذا ترى فرق الجبرية أنه لا اختيار للإنسان فيما يفعل ولا فيما يترك، ولا حيلة له في تغيير مسيرة حياته، فالله جل شأنه هو الذي يقدر لشخص ما أن يقبل على الخير، ولشخص آخر أن يقبل على الشر. والباري عزّ وجل هو الذي يقدر كيف يكون ثواب الأول، وعقاب الثاني.

وأذكر على الهامش رأي الجبرية «المتوسطة» التي تثبت للعبد «قدرة» وتقول إنها «غير مؤثرة أصلاً».

مذهب الأشعرية



الأشعرية هم أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (260-324 هجرية)، وهو من ولد أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي كان أحد الحكمين بين الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعاوية بن أبي سفيان في دومة الجندل. وكان أبو الحسن الأشعري في أول الأمر على مذهب المعتزلة، وفي سن الأربعين تغيرت آراؤه فانفصل عن هذه الطائفة، وبدأ يوضح معتقداته ومبادئه الجديدة، وبذلك ظهر بمذهب الأشاعرة ومن معتقدات هذا المذهب وتعاليمه:

- الاستدلال على وجود الله ينبع من كون الإنسان مخلوقاً ضعيفاً وعاجزاً، ومن ضرورة وجود إله قادر على تدبير شؤون الكون.
- الإيمان هو التصديق بالقلب؛ أما القول باللسان والعمل بالأركان فمن فروعه. فمن صدق بالقلب وأقر بوحدانية الله تعالى، واعترف بالرسول تصديقاً لما جاؤوا به من عند الله صح إيمانه.
- رؤية الله بالأبصار (يوم القيامة) ممكنة؛ فكل موجود يصح أن يرى، والله تعالى موجود فيصح أن يرى. وفي الذكر الحكيم: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة - الآية رقم 22).
- الخالق سبحانه له صفات، ولكنه لا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص - الآية رقم 4).

- اللّهُ جل جلاله قادر على مجازاة عباده ثوابًا وعقابًا؛ واللطف بهم فضل منه تعالى، والعذاب عدل منه تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء - الآية رقم 23) .

- الإيمان والطاعة بتوفيق من اللّهُ تعالى، والكفر والمعصية بخذلانه.

- أفعال العباد مخلوقة، والفاعل الحقيقي هو اللّهُ تعالى.

- صاحب الكبيرة إذا خرج من الدنيا من غير توبة يكون أمره إلى اللّهُ تعالى، فإما أن يفضله برحمته، وإما أن يشفع فيه النبيّ ﷺ.

- إرسال الرسل من القضايا الجائزة، ليست واجبة؛ ولكن بعد إرسالهم صار تأييدهم بالمعجزات، وعصمتهم من الموبقات من جملة الواجبات.

- عدم اللجوء إلى تأويل القرآن، بل الأخذ بظاهره إلا في الحالات التي تدعو لها الضرورة. وفيما يتعلق بالأمور الخفية والغائبة، مثل: القلم، اللوح، العرش، الكرسي، الجنة، النار وما شابهها، ينبغي إجراؤها على ظاهرها والإيمان بها كما جاءت دون اللجوء إلى التأويل.

- وما جاء من أخبار عن الأمور المستقبلية في الآخرة مثل سؤال القبر، والثواب، والعقاب، والميزان، والصراط، والحساب... ينبغي إجراؤها على ظاهرها إذ لا استحالة في وجودها.

- الإمامة تثبت بالاختيار والاتفاق، وهي قضية مصلحة اجتماعية، لا يشترط فيها نص ولا تعيين، ولا ينبغي أن تلحق بالعقائد.

- الخلفاء الراشدون مترتبون في الفضل مثل ترتيبهم في الإمامة.
- طلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة، ولا نقول فيهم إلا خيراً.
- أما معاوية وعمر بن العاص فقد بغيا على الإمام علي رضي الله عنه، فقاتلهم مقاتلة أهل البغي؛ وقد كان علي على حق، يدور معه الحق حيثما دار.
- أصحاب النهروان من الخوارج مارقون عن الدين الحنيف، ولقد كان الإمام علي رضي الله عنه على الحق في جميع أحواله.
- وقد ألف أبو الحسن الأشعري مصنفات ورسائل كثيرة (يروى أنها تجاوزت المئتين) في علم التوحيد والرد على المعتزلة والخوارج وغيرهم من الفرق والطوائف. ومن مؤلفاته :
 - كتاب التبيين عن أصول الدين.
 - كتاب إيضاح البرهان.
 - كتاب الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل.وهكذا بذل أبو الحسن الأشعري وغيره من كبار علماء الإسلام، القاضي أبو بكر الباقلاني، وإمام الحرمين أبو المعالي، وحجة الإسلام الغزالي جهوداً كبيرة موفقة، واستطاعوا أن يحيوا مذهب أهل السنة، وأن يدحضوا كثيراً من البدع والضلالات التي نشرتها مختلف المذاهب والطوائف والفرق الضالة. وتعليقاً على الجهود المحمودة التي بذلها

أبو الحسن الأشعري من أجل تدعيم مذهب أهل السنة، يقول العلامة ابن خلدون في مقدمته ما يلي:

«وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعريُّ إمامُ المتكلمين؛ فتوسط بين الطُّرُق ونفى التشبيه؛ وأثبت الصفات المعنويَّة، وقصَّر التَّنزيه على ما قصَّره عليه السَّلَفُ؛ وشهدتْ له الأدلَّةُ، المخصَّصة لعمومِهِ؛ فأثبت الصفات الأربَع المعنويَّة والسمع والبصر والكلام القائم بالنفس بطريق العقل والنقل. وردَّ على المبتدعة في ذلك كله، وتكلم معهم فيما مهَّدوه لهذه البدع من القول بالصلاح والأصلح والتحسين والتقبيح، وكملَّ العقائد في البعثة وأحوال المعاد والجنة والنار والثواب والعقاب، وألحق بذلك الكلام في الإمامة، لما ظهر حينئذٍ من بدعة الإمامية، في قولهم إنَّها من عقائد الإيمان؛ وإنَّها يجبُ على النبيِّ تعيينها والخروج عن العهدة فيها لمن هي له، وكذلك على الأمة. وقصَّارى أمر الإمامة أنها قضيَّةٌ مصلحيَّةٌ إجماعية، ولا تلحق بالعقائد، فلذلك ألحقوها بمسائل هذا الفنِّ وسمَّوا مجموعة علم الكلام: إمامًا لما فيه من المناظرة على البدع، وهي كلامٌ صرفٌ، وليست براجعة إلى عمل؛ وإمامًا لأنَّ سببَ وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في إثبات الكلام النَّفسيِّ».

الزيدية



هم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)؛ وقد تتلمذ زيد بن علي واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة، فحصل تقارب بين طائفة الشيعة الزيدية وبين طائفة المعتزلة. وتقول طائفة الزيدية: إن الإمام بعد الرسول ﷺ هو علي بن أبي طالب، غير أنهم لا ينكرون خلافة أبي بكر وعمر وعثمان استناداً إلى نظريتهم بأنه تجوز إمامة الفاضل مع وجود الأفضل (والأفضل هنا هو علي بن أبي طالب)، وذلك من المصلحة العامة وتجنباً للفتنة. وعندما علمت شيعة الكوفة بأن إمامهم، زيد بن علي، لا ينكر خلافة أبي بكر وعمر، ولا يتبرأ منهما رفضوا إمامته، فأصبحوا يعرفون «بالرافضة».

ويروى أنه جرت مناظرة بين الإمام زيد بن علي وبين أخيه محمد الباقر، فسأله هذا الأخير: كيف تأخذ العلم على واصل بن عطاء المعتزلي وهو الذي يجيز الخطأ على جدنا علي بن أبي طالب في قضية محاربة الخوارج الذين نكثوا العهد عليه؟ واصل المعتزلي الذي يرى في مسألة «القدر» خلاف ما يقول به أهل البيت، وهو الذي يشترط في الإمام أن يخرج داعياً لنفسه لتصح مبايعته وإمامته، ونحن نرى غير ذلك. فردّ عليه زيد أخوه: بناء على مذهبك هذا فإن أباك لم يكن إماماً لأنه لم يخرج داعياً لنفسه.

وفيما يلي بعض تعاليم طائفة الزيدية:

- أجازوا أن يكون إماماً كل فاطمي، عالم، زاده، خرج بالإمامة، سواء من ذرية الحسن أو الحسين.

- أجازوا خروج إمامين في قطرين، تتوفر فيهما الشروط المذكورة.

- تتفق آراء الزيدية مع آراء المعتزلة في مسائل التوحيد والعدل.

ويروي العلامة ابن خلدون أن زيد بن علي خرج على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك داعياً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومحاربة الظالمين (يعني الأمويين). ثم أقبل إلى الكوفة فاختلف إليه جماعة من أهلها وبايعوه. غير أن جماعة من المقربين إليه نصحوه أن لا يعول على أهل الكوفة في محاربة الأمويين، غير أنه أصر على خطته قائلاً إن لي بيعة في أعناقهم. غير أنه عندما جاء وقت المواجهة فارقوه، ونكثوا بعثته، وقالوا: «سبق الإمام الحق (يعنون محمد الباقر)، وأن ابنه هو إمامنا بعده، فسامهم زيد بن علي «بالرافضة» كما تقدم. وقتل زيد بن علي وصلب على يد هشام بن عبد الملك.

وانقسمت الزيدية بعده إلى فرق منهم من بايع ابنه يحيى، ومنهم من ظل على ولائه لزيد؛ وتضعض نظام الزيدية، غير أنها ظلت تلعب دوراً ضمن الأسرة العلوية.

الدروز الموحدون



أثناء خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي (996 - 1021 ميلادية) ظهر رجل يدعى حمزة بن علي وأخذ يشيع دعوة جديدة مفادها أن الخليفة قد ارتقى إلى مرحلة القدسية، وأن روح الإله قد حلت فيه، وراح حمزة بن علي يرأسل الناس في مختلف الأصقاع وينشر تعاليم مذهبه الجديد، وبذلك نشأت طائفة الدروز التي أصبحت تنسب إلى محمد بن إسماعيل الدرزي.

والطائفة الدرزية فرقة من مذهب الشيعة الإسماعيلية غير أنها بالغت في تطرفها ومغالاتها؛ وتعتبر طائفة خاصة لما تضيفه على معتقداتها من سرية. وقد اتخذت تاريخ 407 هجرية تقويمًا خاصًا بها، وهي السنة التي نشأت فيها فكرة تقديس الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله.

وتنقسم الطائفة إلى فئتين، فئة الحكماء وهي المجموعة المستتيرة (المحدودة) وتشمل الرؤساء والمسؤولين الذين يعرفون أسرار العقيدة وتعاليمها، وفئة العامة من الأتباع الذين لا يطلعون على تفاصيل العقيدة. ويعتبر من غير اللائق أن يسأل الدرزي عن معتقداته إذ أن الحكماء لا يسمحون لهم بتفسيرها. غير أن معلومات كثيرة عن تعاليم الطائفة الدرزية أصبحت الآن متوفرة من مصادر خارجية.

وفيما يلي فكرة موجزة عن عدد من معتقدات الدرزية وتعاليمها كما تذكرها المصادر التاريخية؛ ومن الممكن أن يكون قد حصل فيها بعض التغيير في العهود الأخيرة.

- تستند بعض معتقدات الطائفة الدرزية إلى مصادر نصرانية، وغنوسطية⁽¹⁾، وفارسية، ويهودية، وأفلاطونية جديدة؛ وتدرج جميعها ضمن عقيدة «توحيدية». ومن أهم الوثائق التي تتحدث عن المعتقدات الدرزية «كتاب الحكمة»، و«كتاب التعليم»؛ وتعتبر الطائفة الدرزية أتباع «الحاكمية» من أشد الفرق الإسماعيلية تطرفاً.

- تعتقد الطائفة الدرزية بأن الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (996 - 1021 ميلادية) بلغ درجة التقديس، وتقمص الروح الإلهية. ويقولون أنه قد حدثت تقمصات عديدة في العهود الماضية، غير أن آخرها هو ما حدث للحاكم بأمر الله الفاطمي.

- يعتقدون «بالتجلي»، وهو ظهور الإله كما تظهر الشمس في المرأة، ولكن دون أن يتجسد، لأنه ليس له نفس ولا جسد.

- يقولون إن الخليفة الحاكم بأمر الله سيعود في صفة «المهدي» ليحكم العالم وينشر العدل والصلاح.

- يعتقدون بتناسخ الأرواح، وأنه كلما توفي درزي تحلّ روحه في جسد مولود آخر.

(1) الغنوسطية Gnostic هي مذهب بعض المسيحيين الذين اعتقدوا بأن المادة شرّ، وبأن الخلاص يأتي من طرق المعرفة الروحية.

- لا يعترفون بأركان الإسلام الخمسة كما هي، فشعائر الصلاة والصيام: تختلف عن الطريق التي يتبعها أهل السنة.
- لا يعترفون بأية معتقدات من معتقدات الديانات الأخرى.
- القبول بقضاء الله وأحكامه، وتجنب الشيطان والحذر من مكره وخدعه.
- الصدق في القول والفعل.
- التعاون والتضامن بين جميع أفراد الطائفة الدرزية.
- تحريم الخمر والتدخين.
- يطلقون على أنفسهم اسم «الموحدين»، ويكفرون ما عداهم من المسلمين.
- من مبادئهم الالتزام بزوجة واحدة، فلا يجوز للدرزي أن يجمع بين زوجتين في وقت واحد. وإذا طلقها لا يحق له أن يسترجعها.
- الطائفة «حلقة مغلقة» لا يدخلها شخص من خارجها، ولا يخرج منها من كان ضمنها.

الصوفية



تجدر الإشارة إلى أن الصوفية لا تنتمي إلى مذهب خاص، وأنها ليست حزباً أو طائفة سياسية، ولا تنتمي إلى فرقة من الفرق التي سبق ذكرها؛ فالصوفية فكرة قديمة كانت موجودة في حضارات قديمة وفي ديانات مختلفة؛ إنها شجرة كثيرة فروعها، عميقة جذورها، وارفة ظلها، شجرة لا شرقية ولا غربية.

ويبدو أن نزعة التصوف لدى المسلمين نبعت من مصادر قديمة مختلفة منها على سبيل المثال لا الحصر، نزعة التقشف لدى الهندوس والبوذيين، والغنوصية⁽¹⁾ التي سادت في مناطق مختلفة، والأفلاطونية الحديثة⁽²⁾، ومن أفكار التصوف في بلاد الفرس قبل الإسلام، ومن تأثير الرهبان المسيحيين الذين انتشروا عبر العالم الإسلامي.

وقد ظهرت نزعة التصوف في الإسلام كردّ فعل على ما شاهده المسلمون من شدة الإقبال على متاع الحياة الدنيا وزخارفها، وما ساد من مظاهر البذخ والترف والانحلال لدى المسلمين، وانصرافهم عن

(1) هي حركة فلسفية يعتقد أصحابها أنه باستطاعتهم إنقاذ أنفسهم من الإثم بالوصول إلى المعرفة الروحية. وقد ساهمت فلسفات ومعتقدات قديمة في نشوء الغنوصية؛ وانتقدها كثير من رجال الدين لما تتضمنه تعاليمها من عناصر وثنية مضللة.

(2) الأفلاطونية الحديثة فلسفة تشمل فلسفة أفلاطون اليوناني بعد أن نقحها الفيلسوف أفلوطين وغيره من الفلاسفة وأعطوها صبغة شرقية.

أخلاق البساطة والتقشف التي سادت في عهد الرسول والخلفاء الراشدين.

يقول العلامة ابن خلدون عن ظاهرة التصوف⁽¹⁾:

« هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة. وأصله أن طريقة هؤلاء القوم، لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة، ومال، وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة؛ وكان ذلك عامًّا في الصحابة والسلف. فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختصَّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة.»

ويروى أن أول من جاء بفكرة التصوف في الإسلام هو ذو النون المصري، وكان تلميذًا للإمام مالك؛ وأن أول من عمل نشر نظريات التصوف في الإسلام هو الجنيد البغدادي (توفي سنة 910 ميلادية)، وكان يعرف التصوف بأنه ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وتحمل مع اتباع.

ويعرف بعض المتصوفة الصوفي بأنه من صفا من الكدر، وتسلى عنه بالفكر، وانقطع إلى الله عبر البشر، واستوى عنده الذهب والمدر (الطين). ويقال عن الصوفي بأنه كالأرض يطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح.

(1) المقدمة، الفصل السابع عشر، صفحة 514.

وقد عثرت على تعاريف عديدة للتصوفي والتصوف منها ما ذكره الشيخ عبد القادر أحمد عطا⁽¹⁾، فهو يقول:

- التصوف حفظ شرائع الدين، وحسن الخلق مع الخلق أجمعين، وتسليم الإرادة لله رب العالمين.

- التصوف هو الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق.

ويرى البعض أن كلمة «الصوفية» ربما اشتقت من كلمة الصوف، لأن المتصوفة كانوا يرتدون ملابس الصوف الخشنة.

وقد اعتمدت الصوفية المعتدلة في استنباط أفكارها وأساليب سلوكها على ما ورد في القرآن الكريم؛ فقد وجدوا في كتاب الله آيات تتحدث عن الإيمان، والتقوى، وحب الله، وعن الجنة، والنار، وقدسية الخالق وسعة رحمته؛ فبدأ الصوفي يستجيب لحب الله بشغف وخشوع، ويلجأ إلى الاستغراق في التأمل والصلاة، وتطهير النفس من رغباتها الدنيئة من أجل الوصول إلى الصفاء الروحي؛ وأخذ نفسه بالشدّة، وألزمها بالاخلاص والتقوى في نواياه وأفعاله وأسلوب حياته لينال رضى الله جل جلاله.

وهكذا يلزم الصوفي نفسه بأساليب حياة خشنة، وأحياناً قاسية، فطعامه قليل، ونومه قليل، وليله للصلاة والدعاء، صيامه طويل، كلامه قليل، ملبسه خشن، يضحى بمتع الحياة، ويتحمل المشاق والحرمان، في سبيل إعداد نفسه للحياة الروحية والحب الإلهي.

(1) من كتابه «التصوف الإسلامي» (في عصر النابلسي - ص 185).

وتحرص فئات الصوفية المعتدلة على ترسيخ أخلاق الإسلام الأصيلة، وتدعو إلى اتباع لغة القلب بدلاً من النظريات والمبادئ الجافة. وترى أن المعرفة الخارجية وحدها غير كافية، ولا بد من اللجوء إلى المعرفة الباطنية البديهية، المعرفة بالحدس، وكل ما يدرك بالبداهة من أجل الحصول على «النور الرباني» الذي لا يدرك بالعقل وحده. غير أن الإلهام الإلهي، و«انكشاف المحجوب» الذي يكرم الله به المتصوف بفضل منه ورحمة ينبغي أن يكون في إطار تعاليم الدين الحنيف. ويمكن أن يمر المتصوف بمراحل منها مرحلة الزهد والتقشف وهي مرحلة سلوك أخلاقي يتسم بالاستقامة وطهارة النفس؛ ومرحلة النشوة، وهي مرحلة شعورية حماسية يحاول فيها الصوفي أن يصل إلى «الوحدة مع الإله»؛ ومرحلة المعرفة الباطنية التي يهدف أثناءها إلى بلوغ شيء من هذه المعرفة الربانية.

ومع أن الاهتمام الأساسي لدى عامة الصوفية هو «التوحيد»، أي أنه لا إله إلا الله، فإن الطرق التي يعبر بها الناس عن هذا الاعتقاد مختلفة. فمن الصوفية من يتبع طريق المغالاة، ويرى أن الاستماتة في طاعة الله والتضحية في محبته هدفها تحقيق «الوحدة» بين الخالق والمخلوق، أي الاندماج، ومنهم من يرى أن الله عز وجل ومخلوقاته هما جانبان لحقيقة واحدة، أي «وحدة الوجود».

يقول العلامة ابن خلدون في هذا السياق⁽¹⁾:

«وذهب جماعة من المتصوفة المتأخرين الذين صيروا المدارك

(1) المقدمة، صفحة 518.

الوجدانية علمية نظرية، إلى أن الباري تعالى متّحد بمخلوقاته في هويته ووجوده وصفاته. وربما زعموا أنه مذهب الفلاسفة قبل أرسطو، ومثل أفلاطون وسقراط؛ وهو الذي يعيّن المتكلمون حيث ينقلونه في علم الكلام عن المتصوفة، ويحاولون الردّ عليه لأنه ذاتان تنتفي إحداهما، أو تدرج اندراج الجزء؛ فإن تلك مغايرة صريحة، ولا يقولون بذلك. وهذا الاتحاد هو الحلول الذي تدعيه النصارى في المسيح عليه السلام، وهو أغرب لأنه حلول قديم في محدث أو اتّحاده به. وهو أيضاً عين ما تقوله الإمامية من الشيعة في الأئمة».

يقول المغالون من المتصوفة أنه إذا تطهرت الروح من متاع الحياة الدنيا ومشاغلها، ووهب المرء نفسه للحب الإلهي... فإن روحه تسمو إلى المنازل العليا حتى تتحد مع «ذات الإله»، وعندئذ تزول كل وساطة بين الروح وباريها، ولم يعد للصلاة والصيام وغير ذلك من الفرائض من فائدة، بل قد تصبح العبادات (في نظرهم) عائقاً في طريق الاتحاد مع الذات القدسية العليا.

ويزعم هؤلاء المغالون أنه إذا تخلّى الإنسان عن الشهوات المادية، وإذا كانت رغبته شديدة في الاتصال بالله تعالى، وجد السبيل ميسراً. وهم يرون أن كل ما نشاهده من حياة وجمال إنما هو نتيجة حلول روح الله في الأشياء وفي الطبيعة، فالله هو كل شيء، وكل شيء وكل مخلوق هو الله، ومن هذا القبيل قول الحسين بن منصور الحلاج :

أنا من أهوى، ومن أهوى أنا

نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته

وإذا أبصرتة أبصرتنا

وتتطلب طوائف الصوفية المنظمة أن يتولى الأستاذ، أو الرائد المرشد، أو الشيخ، تدريب الأتباع الجدد الذين يرغبون في الانتماء إلى هذه الطوائف، تدريب الأعضاء الجدد على الممارسات الصوفية وأساليب الحياة والشعائر الروحية التي تساعد على تطهير النفس من شهواتها ورغباتها السلبية. ولا بد للعضو الجديد في طريقة الصوفية أن يطيع «المرشد» وأن يلتزم بمبادئ وتعاليم الطريقة وبحياة التقوى والصلاة والخشوع والتأمل في عظمة الخالق وأسرار الكون، وأن يسعى برغبة عميقة إلى مرحلة الاتحاد مع الروح الكلية العلوية، وأن يروض النفس ويوجهها تدريجياً عبر جادة الصبر والمحبة والورع والتضحية والرضى بكل ما يصيبه من تحديات وإغراءات إلى أن يصل إلى مرحلة الانتشار الروحي، والمعرفة الباطنية، والنور الرباني، وهي المرحلة التي يتحد فيها «المحب والحبيب» في روح واحدة، أي اندماج المخلوق وخالقه ليصبحا شيئاً واحداً، وهذه بدعة وضلال يرفضه الإسلام.

إن الإسلام لم يأمر بتعذيب النفس، ولا يمنع الطيبات، بل قال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى - الآية رقم 11)؛ وقال: «المؤمن القوي أحب إلى الله من المؤمن الضعيف»؛ ولم يوص الإسلام بلبس الصوف أو الجلود، ولا بقتل المشاعر الطيبة، بل أوصى بالاعتدال، بعدم الإسراف، وبالمحافظة على الأبدان، والله يحب أن يرى آثار نعمته على

عباده، وقال: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص - الآية رقم 77). ويروى أنه عندما بلغ النبي ﷺ أمر المتشددين في الدين قال: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا.. والله إني أصوم وأفطر، وأصلي، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وتجدر الإشارة إلى أن كثيراً من المتصوفين الذين انحرفوا عن أهداف التصوف السليمة، أو لم يدركوا لجهلهم غاياته السامية، انغمسوا في متاهات خطيرة، وراحوا يزعمون أن الذي يتعمق في الغوص على جواهر الصوفية الروحية يمكنه أن يرتقي إلى سلم الولاية أو القدسية، ويصبح فوق سنن الطبيعة وقوانينها، فالنار لا تحرقهم، وسموم الأفاعي لا تؤثر في أجسادهم، وأصبحوا ينعنون بأنهم من أولياء الله الصالحين، قادرين في زعمهم على إحداث الكرامات، كأن يوجدوا في مكانين متباعدين في وقت واحد، أو يُحضروا موائد الطعام من لا شيء، أو ينقذوا أتباعهم عن قرب أو عن بعد؛ ومنهم من يدعي أنه يملك قوة خارقة؛ لأن الحجاب انكشف أمامهم فهم يرون ما لا يرى غيرهم من عامة الخلق، وأن كراماتهم تشبه ما كان للأنبياء من معجزات؛ بل منهم من يزعم أنه بلغ درجة من السمو الروحي تحرره من فرائض الشريعة، ومنهم من أصبح يعطف على إبليس ويطلب له العذر في عدم السجود لآدم عليه السلام. وإليكم نموذجاً من غلاة المتصوفة: العلاج.

هو أبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج، كانت شخصيته وتجاربه وطموحاته تثير الإعجاب لدى البعض، وتثير الاستنكار لدى الكثيرين. ولد الحلاج سنة 858 ميلادية في جنوب إيران، من أصل مجوسي، سكن مدينة واسط في شبابه، وحفظ القرآن الكريم، واجتهد للتعلم في معانيه. وراح يفضل من يعلمونه طريقة التصوف.

قام الحلاج بأسفار عديدة، فزار مكة للحج، ثم عاد إلى بلاد فارس، وزار خراسان، وخورستان حيث ظل فترة يدرس طريقة الوصول إلى علاقة حميمة مع الله، وتبعه جماعات من تلاميذه. ثم سافر إلى الهند وتركستان لنشر أفكاره. وبدأت آراء الحلاج ونشاطاته تثير الجدل، مما أثار حوله كثيراً من الشكوك حتى من طرف أساتذته، ومنهم أبو القاسم الجنيد، وهو من مشاهير الصوفية.

وُصف الحلاج بأنه كان صوفياً «سِكِرْتٌ مشاعره» لدرجة أنه كان أثناء فترات الوجد الصوفي والنشوة العارمة يصل إلى غيبوبة تجعله يشعر أنه بحضرة الخالق العلوي، وأن روحه اندمجت في الحق الأعلى جلّ جلاله، وفي هذه الحالة يتلفظ بعبارات متطرفة مثل «أنا الحق» ويعني «الله». وهكذا كان الحلاج يتجاوز في ادعاءاته، ويغلو في أفكاره، ويبالغ في مزاعمه وتخيلاته فيتحدى حدود الشرع والمعقول، وقد ادعى الإلهية، وقال بحلول الله في الإنسان، وادعى بأنه ينجز الكرامات، ويحدث الخوارق، ويسيطر على الجن، وجاء بأشكال من أعمال الشعوذة والشطحات البهلوانية. وصدقته في مزاعمه كثير من البسطاء واعتقدوا بإلهيته. ومن أقواله الشهيرة: «ما في الجبة إلا الله» (يعني نفسه؛ وأنا مفرق قوم نوح)؛ و«أنا الحق».

وبسبب هذه المغالاة وهذا التطرف والنشاطات المشبوهة، اتهم الحلاج بالاشتراك في محاولة إفساد النظام وألقي به في السجن. وقد أصدر قضاة المذاهب حكماً بقتله، فأعدم سنة 922 ميلادية في بغداد.

محي الدين بن العربي :

عرف محي الدين بن العربي بالشيخ الأكبر، وكان من كبار شخصيات الفكر الرسلامي. ولد ابن العربي سنة 1165 ميلادية (560 هجرية) في مدينة مرسية، جنوب شرق أسبانيا؛ ودرس في مدينة إشبيلية العلوم الإسلامية، وهناك اكتشف فيه عدد من أساتذته الصوفيين شاباً ذكياً طموحاً ذا ميل إلى العلوم الروحية. والتقى أثناء إحدى رحلاته بالفيلسوف الشهير ابن رشد في مدينة قرطبة.

وسافر ابن العربي إلى الشرق، فزار مكة، ومصر، وأنتولياً حيث التقى بالعالم صدر الدين القونوي، في قونيا، وقد أصبح هذا العالم خلفاً له في الشرق. ثم سافر ابن العربي إلى بغداد، وحلب، وانتهى به المطاف إلى دمشق.

انتشرت سمعة ابن العربي عبر العالم الإسلامي، ونال مقاماً رفيعاً باعتباره «المعلم الروحي». وقضى بقية حياته في دمشق مركزاً على الدرس، والتعليم، والتأليف.

وتطورت حركة التصوف على يد ابن العربي، فأصبحت تطرح

أسئلة أساسية لها علاقة بالعقيدة الإسلامية، ومن هذه الأسئلة «هل ما يسعى إليه الصوفي من الوصول إلى درجة «القدسية المثالية» هو دون درجة النبوة أو فوقها؟ ومن هو الأسمى من الآخر، الصوفي الذي بلغ هذه الدرجة، أم النبي؟ هذا في مجال الروحيات بطبيعة الحال. وكان ابن العربي يرى أن الصوفي أعلى مرتبة من النبي لأنه يتلقى معرفته مباشرة من خالقه، بينما يتلقى الرسول الوحي بواسطة الملك؛ وكذلك لأن الرسول يتعامل ويعيش مع البشر، أما الصوفي المثالي فيعيش مع الله جل جلاله.

ومما يروى عن العالم الصوفي ابن العربي أنه أثناء زيارته لمكة المكرمة التقى بفتاة فارسية تتمتع بالحكمة والبراعة أثرت على تجربته وعلمته طريق الحكمة الإلهية. وعلى أساس هذه التجربة ألف ابن العربي قصيدته الرائعة «ترجمان الأشواق». وقد ألف ابن العربي نحو مائة وخمسين مصنفاً ورسالة من أهمها «فصوص الحكم»؛ وأهمها تحفته الرائعة «الفتوحات المكية» التي شرح فيها نظرياته حول «وحدة الوجود»، ويعني بهذه «الوحدة» اتحاد «المخلوقات والخالق» أو الله والعالم من حوله. وهو يرى أنه متى تم الاتحاد بين الذات العليا (الإله، والذات الدنيا (المخلوقات) يتحقق الاندماج، وتزول الفوارق، وتنتصر محبة الله، ويصبح الكون كله وحدة متكاملة.

ومما يوضح رأيه القائل بوحدة الوجود، أي أن الخالق ومخلوقاته شيء واحد، ما جاء في البيتين التاليين:

يا خالق الأشياء في نفسه أنت وما تخلق جامع
تخلق ما لا ينتهي كونه فيك فأنت الضيق الواسع

وقد انتقد أئمة الإسلام وكثير من الصوفيين المعتدلين في جميع
أقطار الإسلام آراء ابن العربي ونظرياته الخارجة عن تعاليم الدين
الحنيف.

نبذة
عن الحضارة الإسلامية



نبذة عن الحضارة الإسلامية



جاء في الموسوعة البريطانية ما مفاده: الحضارة هي مجموع الميراث الاجتماعي لمجموعات من السكان يحقق لهم وسائل الحياة، ويوفر لهم مستوى من الثقافة والموارد التي تدعم إمكانيات تطورهم التدريجي، ويساعدهم على تحسين ظروف حياتهم الفكرية، والمادية، والأخلاقية، وعلى المحافظة على وحدتهم، ونقل مكاسبهم الثقافية إلى الأجيال التالية».

كان للإسلام رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فرفعوا لواءه عالياً، وانطلقوا شرقاً وغرباً يحملون رايات عقيدة الوحدانية، والعلم، والعدل، والمساواة، والأخوة بين الناس مُرَدِّدِينَ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات - الآية رقم 13) .

وفي قرون قليلة أسسوا منارات انتشرت أشعتها من حدود الصين إلى المحيط الأطلسي، وشيّدوا حضارة أنارت أجواء أوروبا الكئيبة وساعدتها على الخروج من ظلمات القرون الوسطى.

انطلقت الدعوة الإسلامية تحمل مبادئ إنسانية علمية وعملية

قوية راسخة، من شعاراتها اطلبوا العلم والمعرفة حيثما وجدا، اقرأوا، تعلموا، اعملوا بجدّ وحماس وأنقنوا إنتاجكم، فإن المعرفة وحدها لا تسمن ولا تغني من جوع.

كانت انطلاقة الحضارة العربية الإسلامية من أعظم الثورات الحضارية في التاريخ، إذ لم يكد يمرّ قرن من الزمن على وفاة الرسول ﷺ، حتى كان فرسان الإسلام ينشرون دعوة الحق من حدود الصين حتى فرنسا، ومن المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي. وبتوسع إمبراطورية الإسلام بدأت المدن تشيد وتزدهر، وأصبحت شعارات الخلفاء والولاة والعلماء: علم الحكماء، وعدل الحكام، وشهامة الفرسان، وتقوى الصالحين، أمة واحدة وثقافة واحدة. وقد يتساءل المرء كيف استطاعت اللغة العربية أن تنتشر وتصبح وسيلة فعالة في العلوم، وفي التعامل مع مختلف الشعوب ومعارفهم العريقة، وحلت محل لغات أخرى. وقد أثبتت هذه اللغة أنها لغة ثرية، مرنة، قادرة على التكيف والتفاعل والتجاوب مع مسيرة العلوم، وعلى التطور ومسابقة اللغات الأخرى، ونقل فنون الأمم الأخرى ومعارفهم إلى أحضانها، وكيف لا وقد وسعت كتاب الله لفظاً وغاية.

توسعت الفتوحات الإسلامية، وحرص المسلمون على كسب معارف الأمم الأخرى وعلومهم والاستفادة من حضاراتهم، وشجع الخلفاء والولاة هذه الرغبات، وعمل خلفاء بني أمية على الاستفادة من ثقافات الأمم المجاورة واقتناء المعرفة والكتب من العواصم المتحضرة في بلاد فارس واليونان، ومن المكتبات في الاسكندرية، وأنطاكية

وبيروت ونيسابور وغيرها، وراحوا يبذلون جهوداً كبيرة وأموالاً سخية من أجل ترجمة علوم الحضارات الأخرى وفنونها إلى اللغة العربية.

وكان أول من اهتم بالترجمة هو خالد بن يزيد بن معاوية الذي أمر بإحضار جماعة من اليونانيين من مصر، وأمرهم بنقل بعض المصنفات من اليونانية والقبطية إلى العربية. وتبع ذلك نقل «الديوان» من الفارسية إلى العربية في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي.

وفي عهد الدولة العباسية كان أول من اهتم بترجمة المؤلفات الأجنبية أبو جعفر المنصور الذي طلب من طبيبه الخاص جورجس بن جبرائيل بترجمة مؤلفات يونانية في ميدان الطب إلى العربية. ثم نهض حنين بن إسحاق بترجمة مصنفات لأبقراط وجالينوس في الطب. وترجم ابن المقفع كتاب «كليلة ودمنة» من الفهلوية إلى العربية.

وتواصلت أعمال الترجمة إلى العربية فشملت كتاب «السند - هند»؛ وكتاب «المجسطى» لبطليموس؛ وكتاب «إقليدس» في الهندسة. وفي عهد هارون الرشيد نشطت ترجمة الكتب اليونانية؛ وازداد شغف الخليفة المأمون بالعلوم، فلم يكن يتردد في البذل بسخاء من أجل اقتناء الكتب من مختلف البلدان وترجمتها؛ بل كان عندما يتفاوض مع دولة ما يضيف إلى شروط العقود أن تقدم له مصنفات علمية لترجمتها. ويقول الشيخ محمد الخضري صاحب «محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)»: إن المأمون يعد في الحقيقة حامل لواء هذه العلوم، وسبب تلك الحركة الكبرى التي وجدت في الأمة الإسلامية، مع حفظ الفضل لمن سبقه كأبيه الرشيد، وجده المنصور،

فإنهما وضعاً الأساس، وهو هذا حذوهم، إلا أنه فاقهم في الاهتمام والعزم» ومن بعد المأمون أرسل الخليفة المعتصم والخليفة المتوكل رسلاً إلى مختلف المدن والأمصار لشراء المصنفات المتعلقة بالطب والفلسفة والرياضيات وغيرها لترجم إلى العربية.

وتجدر الإشارة إلى أن «بيت الحكمة» التي أنشأها المأمون عام 830 ميلادية في بغداد كانت أشبه بمجمع علمي تضم طائفة من المترجمين يعكفون على ترجمة المصنفات الهامة من اللغات اليونانية، والسريانية، والفهلوية، والهندية؛ وقد ركز المسلمون على ترجمة مؤلفات أرسطو وأفلاطون، كما ترجمت كتب من بلاد الفرس والهند ومن أصقاع أخرى في القصص، والسير، والفلك، والموسيقى، والهندسة وغيرها.

وكان على رأس مدرسة الترجمة هذه (بيت الحكمة) طبيب نسطوري بارع يدعى حنين بن إسحاق، يروى أنه ترجم بنفسه مائة كتاب ورسالة. وبدأت بهذه الأعمال المكثفة حركة علمية ظلت تنتشر عبر الإمبراطورية الإسلامية التي بدت في العهد العباسي، وفي عهد ازدهار الأندلس، كأنها سوق عظيمة للعلوم والمعارف؛ وأصبح العلماء ينعمون بالتقدير والحرية، ومنهم يهود، ومسيحيون، وفارسيون، ونستوريون⁽¹⁾، وغيرهم. والسبب في هذا الانتشار العظيم أن العقيدة الإسلامية تسعى إلى هداية الشعوب إلى الإسلام، ولكنها لا ترفض علومهم وحضارتهم، بل تشجعهم على الاكتشاف والإبداع.

(1) أتباع نستوريوس (431م) الذي كان يعتبر أن طبيعتي الألوهية والبشرية ظلتا منفصلتين. في المسيح عليه السلام، واعتبرت الكنيسة هذا الاعتقاد هرطقة.

وسرعان ما انتقل العلماء المسلمون من مرحلة الترجمة إلى مرحلة التأليف والإنتاج والإبداع، فدخلوا ميادين البحث والتجربة والاستقراء، والمختبر والمصنع... لأن العلم المفيد هو الذي يصدق العمل والإنتاج. استغل علماء الإسلام معارف الأمم السابقة، مثلما يستغل النحل رحيق البساتين، ثم بنوا عليها فجاءوا باكتشافاتهم وإبداعاتهم في جميع العلوم والفنون، ولا شك أن مما ساعد على ذلك رعاية الخلفاء والأمراء والولاة المستتيرين الذين أنفقوا بسخاء على المراكز العلمية في عواصم الإسلام، ومنها بيت الحكمة في بغداد، والجامع الأزهر في القاهرة، وجامعة القرويين في فاس، وجامع القيروان وجامعة الزيتونة في تونس، وجامع قرطبة في الأندلس، وفي مناطق أخرى سيأتي ذكرها.

وهكذا استطاع الإسلام أن يوحد شعوباً مختلفة في مناطق واسعة تحت لواء عقيدة سماوية ولغة واحدة، ولعله للمرة الأولى في تاريخ البشرية تعارفت وتعاونت مثل هذه القبائل والشعوب على اختلاف مللها وتقاليدها ولغاتها، من بلاد الهند وفارس وتركستان والخليج العربي وشبه الجزيرة العربية، وسوريا ومصر وشمال أفريقيا وأسبانيا إلخ.

كان المسلمون حيثما حلوا ينقلون معهم المعارف والتقنيات الجديدة ويطورون أساليب الزراعة وينشؤون قنوات الري ويصلحون الأراضي، ويبدعون في العمران. كما عمل المسلمون على تطوير الصناعات المهنية فازدهرت صناعة السجاد والقطن وأنواع النسيج،

وصناعة المعادن والفضة والذهب، وأتقنوا صناعة الزجاج و العطور والأسلحة. وازدهر التبادل التجاري مع الصين والهند وجنوب روسيا وسواحل شرق إفريقيا حتى جزيرة مدغشقر، وغرباً حتى المحيط الأطلسي، وقد حدث هذا الازدهار في زمن كانت فيه أوروبا تعاني من الفقر والجهل والتخلف أثناء القرون الوسطى.

وبالإضافة إلى هذا حقق العلماء المسلمون إنجازات عظيمة في ميادين العلوم المتوفرة آنئذ، ومنها علوم الفلك، والكيمياء، والطب، والرياضيات، وقدموا أعمالاً عظيمة، تطبيقية ونظرية، في ميادين الجراحة وطب العيون، والبصريات (دراسة الضوء)، وألفوا مصنفات علمية رائعة في علوم الجغرافيا، والأحياء، والصيدلة والفيزياء، والفلسفة، والتاريخ، والأدب، والموسيقى وغيرها. وبذلك اضطلعت الحضارة الإسلامية طيلة قرون طويلة بدور الرائد المستتير في مجال التفكير العلمي، والوعي الثقافي، والتنظيم الاجتماعي، والتشريع القانوني، والتسامح الديني، والرخاء المعيشي، والمساواة بين الأجناس.

كان معظم العلماء في ذلك العهد لا يكتفون بالتخصص في علم واحد بل يحصلون عدداً من العلوم مع التركيز على أحدها، ومع البحث والتأليف في أكثر من علم واحد. فقد كان العالم يجمع بين الطب، والفلسفة، والفلك، والرياضيات مثلاً، ويؤلف في جميعها أو يقتصر على بعضها. ويروى المؤرخون أنه كان في مدينة بغداد وحدها، في عهد هارون الرشيد وابنه المأمون، أكثر من 800 عالم وطبيب.

وكما كان الخلفاء والأمراء والولاة ينفقون بسخاء على شراء

الكتب وترجمتها، راحوا يبذلون بسخاء لرعاية العلماء وتشجيعهم على التأليف والإبداع. وظلوا يقدمون الدعم المالي للمساعدة على الإنتاج والابتكار، وإنشاء تجهيزات عملية في مجالات علمية متعددة، منها تشييد المستشفيات في العواصم الإسلامية، ومعامل التحليل، ومصحات لرعاية ذوي الأمراض النفسية، وإنشاء مخازن في الأحياء السكنية الفقيرة، توفر للناس العلاج والأدوية والطعام مجاناً؛ وبناء مدارس الصيدلة ودكاكين للصيدليين، وتصنيع الأدوات والتجهيزات الطبية للفحص والعلاج والجراحة. ولم يبخل الحكام بمساعداتهم لعلماء الفلك والجغرافية الذين أبدعوا في صناعة الخرائط المسطحة والكروية، وصناعة الأسطرلاب، وبناء المراصد الفلكية.

وشملت النهضة الحضارية الإسلامية منشآت مختلفة زراعية وعمرانية وتجارية، وابتكارات مدنية عملية منها على سبيل المثال لا الحصر تجهيزات سكب المعادن، وبناء الجسور، ومدّ قنوات الري، وأنظمة التدفئة والتبريد، والحمامات العامة، وصك النقود، وإنتاج العقاقير ووسائل تخدير المرضى، وصناعات الحبر، والنسيج، والسّمع، والدهان، والسكر، والطاحونات المائية والهوائية، والساعة المائية وغير ذلك. وجلب المسلمون من الصين مزروعات منها الأرز، والقطن، وقصب السكر، والحرير، والبرتقال، والزنجبيل وغير ذلك.

ومن دلائل التقدم الحضاري اهتمام المسلمين بصناعة الورق، إذ أخذوا صناعة هذه المادة الهامة من الصينيين قبل نهاية القرن الثامن الميلادي وأسسوا مصنعاً لإنتاج الورق في بغداد، ثم نقلوا هذه الصناعة

إلى الأندلس، وسرعان ما انتشرت تجارة هذه المادة العظيمة فشجعت ذوي المهنة على طباعة الكتب، وخففت من وزنها، وساعدت على انتشار التأليف والمعارف.

وتجدر الإشارة إلى أن علماء المسلمين كانوا يجدون متعة وفائدة كبيرة في لغة الأرقام. وكان من أهم نشاطاتهم في هذا المجال هو استعمال الأرقام ... 6, 5, 4, 3, 2, 1... التي أخذوها من أصلها الهندي وطوروها واستغلوا سهولتها فيما تعاطوا من العلوم، وانتشر استعمالها في شمال أفريقيا وفي أوروبا التي كانت قبل ذلك تعتمد في حساباتها على الأرقام اللاتينية المعقدة. وإليكم مثلاً على كتابة الرقم 1825 بالأرقام اللاتينية: MDCCCXXV حيث يمثل الحرف:

$$1000 = M$$

$$0500 = D$$

$$0100 = C \quad \text{مكرراً ثلاث مرات} = 300$$

$$0010 = X \quad \text{مكرراً مرتين} = 20$$

$$0005 = V$$

$$\underline{\hspace{1cm}} \\ 1825 = \text{المجموع}$$

ويلاحظ أن أوروبا لم تعرف «الصفر» (ZERO) قبل منتصف القرن الثامن عشر الميلادي؛ وكانت هذه الكلمة معروفة لدى العرب

قديمًا وتعني «لا شيء»، ومنه «صفر اليمين». وقد انتهى الأمر بحسن استغلال الأرقام الهندية إلى اكتشاف أساليب تقنية رياضية وميكانيكية لحل مشاكل حسابية وإلى اختراع نوع من «الحسوب» الفلكي.

ومن أعظم دلائل التطور والازدهار ما شيّدته الحضارة الإسلامية في ميادين العمارة وال عمران. فقد شيّد العباسيون قصرًا عظيمًا منها قصر سامرا، والقصر الهاروني، والقصر الجعفري، وقصر الجوسق، وقصر الثريا وغيرها. كانت جدران هذه القصور مزدانة بأبهج الزخارف والفسيفساء البراقة، وقطع الزجاج بأشكالها الهندسية وألوانها اللامعة. واشتهر فن العمارة عند المسلمين كذلك بالنعوش الهندسية البديعة. وكانت هذه القصور مزدهرة بالحدائق والبرك والأحواض والتماثيل والنافورات. ولكن بغداد كانت مزدهرة كذلك بكونها مركز العلم وقبلة العلماء؛ وكان الأطباء والمهندسون وطلاب العلم وأصحاب المهن يهرعون إليها من مختلف الأقاليم ليستفيدوا من معارف من سبقهم، ويضيفوا إليها من مواهبهم العلمية والفنية.

وكانت مدن الأندلس من أهم مراكز الإشعاع الحضاري، ومنها قرطبة، وطليطلة، وغرناطة، وإشبيلية. وهناك شيّد الخلفاء والأمراء والأثرياء قصرًا، ومساجد، ومعاهد علمية ظلت مصدر فخر للحضارة الإسلامية. وكانت مدينة قرطبة نموذجًا للمدينة المستنيرة الراقية؛ ويروى المؤرخون أنها كانت في عهد المنصور بن أبي عامر تضم نحو 20.000 قصر، و2000 مسجد، و900 حمام عام، و80.000 مصنع وحنوت، بالإضافة إلى الجامعات، والمستشفيات، ومراصد الفلك وغير

ذلك. كما تجدر الإشارة إلى قصور الأندلس الرائعة ومنها قصر الحمراء، والزهاء، والزاهرة، ومسجد قرطبة الشهير.

ويروى أن الحكم المستنصر بالله أسس في قرطبة 27 مدرسة؛ وراجت فيها العلوم والآداب والفنون، وكان العلماء يتوافدون إليها. واهتم أمراء الأندلس بجمع المصنفات النفيسة وأرسلوا بعثات إلى الشرق الإسلامي لشرائها؛ وجمعت المكتبة الملكية في قرطبة أكثر من 400 ألف مجلد، وكان البادئ بهذه الحركة العلمية الواسعة هو الخليفة الناصر وابنه الحكم. واشتهرت متاجر الكتب فيها حتى قيل «إذا توفى عالم في إشبيلية وأريد بيع كتبه تحمل إلى قرطبة؛ وإذا توفى مطرب في قرطبة وأريد بيع آلاته تحمل إلى إشبيلية».

ومن الشواهد على ازدهار الحياة في قرطبة ما يشير إليه المؤرخ الشهير المقرئ من أن الهيئات القضائية فيها كانت منظمة تنظيمًا محكمًا؛ وأن المسيحيين كان يحكمهم موظفون من ملتهم؛ وأن الشرطة كانت تسهر بانتظام على أمن المواطنين؛ وتراقب الأسواق والسلع والموازين... وأن مرافق الصحة العامة كانت على ما يرام».

ومن غير المعقول أن يتحدث المرء عن الحضارة العربية الإسلامية من غير أن يتناول تلك الثروة الراقية العظيمة التي تزخر بها الثقافة العربية، إذ لا تتجلى المعالم الفنية السامية لهذه الحضارة، ولا تبرز فضائلها وإنجازاتها الإنسانية بدون الإشارة إلى ما أنتجته تلك القرون المزدهرة في تاريخ الإسلام من المصنفات الأدبية ودواوين الشعر، وما أنجبتته من كبار الأدباء وفحول الشعراء، وإذا كانت أوروبا

قد سعت أثناء عهود جهالتها وانحطاطها إلى ترجمة مؤلفات كثيرة من العلوم العربية إلى لغاتها، فإنها لم تعر اهتماماً يذكر لكنوز الأدب العربي، بل اكتفت في عهود متأخرة بترجمة بعض القصص الخيالية المسلية مثل: «ألف ليلة وليلة»، و«كليلة ودمنة»، و«رباعيات الخيام»، وغيرها.

وبما أن هذه الصفحات لا تسمح بالتوسع في هذا الموضوع الشيق، فلا أقل من تقديم لمحة موجزة عن بعض الكتاب والشعراء الذين لمعت نجومهم في سماء الأدب العربي.

الجاحظ :

هو أبو عثمان الجاحظ، 160 - 255 هجرية (767 - 869م).

ولد الجاحظ بالبصرة لأسرة فقيرة، وتوفى أبوه وهو صغير السن، فكان يبيع الخبز والسمك على الشاطئ لكسب وسائل العيش. ويبدو أنه كان دميم الملامح، ولكنه كان كريم النفس خفيف الروح، شديد الذكاء، حسن المنطق؛ واشتهر الجاحظ بسعة معارفه، وبأسلوبه الأدبي البليغ، مارس كل علم، فكان راوية ومؤرخاً في علم الحيوان، ومؤلفاً لكتب أدبية قيمة. وكان في آرائه يميل إلى مدرسة المعتزلة.

للجاحظ مؤلفات يقال أن عددها بلغ 190 مصنفاً ورسالة وبحثاً تناول فيها شتى موضوعات الأدب والفلسفة، والتاريخ، وعلوم الطبيعة، والسياسة. وكان يمزج الجدّ بالهزل، والأدب بالعلم، والفكاهة بالمجون. ومن أشهر مؤلفاته :

كتاب «البيان والتبيين» الذي يشرح فيه أساليب البلاغة والبيان، والفصاحة، والقدرة على التعبير بلغة سليمة واضحة سهلة على القراء. ومنها : كتاب «البخلاء»؛ وكتاب «المزح والجد»؛ وكتاب «فضيلة المعتزلة»؛ وكتاب «الزرع والنحل»؛ وكتاب «فضل العلم»؛ وستأتي نبذة عن كتابه الشهير «الحيوان» عند الحديث على مشاهير العلماء.

ابن قتيبة :

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ولد في بغداد سنة 213 هجرية، وتوفي سنة 276هـ.

ومن أهم مؤلفاته :

«عيون الأخبار» تناول فيه بالبحث موضوعات السلطان، والحرب، والطبائع والأخلاق؛ وله كتاب: «الشعر والشعراء»؛ وكتاب: «أدب الكاتب». ويعتبر ابن قتيبة من مشاهير الأدب العربي.

ابن عبد ربه :

هو أبو عمر أحمد بن عبد ربه الأندلسي، ولد في قرطبة عام 246 هجرية. وهو صاحب المصنف الشهير: «العقد الفريد». وقد تناول بالبحث موضوعات اجتماعية، وسياسية، وأخلاقية، وأدبية، وتاريخية؛ واقتصر المؤلف في هذا الكتاب الضخم على أخبار المشرق العربي.

الأصفهاني :

هو أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني المتوفى عام 356

هجرية. وقد اشتهر بكتابه «الأغاني» الذي جمع فيه الأغاني المتميزة الشائعة في عصره، والعصر الذي سبقه، فجاء مصنفه في شكل موسوعة تشمل معارف مستفاضة عن أخبار العرب وملوكهم، وسيرهم، وأيامهم، ودولهم، وأنسابهم، وأشعارهم، وفنونهم، وأديبهم. ويروى أنه استغرق نحو 50 سنة لجمع مؤلفه الضخم. ويقول عنه ابن خلدون: «إنه ديوان العرب، وجامع أشتات العلوم التي انتهت إليهم».

أبو علي القالي :

هو إسماعيل بن القاسم أبو علي القالي البغدادي، ولد في قرية من ديار بكر سنة 288هـ (900م)، وتوفي بقرطبة سنة 365هـ (975م). له مؤلفات كثيرة منها كتاب «الأمالي» الذي يعتبر من أمهات الكتب في الأدب العربي؛ وهو مصنف مفيد جداً لمن يرغب في التعمق في علوم اللغة والآداب والأشعار والحكم والأمثال وأخبار العرب.

المتنبي :

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الكندي، الشاعر الذي طبقت شهرته الآفاق، وصاحب الحكم والأمثال السائرة. ولد بالكوفة سنة 303هـ، وبعد مسيرة طويلة التحق بسيف الدولة بن حمدان في مدينة حلب، فمدحه وخلد ذكره. ثم التحق بكافور الإخشيدي في مصر ومدحه، غير أن كافور لم يوف بوعده بأن يقلده ولاية، فخرج المتنبي متخفياً، وقصد الكوفة. ويتفق الأدباء والنقاد على أن المتنبي إمام الشعراء، وأنه لم يبلغ شاعر من الشهرة ما بلغه، ولم تلد امرأة شاعر ينافس في الموضوعات التي أجاد فيها.

كان للمتنبى شخصية قوية ، نائرة، وكان كثير الاعتداد بنفسه، كما كان شاعرًا قومياً يفخر بالعرب والعروبة، وخبيراً بالنفس البشرية، وكان طموحاً، قوي العزيمة، مغرماً بالأقوياء، ولكن زادته تجاربه غنى وواقعية.

أبو العلاء المعري :

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، شاعر فيلسوف، ولد بمعرة النعمان، بسوريا سنة 363 هجرية، وفقد بصره في سن الثالثة. كان يتجنب أكل لحوم الحيوانات وما يخرج منها. وتشمل أشعاره الاجتماعيات، الفلسفيات، الأخلاق، الطبيعيات؛ واشتهرت قصائده القصيرة التي تعرف بـ«اللزوميات»، والتي تناول فيها موضوعات حياتية أساسية مثل العقل، والوحي، والموت، والبعث، والعقائد؛ وهو فيلسوف متشائم يعبر عن شكوكه في أمور كثيرة، وإن كان يؤمن بوجود إله عادل، حكيم، قادر على كل شيء.

ابن زيدون :

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون (394 - 463هـ). نشأ في قرطبة بالأندلس ، ولقب بذى الوزارتين. يعتبر من الطبقة الأولى بين شعراء الأندلس. عرف ابن زيدون بغزارة ثقافته، وحدة ذكائه. وقد امتاز شعره بجودة نظمه، وصدق عاطفته، ورونق أسلوبه، وحلاوة موسيقاه. وسمي ببحتري المغرب تشبيهاً له بالشاعر المشهور في الشرق: البحتري.

لسان الدين بن الخطيب :

هو محمد بن عبد الله بن سعيد، ولد في غرناطة 713 هجرية. برع في الأدب والفلسفة والطب وعلوم اللغة، وكان أشهر رجال عصره. ترك ابن الخطيب مؤلفات شهيرة منها «الإحاطة في تاريخ غرناطة»؛ وكتاب «الحلل المرموقة» وتشمل تاريخ الخلفاء في المشرق، والأندلس، وشمال إفريقيا.

الموسيقى :

اهتم العرب بالموسيقى وترجموا منها مصنفات، ووضعوا لهذا الفن الراقي قواعد محكمة. وبعد أن كانت الموسيقى لديهم مزيجاً من الألحان اليونانية والفارسية والهندية والعربية، اخترع العرب ألحاناً أصيلة وآلات موسيقية جديدة، وطوروها حتى بلغت مستوى عالياً من الجمال والبراعة.

كان من المغنين الأوائل إبراهيم الموصلي (125 - 191 هجرية) في عهد الدولة العباسية؛ وهو من أصل فارسي نشأ في قبيلة عربية، ثم ذهب إلى الموصل حيث تعلم الغناء، تدرب على العزف على العود. ثم التحق بالخليفة المهدي في بغداد، فعاش في جواره، وألف ألحاناً موسيقية أصيلة. واشتهر كذلك ابنه إسحاق الموصلي الذي ألف بحوثاً هامة في الموسيقى، وقصائد غنائية منها «جواهر الكلام»، و«أغاني معبد»، و«النغم والإيقاع».

ومن مشاهير الموسيقى والغناء زرياب الذي تعلم فن الغناء عن إسحاق الموصلي، وجعل للعود خمسة أوتار بعد أن كانوا أربعة.

وألف علماء مشهورون في فن الموسيقى منهم الفارابي الذي اخترع آلة «القانون»، وألف كتاب «الموسيقى»، ومنهم عبيدالله بن طاهر مؤلف كتاب «الآداب الرفيعة»؛ وكذلك ألف العالمان الشهيران الكندي وابن سينا بحثاً قيمة في فن الموسيقى.

ويظن كثير من الأوروبيين أن النهضة الأوروبية بدأت من إيطاليا، والواقع أن ميلاد نهضة أوروبا انطلق في بادئ الأمر من أسبانيا الإسلامية في القرن الثاني عشر، حدث ذلك في مدرسة طليطلة الشهيرة التي كان مترجموها ينقلون المؤلفات العلمية من اللغة العربية إلى اللاتينية. وكان أشهر مترجمي هذه المدرسة يدعى «جيرار من كريمونا» الذي جاء إليها من إيطاليا. وتجدر الإشارة إلى أن هذه المدرسة كانت أول من بدأ يستعمل الأرقام العربية (الهندية) بدلاً من الأرقام اللاتينية المعقدة. ومنذ ذلك العهد دخلت الأرقام العربية إلى أوروبا. وكان من أهم المؤلفات التي ترجمتها تلك المدرسة مؤلفات العالم الفذ الحسن بن الهيثم.

وبالإضافة إلى مدرسة طليطلة نشأت اتصالات علمية بين الحضارة الإسلامية وأوروبا اللاتينية في مدن أخرى حيث كان اليهود والمسيحيون ينشطون في ميدان الترجمة، فنقلوا علوم الفلك، والطب،

والفلسفة؛ وترجموا مؤلفات الكندي، والفارابي، وابن سينا... وغيرهم. ونشطت مراكز أخرى في جنوب إيطاليا مستفيدة من الثقافة الإسلامية، فنشأت أول مدرسة للطب في مدينة ساليرنو؛ وكانت جزيرة صقلية تتعم بالرخاء والازدهار، ونشأت فيها جامعة للعلوم، خاصة علم الطب؛ وازدهرت مدينة باليرمو وتوفرت فيها وسائل الراحة والمتعة، والطرب. ونشأت مدرسة أخرى للعلوم في مدينة مونبيلي (بفرنسا)، فكانت قريبة من منابع الحضارة الإسلامية. وفي هذا الصدد يقول العالم ليجردي مستيم: «وحق علينا أن نقول إن العرب، ولا سيما عرب الأندلس، هم أصل ينبوع كل معرفة في الطب، والفلسفة، والفلك، والتعاليم التي بزغت في أوروبا منذ القرن العاشر فصاعداً».

وقد جاء في الموسوعة البريطانية (المجلد 16 صفحة 368):

«إن أكثر الثقافات فائدة لأوروبا والعالم هي الثقافة الإسلامية، وذلك ليس فقط لأن الإسلام مرتبط بالديانتين اليهودية والمسيحية، بل كذلك لما حصل من اتصالات وتفاعلات عملية بين البلدان الناطقة باللغة العربية وبين أوروبا اللاتينية أثناء فترات حاسمة. ومن المهم جداً أن نتذكر بأن عصور عظمة الحضارة الإسلامية تزامنت مع القرون الوسطى التي انحدرت فيها الحضارة الأوروبية إلى مستوى الحضيض».

قديمًا كان يسود خطأ لدى بعض البلدان الأوروبية بأن الحضارة الإسلامية إنما هي حضارة تأملية جدلية، تهتم في الدرجة الأولى بالموضوعات العقائدية، والفلسفية، والأدبية، ولا تهتم بالبحوث

التطبيقية والعلوم الطبيعية، وهذا خطأ آخر يكذبه ازدهار الحضارة الإسلامية وانتشار ثقافتها أثناء القرون الوسطى؛ كما يكذبه كثير من العلماء الغربيين ممن درسوا الحضارة الإسلامية⁽¹⁾. وقد جاء في كتاباتهم ما مفاده «إن معجزة الحضارة الإسلامية لا تتمثل فقط في دور الوسيط بين الحضارة اليونانية والحضارة الحديثة... بل إن دور العرب الحقيقي يتمثل بصورة خاصة في تلك الروح الحية الجديدة وفي ذلك النشاط الحماسي الذي أودعوه في حياة الناس في القرون الوسطى، وهي روح البحث العلمي، ومنهاج البحث التجريبي الذي لم يسبقهم إليه العلماء؛ وقد ورثت أوروبا هذه الروح التجريبية العملية في العلوم، وهو ما نشير إليه بـ«روح بيكون»⁽²⁾.

(1) منهم Regis Blachère, Louis Massignon, Armand Abel.

(2) هو Roger Bacon (1220 - 1292م) عالم وفيلسوف إنكليزي درس الفلك، الرياضيات، البصريات، الكيمياء، اشتهر بتركيزه على العلوم التجريبية.

فرسان الحضارة الإسلامية



الجاحظ



هو أبو عثمان الجاحظ، سبق الحديث عن هذا الأديب، العالم، والفيلسوف الشهير عند الحديث عن الأدباء، وأنه ترك لنا نحو 190 مصنفاً ورسالة، وأن أهمها في موضوع العلم هو كتابه «الحيوان» الذي يعتبر موسوعة ثقافية غنية بالمعارف العامة حول حياة الحيوانات بمختلف أجناسها، وحول طبائعها، سلوكها، غرائزها، أساليب عيشها، يقع الكتاب في سبع مجلدات، ويشمل الحديث عن حياة الطيور، الحشرات، القرود، الخنازير، الفيلة، التماسيح، الضب، الحمام، الذباب، وغيرها كثير.

وبالإضافة إلى موضوعه الأساسي وهو «حياة الحيوان»، يتضمن الكتاب معارف دينية واجتماعية وفلسفية، ويحتوي تجارب علمية، وحوارات لغوية؛ ويورد الجاحظ شواهد من القرآن والحديث والمراجع والأساطير وتجارب السابقين. وتتجلى في كتاب «الحيوان» دقة ملاحظة المؤلف، ومعارفه الواسعة بأحوال عصره، وأسلوبه السهل الممتع، وإحساسه المرهف بتطورات المخلوقات وغير ذلك مما جعل من كتاب «الحيوان» مرجعاً هاماً اعتمد عليه من جاء بعده من علماء المسلمين وكذلك علماء أوروبا التي كانت آنئذ (القرن التاسع الميلادي) تتخبط في ظلام الجهل والانحطاط.

الكندي



هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي (186 - 252 هجرية) -
(801 - 865 ميلادية)

ولد الكندي في مدينة «واسط» على نهر البصرة سنة 186 هجرية؛ وكان أبوه أميراً على مدينة الكوفة في عهد الخليفة المهدي والخليفة هارون الرشيد. وينحدر الكندي من قبيلة كندة التي اشتهر منها عدد من الملوك.

اشتهر الكندي بفيلسوف العرب، ونال حظوة رفيعة لدى الخليفة المأمون والخليفة المعتصم. ألف مصنفات ورسائل وبحوثاً تجاوز عددها 260 مصنفاً، تناول فيها جميع أصناف العلوم المعروفة في عصره، واشتهر بمعارفه الواسعة وإنتاجه الغزير، وكان من أكبر العقول التي أنتجها عصره.

درس الكندي الفلسفة اليونانية، وصاغ مصطلحات فلسفية جديدة، وحاول في بحوثه أن يوفق بين أفكار أرسطو وتعاليم الفلسفة الأفلاطونية الجديدة وتوسيع آفاقها. وركز اهتمامه على العلاقة بين الأشياء المادية التي لا تتوقف عن التغير، وبين الأشكال المستديمة التي لا تخضع للتغيير، والتي لا يصل إليها الإنسان إلا عن طريق الأشياء الحسية. وكان يرى أن معرفة الإنسان بهذه الأشياء ممكن بواسطة الوسائل العلمية.

وإلى جانب إنتاجه الفلسفي اشتهر الكندي بنظرياته الإبداعية في ميادين شتى، في الحساب والأعداد والأرثماطيقى الهندية، وفي الفلك، وله بحوث في المنطق، والهندسة، والطب، وتقويم البلدان، والسياسة، وفي البصريات، وظاهرة الضوء التي استفاد منها بعده العالم روجر بيكون. وألف الكندي في الموسيقى وتاريخها ومصطلحاتها، وفي الألحان والإيقاعات والآلات وغيرها؛ واهتم بعلوم الحرب، فكتب بحوثاً عن السيوف وأصنافها وأماكن إنتاجها وشرح خصائصها.

وألف الكندي رسالة عنوانها «العناصر والجرم الأقصى كرية الشكل» أكد فيها كروية الأرض، وأن الكواكب تدور حول الشمس من الغرب إلى الشرق؛ ورفض الكندي فكرة إمكانية تحويل المعادن العادية إلى معادن ثمينة، وألف رسالة في هذا الموضوع عنوانها «بطلان دعوى المدعين صنعة الذهب والفضة، وخذعهم» هذا بالإضافة إلى بحوثه في الكيمياء، وتجاربه الموفقة في ميادين صناعة الزجاج، والعمور، وتركيب الأدوية. ولم يقصر الكندي في تناوله لموضوع الظواهر المناخية ومنها المطر، والرياح، والثلج، والضباب، والبرق والصواعق، وظاهرة المد والجزر، وغير هذا مما لا يتسع له هذا الموجز.

الرازي

هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (250 - 313هـ) (864-932م).

ولد الرازي بمدينة الري (قرب طهران حالياً)، ويعتبر أعظم أطباء العالم الإسلامي، كما أنه فيلسوف وعالم مشهور في الكيمياء. كان في صغره مولعاً بالموسيقى، ثم درس الكيمياء وبرع فيها قبل أن يستكمل علومه في الطب. تولى وظيفة كبير الأطباء في مستشفى بمدينة الري، ثم شغل نفس الوظيفة في مستشفى ببغداد.

عاش الرازي في رعاية عدد من الأمراء والحكام، واشتغل بعلوم عديدة منها الطب، والكيمياء، والصيدلة، والرياضيات، والفلسفة، والفلك، والميتافيزيقا، والموسيقى، واللغة وغيرها؛ ويقارن الرازي (ويقارن نفسه) في الفلسفة بسقراط، وفي الطب بأبقراط. ويعتبره المؤرخون الغربيون «أبا الطب العربي بلا منازع».

ألف الرازي أكثر من مائتي كتاب وبحث ورسالة، ومن أهم مصنفاته:

- كتاب «الحاوي في الطب» أو «الجامع الكبير» الذي بحث فيه معارف الطب القديمة، الطب اليوناني والسوري والهندي وما سبقه من الطب العربي، وأضاف إليه معارفه وتجاربه الشخصية النظرية والعملية؛ ويعتبر هذا الكتاب أوسع دائرة معارف طبية في اللغة العربية، أظهر فيه الرازي سعة اطلاعه وغزارة معارفه،

وقدرته على استنتاج الأعراض المرضية ومعالجتها. وقد ترجم كتاب «الحاوي» إلى اللاتينية استجابة لطلب ملك صقلية سنة 665 هجرية، وأصبح كتاباً معتمداً في دراسة الطب في أوروبا خلال القرون الوسطى.

- كتاب «المنصوري في التشريح»، أهداه الرازي إلى الملك أبي منصور ابن نوح بن سامان فنسب إليه، ويتألف من عشرين مجلداً. وقد ترجم إلى اللغة اللاتينية، وشاع استعماله في أوروبا حتى القرن السابع عشر.

- كتاب «سر الأسرار» وهو أهم مؤلفات الرازي في الكيمياء؛ وظل يدرس في المعاهد الأوروبية قروناً طويلة.

- رسالة في «الحصبة والجدرى»، وتعدّ من البحوث الرائدة في الدراسات العلمية والأمراض المعدية.

وقد تناول هذا العالم الفذ موضوعات كثيرة بالبحث والتحليل، وله مصنّفات عديدة في الفلك، الرياضيات، الفلسفة، الصيدلة، وداء المفاصل، والكلبي، وأمراض العين، وأمراض النساء، وقد سبق غيره في استعمال المركبات الصيدلانية.

ومن نصائحه للأطباء: إذا استطعت أن تعالج بالغذاء، فلا تعالج بالدواء؛ وبدواء مفرد، فلا تعالج بدواء مركب».

وهناك مقولة مشهورة: كان الطب معدوماً فأحياه جالينوس؛ وكان الطب متفرقاً، فجمعه الرازي؛ وكان ناقصاً فكمّله ابن سينا.

الفارابي



هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان، ولد بمدينة فاراب (تركمنستان) (259 - 339 هجرية - 872 - 950 ميلادية). عرف بالمعلم الثاني (على اعتبار أن أرسطو هو المعلم الأول). قضى مرحلة من حياته في بغداد، ثم استجاب لدعوة من سيف الدولة الحمداني فالتحق ببلاطه في حلب.

كان الفارابي المعلم الأول لاثنتين من أعظم علماء المسلمين هما ابن سينا وابن رشد. وهو من ألمع فلاسفة الإسلام وأشهرهم. وكان زاهداً في متاع الدنيا، اعتنق مبادئ المتصوفة وارتدى ملابسهم.

أنجز الفارابي بحوثاً هامة في فلسفة أرسطو وأفلاطون، جعلته ينال منبراً هاماً في هذا الميدان. وبذل جهوداً فلسفية كبيرة في محاولته للتوفيق بين كثير من القضايا والآراء الفلسفية والعقائدية، ونجح في تحليل وتوضيح كثير من المشاكل التي كانت تبدو معقدة أو متناقضة بين الدين والفلسفة، وبين العقل والنقل؛ وأصبح الفارابي مرجعاً أساسياً لدى المسلمين والمسيحيين، يلجؤون إلى تحاليله وآرائه للإحاطة بالمشكلات الفلسفية والمنطقية الغامضة.

بقي من مؤلفات الفارابي 39 كتاباً ورسالة، منها كتاب «السياسات المدنية»؛ و«آراء أهل المدينة الفاضلة»؛ و«معاني العقل»؛ و«كتاب الموسيقى الكبير»؛ وأهم مؤلفاته كتابه «إحصاء العلوم»؛ وهذا

الأخير عبارة عن موسوعة علمية وفلسفية جمع فيها الفارابي المعارف التي توفرت له في عصره في علوم المنطق، والفقه، وفقه الكلام، والعلوم الطبيعية وغيرها. وقد تناول في مجموع مصنفاته كذلك علوم الرياضيات، والميتافيزيقا، والموسيقى، وكانت معظم بحوثه تتركز حول فلسفة أرسطو. وتجدر الإشارة إلى أنه ألف رسالة عنوانها «النكت فيما يصحّ وفيما لا يصحّ من أحكام النجوم» انتقد فيها آراء من يزعمون بأن قراءة النجوم تنبئ الناس بمصائرهم؛ وفند أقوال من يتعاطون هذه الأعمال «المنجمين».

ومن مؤلفاته التي نالت شهرة كبيرة كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» يتحدث فيها عن سلوك الأحياء وطبائع الخلق، وكيف يسعى كل مخلوق إلى استغلال ما حوله من المخلوقات والأشياء الأخرى لتحقيق مصالحه وبلوغ أهدافه وإرضاء غرائزه وملذاته. ويرى الفارابي أنه على الرغم من أن الحياة صراع مستمر، فإن المجتمع السليم لا يمكن أن يقوم على التنازع والأنانية والحروب، فيصبح مثل الغاب، حيث يسود منطق المفترس والفريسة. وينصح المؤلف بتوخي الاعتدال في التنافس دون إفراط ولا تفريط؛ وبالتمسك بالعقيدة السليمة من أجل تحقيق مجتمع تسوده المحبة والتعاون والعدل والمساواة.

وقد بحث فلاسفة آخرون موضوع «المدينة الفاضلة» و«المجتمع المثالي»، ومنهم من يرى أن الحياة الاجتماعية تقوم على أساس «العقد الاجتماعي» أي على أساس التفاهم والتعاون بين مختلف الطبقات من أجل تحقيق الأمن والبقاء للجميع؛ ومنهم من يرى أن الأصل في تكوين المجتمعات هو سيطرة الأقوياء على الضعفاء، وأن القوة، بجميع أشكالها، هي التي تكفل البقاء في نهاية المطاف.

ابن الهيثم



هو أبو علي الحسن بن الهيثم (354 - 431هـ - 965 - 1038م) .

نشأ في البصرة شاب محب للعلم مولع بالدراسة والبحث وبالاطلاع على معارف السابقين من اليونان وفارس والهند ومصر، ومما سجله علماء الإسلام. وكان ابن الهيثم قد نبغ منذ شبابه في علم الهندسة وتصميم المنازل. وبدأت متاعبه عندما طلب منه أمير البصرة أن يساعده على تشييد قصر يليق بمقامه وبسمعة المهندس. وفكر ابن الهيثم ملياً فرأى أنه من السهل عليه أن يضع الخطط والتصاميم لتشييد القصر، ولكن ليس من مصلحته أن يرتبط بمتابعة أعمال البناء ومراقبة تقدم الأشغال شهراً بعد شهر، لأن في ذلك مضيعة للوقت يفضل الشاب المهندس أن يقضيه في البحث والمطالعة. وخشي ابن الهيثم غضب الأمير ففرّ إلى بغداد.

غير أنه شعر بأن أمير البصرة يمكن أن يكيد له، ويرسل إليه من يرده إلى البصرة، فلم يمكث في بغداد طويلاً؛ ولكن توجه إلى الشام حيث حظى بالرعاية والتكريم من أميرها، وتمكن هناك من مواصلة البحث، واستطاع أن يترجم ثلاثين كتاباً من مؤلفات جالينوس في الطب.

سمع ابن الهيثم بجدب وضيق في مصر بسبب نقص الأمطار التي تغذي مياه النيل، ففكر في مشروع يتمثل في بناء سدّ أو حفر

بحيرة لحجز مياه النيل في زمن الوفرة، واستغلالها في سنوات الجفاف. وبلغت هذه الفكرة أمير مصر الحاكم بأمر الله، فدعا ابن الهيثم إلى مصر ليعمل على إنجاز مشروعه.

قام العالم المهندس برحلة إلى الجنوب متتبِعاً مجرى النيل ليتعرف على ضفافه وجغرافيته. غير أنه بعد تفحص مجرى هذا النهر العظيم تبين له أن الأمر يتطلب إنشاء مشروع ضخم للتحكم في مياه النيل، وأن المشروع يتطلب تجهيزات وإمكانات ضخمة ليست متوفرة آنئذ؛ فاعتذر المهندس عن تنفيذ المشروع؛ وقبل الحاكم بأمر الله اعتذاره، وعينه في وظيفة بديوان الحسابات. غير أن نفس ابن الهيثم لم تكن لترضى بوظيفة رتيبة هي مضيعة لوقته الثمين ولما طال عليه الأمد، وخشي عقاب الخليفة إن هو رفض، تظاهر بالجنون، وراح يمثل بمهارة الحركات والأفعال التي تؤكد جنونه، إلى أن وفّت الخليفة منيته، فشعر ابن الهيثم بالخلاص واسترجع حريته واعتباره، وقضى حياة حافلة بالدرس والتأليف، إلى أن وفاه الأجل، فأسلم الروح لبارئها في القاهرة سنة 431 هجرية.

ألف ابن الهيثم أكثر من مائتي مصنف وبحث ورسالة شملت جميع صنوف المعرفة، ومنها في المناظر (البصريّات)، الهندسة، الطب، الصيدلة، الفلك، المنطق، الفلسفة، علم الكلام، الرياضيات، الفزيقا، الحساب، الجبر، الجغرافيا، العلوم الطبيعية، الإلهيات، السياسة، الأخلاق، الأدب. ومن أهم مؤلفاته :

«كتاب المناظر» في علم البصريّات. وقد أبدع ابن الهيثم في هذا

المصنف، وبحث فيه موضوعات مبتكرة، فتناول علم الضوء وظواهره، ودرس عمليات انكساره، وانعكاسه، وانعطافه عند مروره بالأوساط الشفافة مثل الماء والهواء. وقال بأن الضوء مادة تتحرك، فإذا اصطدم بجسم مصقول يرتد لأن الجسم المصقول يعكسه؛ واكتشف فكرة «الغرفة المظلمة» التي تطورت فيما بعد لتساعد على عمليات التصوير الفوتوغرافي؛ وساعدت بحوث ابن الهيثم في البصريات العالم الإيطالي غاليليو على اختراع المنظار؛ واتبع في بحوثه أسلوب المناهج العلمية فاعتمد على الاستقراء والتجربة والمشاهدة في ميادين اكتشاف قوانين الطبيعة، فكان بذلك من رواد الطريقة العلمية، وأصبح نموذجاً يحتذى في أوروبا.

لقد قدم ابن الهيثم أول مساهمة عملية هامة في ميدان البصريات منذ عهد بطليموس، وصحح عدداً من نظريات من سبقه من العلماء في هذا المجال؛ وهو أول من اكتشف بأن المرء إنما يشاهد شيئاً ما لأن حزمة الضوء تنطلق من ذلك الشيء نحو عينيه، وليس من عيني المشاهد نحو الشيء كما كان يعتقد من سبقوه. وكذلك لم يستطع علماء اليونان أن يفسروا لماذا يتغير حجم الشيء عندما يتحرك. وشرح ابن الهيثم ذلك بقوله إن الأشعة المخروطية التي تنطلق من الشيء المرئي نحو أعيننا تتناقص بقدر ما يبتعد ذلك الشيء عنا، وعندما يقترب ذلك الشيء منا (كرة مثلاً) يزداد حجم الأشعة التي تدخل عيوننا وتنتشر، فيزداد حجم الشيء المرئي.

لقد كان لبحوث ابن الهيثم وإبداعاته في علم البصريات (أو علم

المناظر) تأثير كبير على ما توصل إليه الأوربيون من نتائج علمية. وقد ترجموا ما راق لهم من مؤلفاته، وظلوا يستفيدون منها زمناً طويلاً فيما يقومون به من دراسات في مجال البصريات، والضوء، والعدسات، والمرآيا، وغيرها. وقد اعتمد العالم روجر بيكن إلى حد كبير على تراث ابن الهيثم في دراساته وبحوثه المتعلقة بالبصريات.

لقد كان ابن الهيثم عبقرى زمانه، وعلامة عصره، ومن أعظم العلماء الذين يفتخر بهم الإسلام.

البيروني



هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني (363 - 433 هـ - 973 - 1041 م) .

عاش البيروني في عهد كثرت فيه الثورات والحروب بين الأمراء والسلاطين، فتأثرت حياته بتلك التقلبات، وكثيراً ما كان يضطر للرحيل أو الفرار من عاصمة إلى أخرى لينجو بحياته وليبحث عن الأمن والاستقرار ورعاية هذا الأمير أو ذلك السلطان.

ولد البيروني (أبو الريحان) في قرية بيرون، بالقرب من مدينة «كاث» عاصمة الدولة الخوارزمية، لأسرة فقيرة؛ وتوفى أبوه والفتى لم يتجاوز العاشرة، فاضطر لمساعدة أمه في جمع الحطب وبيعه لكسب القوت اليومي. وساعده الحظ أن يحظى برعاية أمير من أمراء الأسرة الخوارزمية؛ فتفرغ للمطالعة وتحصيل ما تيسر له من علوم السابقين، ووجه اهتمامه إلى إجراء بعض التجارب الفلكية. ثم ارتحل الفتى العالم إلى مدينة الري (بالقرب من طهران) وفيها تعرف على أحد الفلكيين أعجب به واتخذه عوناً له في بحوثه.

بعد بضع سنوات اتخذ البيروني مدينة بخارى مستقراً له، وهناك تعرف على العالم الشاب ابن سينا الذي رحب به وقدمه إلى سلطان البلاد المنصور الثاني، وبذلك تمكن البيروني من زيارة مكتبة القصر الملكي والاستفادة من مصنفاتها.

وعندما توفي السلطان المنصور الثاني قرّر البيروني الرحيل إلى جرجان حيث رحب به السلطان شمس المعالي، فطاب له المقام ومكث فيها بضع سنين، وفيها ألف كتابه الشهير الذي يحمل عنوان «الآثار الباقية من الأمم الخالية»، وأهداه إلى شمس المعالي الذي أكرم وفادته.

وشاءت الظروف السياسية والتقلبات أن يعود البيروني إلى خوارزم ليستقر هذه المرة في مدينة الجرجانية، العاصمة الجديدة، فرحب به أميرها وخصه بمنزلة رفيعة. ولكن من سوء حظ البيروني أن الأمور لم تستقر طويلاً على حالها، إذ استولى السلطان محمود الغزنوي على خوارزم؛ وكاد هذا العالم العبقرى البيروني أن يفقد حياته نتيجة ما سلطه السلطان محمود من بطش على العلماء. وبعد فترة من الزمن قرر السلطان أن ينظم حملات لغزو الهند، فطلب من البيروني أن يرافقه ليدون له شيئاً عن تاريخ الهند، وعادات أهلها ودياناتهم وعن جغرافية البلاد.

واستغل البيروني مدة استقراره في الهند فدرس لغات شعوبها وثقافتهم ومعتقداتهم وتقاليدهم، وعلى أساس هذه التجارب والمعلومات ألف مصنفاً هاماً جعل عنوانه «تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مردولة»؛ وإلى جانب ذلك ترجم إلى اللغة العربية عدداً من المؤلفات السنسكريتية.

لقد كان البيروني يتمتع بتفكير موسوعي أصيل، وبمعارف عالمية، فكان يعرف اللغات التركية، الفارسية، العبرية، السنسكريتية، السريانية، بالإضافة إلى اللغة العربية. وتناول بفكره الثاقب ومعارفه الواسعة

جميع علوم عصره، وأبدع بصفة خاصة في علوم الفلك والرياضيات والفيزياء والتاريخ والطب والفلسفة والجغرافيا واللغات وغيرها.

ومن أهم مؤلفات البيروني مصنفه الذي سبقت الإشارة إليه المعنون «الآثار الباقية من القرون الخالية» وهو عبارة عن تواريخ الأمم السالفة، تناول فيه المؤلف بالبحث والتمحيص تقاويم البلدان والأعياد عند الفرس واليونان واليهود والمسيحيين والزرذشتيين والعرب بطريقة جدية ونزيهة.

ومنها مصنفه «القانون المسعودي في الهيئة والنجوم» الذي أهداه إلى السلطان مسعود، سلطان غزنة، وهو عبارة عن موسوعة تناول فيها بالبحث علوم الفلك والرياضيات والجغرافيا والتنجيم.

وألف البيروني سلسلة من البحوث الهامة تناول فيها بالدرس والتحليل حضارات الهند ولغات شعوبها ومعتقداتهم... وهو المصنف الذي سبقت الإشارة إليه، ويعتبر من أهم مؤلفاته.

وقد تجاوزت مصنفات البيروني مائة من البحوث والرسائل والكتب تناول فيها موضوعات شتى من علوم عصره، فتحدث عن كروية الأرض وأكد أنها تدور حول محورها مرة كل يوم، وحول الشمس مرة في السنة؛ ووضع حسابات دقيقة لخطوط العرض والطول؛ وقد سبق هذا العالم العبقري عصره بأراء عديدة، فقال بأن وادي السند كان يوماً قاع بحر ثم غطته الرواسب؛ وبحث موضوع الجاذبية، وقال بأن الأشياء ثابتة على الأرض بفعل جاذبيتها؛ وبأن القمر جسم مظلم

يتلقى ضوءه من الشمس؛ وشرح مسألة تمدد المعادن في الحر، وانكماشها في البارد؛ وشرح كذلك كيفية تجمع مياه الآبار والمياه الجوفية وقوانينها الفيزيائية؛ ونجح في تحديد الثقل النوعي لـ 18 من الفلزات والجواهر بدقة؛ وأوضح بأن سرعة الضوء أكبر بكثير من سرعة الصوت؛ وشرح ظاهرة المد والجزر؛ وكيفية صعود مياه النافورات إلى الأعلى؛ وكتب عن أصناف الحجارة وشرح فوائدها؛ وله كتاب «الاستيعاب لصناعة الاسطرلاب»؛ وكتاب «نهايات الأماكن لتصحيح المساكن»؛ وبحوث أخرى في العلوم الطبيعية.

ابن سينا



هو أبو علي الحسين بن سينا (370 - 429هـ) ، (980 - 1037م)

ولد ابن سينا في بخارى (في أوزبكستان حالياً) ، حفظ القرآن ومعظم أشعار العرب ولم يتجاوز سن العاشرة؛ ثم عكف على دراسة قوانين الشريعة والطب والميتافيزيقا وغير ذلك من علوم عصره. وقد استفاد كثيراً في تحصيل العلوم عندما فتحت له مكتبة السامانيين بعد أن نجح في معالجة الأمير الساماني نوح بن منصور. وما إن بلغ سن الواحدة والعشرين حتى أصبح متمكناً من جميع فروع المعارف، وشاعت شهرته في ميدان الطب.

ولكن تغير مجرى حياته عندما أطاح الأتراك بحكم السامانيين، ومن كانوا يوفرون له الرعاية، ثم توفي أبوه، فاضطربت ظروف حياته. وأقام ابن سينا بعد ذلك فترة في بلاد فارس؛ ثم رحل إلى بلاط شمس الدولة في حمدان حيث أصبح طبيب البلاط، فحظى بترحاب يليق بمقامه، وأسندت إليه وظائف سامية. ولكن بعد فترة تأمر ضده الحاسدون فاضطر ابن سينا للفرار والاختفاء. وقضى هذا العالم الفذ المرحلة الأخيرة من حياته في أصفهان حيث لقي تكريماً ورعاية من الأمير علاء الدولة ومن رجال البلاط. وأثناء مرافقته للأمير في إحدى حروبه مرض ابن سينا، وتوفي في حمدان سنة 1037 ميلادية.

من مجموع مؤلفات ابن سينا مصنفان يعتبران أرقى ما وصل إليه الفكر العلمي والفلسفي في القرون الوسطى، هما:

- كتاب «الشفاء»، وهو موسوعة عظيمة واسعة من العلوم والفلسفة، ولعله أوسع دائرة معارف ألفها عالم بمفرده؛ وقد عالج ابن سينا فيها علوم المنطق، والفلك، والرياضيات، والهندسة، والعلوم الطبيعية، والموسيقى، وعلم النفس، وما وراء الطبيعة، وعلوم الدين، والاقتصاد، والسياسة، وتتكون هذه الموسوعة من 18 مجلداً.

- كتاب «القانون في الطب»، يعتبر هذا المصنف أشهر موسوعة (حتى ذلك العصر) في تاريخ الطب في الشرق والغرب. وقد شيد هذا العالم الفذ دائرة المعارف هذه لبنة لبنة، منطلقاً من علوم من سبقه من علماء اليونان والروم والعرب...، ولكنه اعتمد في تأليفها كذلك على معارفه الشخصية وتجاربه وأعماله التطبيقية الخاصة. وقد ترجمت هذه الموسوعة إلى لغات عديدة منها اللاتينية، وظلت مرجعاً أساسياً يعتمد عليه في تدريس الطب في المعاهد الأوروبية حتى أواخر القرن الثامن عشر.

بلغت مصنفات ابن سينا نحو 250 مصنفاً ورسالة وبحثاً ومقالاتاً، وشملت جميع علوم عصره، وعالجت موضوعات شتى، منها في الطب (على سبيل المثال لا الحصر) موضوعات تتعلق بوظائف الأعضاء، وبالغذية، وبتشريح الحيوان والإنسان، وبأمراض الالتهابات، وأسباب الشلل، وأمراض جهاز الهضم، والاضطرابات النفسية، وأمراض النساء، والسكتة الدماغية، وأمراض القلب، وغير ذلك كثير.

وكتب ابن سينا بحوثاً في الكيمياء والفيزياء؛ ومن بحوثه في هذه

الأخيرة «تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات»، وله بحوث هامة في علم النباتات وأصنافها وما يستخرج منها من عقاقير، ويرتبط هذا بما حققه في علم الصيدلة. ومن مصنفاة في الفلسفة «كتاب أقسام الحكمة» و«كتاب النجاة»، وله دراسات في المعادن، والطاقة، والحركة، والفرغ، والكثافة النوعية وغير ذلك. ومن آرائه في الكيمياء أنه فند الفكرة القائلة بإمكانية تحويل المعادن العادية إلى معادن نفيسة كتحويل الحديد مثلاً إلى ذهب. وتجدر الإشارة كذلك إلى أن ابن سينا كان عالماً لغوياً، وشاعراً.. ومن قصائده التي نالت شهرة واسعة، قصيدته عن «النفس الإنسانية» التي يقول فيها:

هبطت إليك من المحلّ الأرفع	ورقءاء ذات تعزّز وتمنع
وصلت على كرهه إليك وربما	كرهت فراقك وهي ذات تضجع
حتى إذا قرب المسير من الحمى	ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
هجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت	ما ليس يدرك بالعيون الهُجّع
وبدت تُغرّد فوق ذروة شاهق	والعلم يرفع كل من لم يُرفع
فلأبيّ شيء أُهبطت من شامخ	سام إلى قعر الحضيض الأوضع
فهبوطها إن كان ضربة لازب	لتكون سامعة بها لم تسمع
وتعود عالمة بكلّ خفيّة	في العالمين، فخرقها لم يُرقع
وهي التي قطع الزمان طريقها	حتى لقد غربت بغير المطلع

هذه لمحة موجزة لا تفي بحق هذا العالم الفذ الذي كان من أشهر العلماء والفلاسفة والأطباء في العالم الإسلامي. وقد ترجم كثير من مؤلفاته إلى لغات عديدة، وانتشرت معارفه وتعاليمه شرقاً وغرباً، وظلت مؤلفاته تشكل مصادر ومراجع أساسية للتعليم في أوروبا خلال القرون الوسطى، عندما كانت بلاد الغرب ترزح تحت وقائع الجهل والتخلف.

عمر الخيام



هو أبو الفتح عمر الخيام بن إبراهيم 440 - 526 هـ (1048-1131م)

ولد عمر الخيام في نيسابور (شمال غرب إيران) سنة 440 هجرية؛ ويعتبر من كبار علماء الفلك والرياضيات وعلم الجبر. وقد ألف في الرياضيات، باللغة الفارسية، رسالة عنوانها «مقالة في الجبر والمقابلة»، كما ألف في علم الفلك؛ واستطاع أن يحل مشكلات رياضية منها معادلات من الدرجة الثالثة. وقد ترجمت كتبه في الجبر إلى اللغة الفرنسية.

وقد دعاه السلطان ملك شاه إلى العمل على إصلاح التقويم الفارسي، فاستطاع أن يدخل عليه تعديلات فأصبح أدق من التقويم الغريغوري، بحيث لا يتجاوز الخطأ فيه يوماً واحداً في مدة 3770 سنة.

وقد انتشرت شهرة عمر الخيام بما ينسب إليه من «رباعيات» أكثر من شهرته العلمية. والواقع أنه توجد رباعيات كثيرة باللغة الفارسية يُنسب عدد منها إلى عمر الخيام. وفي سنة 1859 ميلادية ترجم الإنكليزي إدورد فِتْسَغِيرَالْدُ رباعيات عمر الخيام من الفارسية إلى اللغة الإنكليزية، فانتشرت شهرة الخيام في الغرب، وترجمت بعد ذلك إلى لغات أخرى، ومنها إلى اللغة العربية على يد أحمد رامي، وإبراهيم العريض وغيرهما.

وصف عمر الخيام بأوصاف كثيرة، قيل أنه عالم بارع، فذ في الفلك والرياضيات، وأنه فيلسوف وشاعر، ومادي متمرد، وأنه رجل تعس سيئ الأخلاق، وأنه ملحد يسخر من الفقهاء، وأنه متأثر بأراء المعري وابن سينا، وأنه يؤمن بالنزعة الجبرية، وأنه لا يؤمن بالآخرة... ولعله وجد أن سلوته في الحياة في المطالعة والدرس، وشيء من المتع والملذات؛ ولعل ما تردد في شعر عمر الخيام من أحاديث اللهو والخمر والسخرية من الحياة إنما هي صور من خيال الشعراء، يرافقها شيء من المبالغة.

الإدريسي



هو محمد بن عبد الله بن إدريس (الشريف) 493 - 560هـ -
(1100 - 1165م).

ولد الشريف الإدريسي بمدينة سبته الواقعة شمال المغرب الأقصى. ثم رحل وهو شاب لمواصلة دراسته إلى قرطبة حاضرة العلم والمعارف، وكانت عندئذ تحت حكم المرابطين. وبدأ يركز اهتمامه على الجغرافيا ورسم الخرائط. ثم قام برحلات إلى بلدان عديدة لجمع المعارف الجغرافية، منها بلدان شمال إفريقيا، فرنسا، بريطانيا، مصر والشام وغيرها.

انتهى به المطاف إلى بلرم (عاصمة صقلية)، فوجد لدى ملك صقلية، روجر الثاني، كل الترحيب والتقدير. وكان الملك مهتمًا بعلم الجغرافيا والخرائط، فاستجاب الإدريسي لرغبته، وراح يجمع المعلومات من مختلف الأقطار والأمصار. وبعد سنوات من الجد والجهد انتهى من تأليف مصنفه الذي يحمل عنوان «نزهة العشاق في اختراق الآفاق» والذي أصبح يعرف كذلك بكتاب «روجاري» الملك الذي أكرم وفادة العالم وأحسن ضيافته، وقسم الإدريسي الأرض إلى سبعة أقاليم تمثل العالم المعروف لديه، ورسم لكل إقليم خريطة توضيحية، ونقش خرائطه على كرة فضية ضخمة صنعها له الملك روجر الثاني؛

وأصبح مصنف الإدريسي وخرائطه على الكرة الفضية يعتبر أعظم إنتاج جغرافي في القرون الوسطى؛ ورسم العالم خرائطه على أساس أن الأرض كروية الشكل في عهد كان الناس يعتقدون أنها مسطحة. وظل هذا الكتاب مرجعاً هاماً للعلماء في أوروبا طيلة قرون يقلدون خرائطه ويترجمون محتوياته، ويستفيدون منها في اكتشافاتهم.

وللإدريسي مؤلفات أخرى منها «روض الأنس ونزهة النفس»، الذي اشتهر كذلك تحت عنوان «المسالك والممالك»؛ وله كتاب في النبات عنوانه «الجامع لصفات أشجار النبات» وصف فيه 360 نوعاً مختلفاً منها؛ وله كتاب «جني الأزهار من الروض المعطار». وقد اهتم الغربيون بمؤلفات الإدريسي فترجمت إلى لغات عديدة.

ابن طفيل



هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل 500 - 581 هـ
(1106-1185م).

ولد ابن طفيل في وادي آش قرب مدينة غرناطة بالأندلس عام 500 هجرية؛ اهتم في مطلع حياته بدراسة الأدب والفلسفة والطب، وحصل قدرًا وافراً من العلوم المتوفرة في عصره مثل الفلك والرياضيات. وامتهن الطب، وشغل منصب وزير في غرناطة؛ وكان معلماً للفيلسوف الشهير ابن رشد؛ كما شغل منصب أمين السر للأمير أبي سعيد أحد أولاد عبد المؤمن بن علي الموحد، عندما كان أبو سعيد والياً على سبتة وطنجة.

ويروى أن ابن طفيل كان يحيا حياة هادئة راضية، قليل الاختلاط بالناس، أشبه بحياة العالم المتصوف. وقد ألف مصنفات ورسائل في الرياضيات، والطب، والفلك، والفلسفة وغيرها، وكان في مؤلفاته يمزج بين الفلسفة الشرقية واليونانية.

وفي عام 1154 ميلادية وفد برفقة تلميذه ابن رشد على بلاط أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في مدينة مراكش حاضرة الدولة الموحدية، وأوصى ابن الطفيل السلطان أبا يعقوب بتعيين ابن رشد خلفاً له في مهمة طبيب البلاط؛ غير أن السلطان أبا يعقوب استجاب

لرغبة ابن رشد فأعفاه من هذا المنصب، وعينه في مهمة قاضي، وهي المهمة التي كان قد شغلها أبوه وجده قبله في مدينة قرطبة.

تشير المراجع إلى أنه لم يصلنا من مؤلفات ابن طفيل غير قصته الشهيرة التي تحمل عنوان «حي بن يقظان»، وهي قصة فلسفية خيالية، وتعتبر أعظم قصة كتبت في القرون الوسطى. وكان الفيلسوف العظيم ابن سينا قد ألف رسالة صوفية تحت عنوان «حي بن يقظان»، فاستعار ابن طفيل هذا الاسم وجعله عنواناً لقصته «حي بن يقظان».

وربما اقتبس الكاتب الانكليزي Defoe⁽¹⁾ قصته Robinson Crusoe من قصة ابن طفيل التي ترجمت إلى عدة لغات.

ومن المفيد الإشارة إلى أن هذه القصة «حي بن يقظان» تعالج العلاقة بين العقل والعقيدة، وبين الفلسفة والدين، وبين التفكير والنظر والاعتبار وتعاليم الشرائع السماوية. وتوضح القصة بأن من الناس من يصل إلى حقيقة التوحيد بالفطرة والتأمل، ولكن أكثرهم لا يدركون الحقائق الإلهية والآيات السماوية إلا بواسطة الوحي المنزل والرسالة النبوية لأنهم يحتاجون إلى المعجزات الملموسة، وضرب الأمثال، وقصص الأولين، وإلى الوعظ والإرشاد، والوعد والوعيد. وتستنتج قصة «حي بن يقظان» أنه لا يوجد تعارض بين الدين والعقل، ولا بين الوحي المنزل والفلسفة، ولا بين التفكير الفطري السليم وبين التعاليم والمبادئ العقائدية التي جاء بها الرسول ﷺ.

(1) ولد Defoe 1660 ، وتوفى 1731 ميلادية.

ملخص القصة :

تخيل الفيلسوف ابن طفيل أن طفلاً سماه «حي بن يقظان» عاش وحيداً في جزيرة نائية خالية من السكان، واستطاع أن يدبر ضروريات حياته مما وفرته تلك الجزيرة السخية من خيرات. وترعرع الطفل وانسجم مع ما يحيط به من نباتات وأشجار وحيوانات. وكان لا ينفك يتأمل في عالمه الصغير، وفي العوالم والأجرام البعيدة، ويطلق العنان لخياله ليتجول في ملكوت الأرض والسموات. وتوصل بتفكيره العميق وتأملاته الثاقبة إلى ما يتوصل إليه الفيلسوف بين المكتبات والبحوث والمصنفات، وما يتوصل إليه الصوفي في خلوته وتأملاته، فأيقن أنه لابد من وجود خالق حكيم قادر، هو خالق جميع ما يشاهد من مخلوقات في الأرض والبحر والسماء.

وعندما بلغ نحو خمسين سنة من العمر، حدث أن انتقل حي بن يقظان إلى جزيرة أخرى غير بعيدة، مأهولة بالسكان، فعرف لأول مرة بوجود مخلوقات تشبهه. وهناك التقى برجلين أحدهما يدعى سلامان، والآخر أبسال. كان الأول يعلم الناس رسالة الإسلام بالطريقة التقليدية، بواسطة سرد القصص، وضرب الأمثال، وتوضيح الرموز الملموسة، وبالوعظ والوعد والوعيد...

أما الرجل الآخر، وهو أبسال، الذي كان يفضل طريقة الاعتبار والتأمل الروحي في شؤون الخالق ومخلوقاته، فقد توصل إلى الحقائق الإلهية التوحيدية كما جاءت بها الرسائل السماوية. وأدرك حي بن يقظان أن الطريقة التي تبها سلامان، أي طريقة الوعظ والتبشير

والتحذير... تؤدي إلى نفس النتيجة التي توصل إليها أسال وهو يعيش وسط المجتمع؛ وأدرك أن ما توصل إليه الرجلان، وهما يعيشان وسط الناس، لا يختلف عما توصل إليه وهو الذي قضى خمسين عاماً منعزلاً عن الناس، فالنتيجة واحدة، رغم تباين الطرق والظروف، وهي وجود خالق واحد لهذه الحقائق الكونية، وهي في نهاية المطاف رسالة:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣)
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ (سورة الإخلاص).

ولكن حي بن يقظان تساءل: لماذا ينبغي للأنبياء والرسل والوعاظ والأئمة أن يبذلوا كل هذه الجهود لهداية الناس إلى الصراط المستقيم؟ وحاول أن يختلط بعامة الناس لعله يعلمهم أسرار الحكمة الفطرية التي اهتدى بها وهو منعزل في جزيرته. ولكنه في نهاية المطاف أقر بأن عامة الناس غير مؤهلين لإدراك الحقائق المجردة والاكتفاء بالتأمل، وأنه لابد لهم أن يكتسبوا المعرفة من التعاليم السماوية التي جاء بها الرسل وذلك عن طريق الوعظ والإرشاد والآيات والمعجزات. وأقر بالحكمة الإلهية العليا التي اقتضت أن ينزل الوحي ليخاطب الرسل الناس عامة بالأساليب التي يدركونها كل بما يناسب مستواه.

ثم عاد حي بن يقظان، وصديقه أسال، إلى الجزيرة المنعزلة المباركة ليواصل حياتهما الهادئة، حياة العبادة والتأمل ومناجاة القوة السامية في العالم العلوي، ويسعدان بنعمة الإيمان، في ظلال الطبيعة البريئة، بعيداً عن ضوضاء الناس ونزاعاتهم.

ابن رشد



هو محمد بن أحمد بن رشد، وكنيته ابن الوليد . 520 - 595 هجرية (1126 - 1198 ميلادية).

ولد بمدينة قرطبة، وكان أبوه قاضياً بها، وينحدر من أسرة عريقة في العلم والأدب. يروى أن الفيلسوف ابن الطفيل قدمه إلى الأمير أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن سنة 548 هجرية، وكان هذا الأمير معجباً بالفلسفة ويكرم العلماء. سأل الأمير ابن رشد أثناء هذا اللقاء الأول: ما رأي الفلسفة في السماء، أهي قديمة أم حديثة؟ فاحتار ابن رشد في السؤال المفاجئ، وخشي أن يفضب جوابه الأمير، فتردد قليلاً متظاهراً بأنه لا يهتم كثيراً بالفلسفة. ثم أبدى الأمير رأيه في الموضوع فاطمأن ابن رشد وأخذ يدلي برأيه بثقة.

تولى ابن رشد مهمة القضاء في إشبيلية، ثم في قرطبة، ثم استقر في مدينة مراكش عندما طلب منه السلطان يوسف بن عبد المؤمن أن يكون طبيبه الخاص. وقد كان ابن رشد إلى جانب نبوغه في الفلسفة، من أعظم أطباء عصره.

كان الفيلسوف ابن رشد معجباً بالفيلسوف اليوناني أرسطو، وكان يرى أنه أسمى صورة تمثل فيها العقل البشري، فدرس فلسفته وأظهر براعة كبيرة في تحليل أفكاره، وأعد ملخصات وشروحاً من

مؤلفات أرسطو، المعلم الأول، جعل منها ملخصات موجزة للطلبة
المبتدئين في الفلسفة، وأخرى شروحاً وتعليقات موسعة للطلبة المتقدمين.

وبالإضافة إلى انشغاله بالفلسفة ألف ابن رشد مصنفات في
الطب، والمنطق، والشريعة، وعلم النفس، والطبيعة، والفلك، وما وراء
الطبيعة، وعلوم اللغة. ومن مؤلفاته :

- «الكليات في الطب» الذي ترجم إلى اللغة اللاتينية، وحظى
بانتشار واسع في أوروبا.

- «تهافت التهافت» الذي ردّ فيه على مصنف الإمام الغزالي
المعنون «تهافت الفلاسفة».

- «بداية المجتهد ونهاية المقتصد».

- «مناهج الأدلة في عقائد الملة».

- «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال».

وحدث أن نقم بعض الفقهاء على آراء ابن رشد وما تميزت به من
حرية التفكير، فاتهموه بالزندقة، وثاروا عليه... وكان السلطان أبو
يوسف يعقوب المنصور في حاجة إلى إرضاء الفقهاء، فأبعد ابن رشد
إلى مدينة «أليسانه» بالقر بمن قرطبة، وأمر بإحراق كتبه سنة 1194،
مستثنيًا منها مصنفات الطب والفلك والرياضيات. ولكن بعد أن هدأت
الأوضاع دعا السلطان ابن رشد إلى بلاطه في مراكش، حاضرة
الموحدين، غير أن الفيلسوف ابن رشد كان قد بلغ من الكبر عتياً، فلم
يعمر طويلاً بعد ذلك، ووافته المنية عام 1198، ودفن في مراكش.

يعتبر ابن رشد من أعظم فلاسفة الإسلام، وكذلك كان لمؤلفاته تأثير كبير على الفلاسفة الأوربيين. وقد تأسست مدرسة في أوروبا عرفت باسم «المدرسة الرشدية» جمعت عددًا من فلاسفة أوروبا كانوا يستوحون المعارف من الملخصات والشروح التي وضعها ابن رشد لفلسفة أرسطو. ويلاحظ أن التعاليم العقائدية في أوروبا قبل عهد ابن رشد لم تكن تسمح بتدخل الفلسفة في قضايا الدين المسيحي. غير أن الفيلسوف الإسلامي ابن رشد استطاع بشروحه البارعة وتحليله العميق لفلسفة أرسطو أن يحدث تأثيراً كبيراً على علماء اليهود والمسيحيين فيما يتعلق بالعلاقة بين الدين والفلسفة، إذ كان لا يرى تناقضاً بينهما، بل أكد أنه يمكن التوفيق بينهما إذا تعمق الباحث في إدراك المقاصد النهائية السامية التي يهدف إليها كل من الدين والفلسفة.

يرى ابن رشد أن الفلسفة تسعى إلى البحث في حقائق الوجود بهدف توسيع مدارك الإنسان ومساعدته على فهم ما خفى من أسرار الكون وتعاليم الديانات؛ ويقول: إن اكتساب قدر قليل من الفلسفة قد يؤدي بالإنسان إلى البلبلة والإلحاد. ولكن البحث العميق فيها يؤدي إلى التفاهم والاتلاف بينها وبين الديانات.

ويشير ابن رشد إلى أن تفسير النصوص الدينية تفسيراً رمزياً يساعد على التوفيق بين كثير من التعاليم العقائدية وبين ما تكتشفه الفلسفة من آراء حول الكون والمخلوقات. ويرى أن دراسة الفلسفة قد تكون ضرورية إذا كانت تساعد على معرفة مقاصد الدين الإسلامي، والوصول إلى أسراره من أجل اكتشاف المعرفة الحقة؛ وأن الفيلسوف

الحكيم لا يكتب ما يعارض الدين، ولا ينطق بما يستهين بالعقائد، لأن الدين السليم ضروري لأنه يعمق التقوى في النفوس. وهذا الحكيم يحدث الناس بما يناسب مستوى تفكيرهم، ويجعل لكل مقام مقالاً.

ويقول ابن رشد في كتابه المعنون «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال»: «فإما أنَّ الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بالعقل، وتطلب معرفتها به، فذلك في غير ما آية من كتاب الله تبارك وتعالى مثل قوله ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر - الآية رقم 2)، وهذا نص على وجوب استعمال القياس العقلي، أو العقلي والشرعي معاً؛ ومثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف - الآية رقم 185)، وهذا نص بالحث على النظر والاعتبار في جميع الموجودات».

ويضيف ابن رشد: «وإذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها، وكان الاعتبار ليس شيئاً أكثر من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه، وهذا هو القياس، فوجب أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي. وبيِّن أن هذا النحو من النظر الذي دعا إليه الشرع، وحثَّ عليه، هو أتم أنواع النظر بأتم أنواع القياس، وهو المسمى برهاناً».

ابن البيطار



هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن البيطار. 596 - 646هـ
(1199 - 1248م).

يعتبر ابن البيطار أعظم علماء عصره في علم النبات والصيدلة. فقد اهتم منذ نعومة أظفاره بدراسة ما خلفه العلماء المسلمون وغيرهم من معارف علوم النباتات والطب وصناعة الأدوية، وكان يقوم ببحوثه بجدية، ويجري تجاربه متوخياً المنهج العلمي السليم.

ولد ابن البيطار بمدينة ملقا بالأندلس، ثم أقام بالمغرب فترة، ومنها قرر أن يسافر إلى بلاد الروم واليونان، ومصر، وسوريا وغيرها ليكتشف الحشائش والنباتات في بيئتها. وأثناء إقامته بمصر أوكل إليه الملك الكامل مهمة الإشراف على هيئة المسؤولين عن الصيدلة وإعداد العقاقير؛ ولما انتقل إلى دمشق أسندت إليه نفس المسؤولية.

وقد ألف ابن البيطار مصنفات أهمها كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» الذي يعتبر أضخم مصنف في ميدان النبات والأعشاب والصيدلة في عهده، يقع في أربعة أجزاء. وقد ضمنه المؤلف نحو 1500 نوعاً من أنواع النباتات، 300 منها لم يرد ذكرها في المؤلفات السابقة لغيره. واهتم ابن البيطار بتحليل هذه الأعشاب والنباتات، ووصف خصائصها الكيميائية، وفوائدها العلاجية

والغذائية. وكان هذا العالم يتوخى في بحوثه وتحاليه الدقة والتجربة والمنهاج العلمي.

ومن ناحية أخرى يعتبر هذا المصنف الضخم «الجامع» تاريخاً للطب النباتي، وقد ترجم إلى لغات عديدة منها اللاتينية، والفرنسية، والألمانية، وظل مرجعاً أساسياً في أوروبا حتى القرن السادس عشر.

ومن مؤلفات ابن البيطار :

كتاب «الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام»؛

وكتاب «الأفعال العجيبة والخواص الغريبة»؛

وكتاب «المغني عن الأدوية». وغيرها.

توفي هذا العالم الفذ في دمشق سنة 1648 ميلادية.

ابن خلدون



هو عبد الرحمن محمد بن خلدون 732-808هـ (1332 - 1406م).

قبل سقوط مدينتي إشبيلية وقرطبة بيد الأسبان، قرر أجداد ابن خلدون أن يرحلوا إلى جزيرة سبته في شمال المغرب سنة 1248 ميلادية، ثم اختاروا أن يقيموا في تونس، وفيها ولد عبدالرحمن بن خلدون عام 1332 ميلادية؛ وفي سنة 1349 ميلادية اجتاح تونس وباء شديد أودى بحياة والديه. حفظ ابن خلدون القرآن، ودرس التفسير وعلوم الشريعة والأدب العربي وعلوم التاريخ والفلسفة وغيرها.

قضى ابن خلدون معظم حياته في بلدان تسودها الاضطرابات والنزاعات والثورات، وكثيراً ما كان يضطر للتقل من قطر إلى آخر بحثاً عن السلامة والاستقرار، وفراراً من المنافسين والحساد والمتآمرين الذين يسعون للإيقاع بينه وبين الأمراء والحكام؛ وفي كل بلد يجلّ به كان يلقي الترحاب والرعاية، ويولى مناصب عالية. وقد ساعدته أسفاره على اكتساب التجارب والمعارف والخبرات التي أفادته في كتاباته.

عمل ابن خلدون كاتباً لابن إسحاق سلطان تونس؛ وكذلك شغل منصباً هاماً لدى أبي عنان سلطان فاس؛ ثم رحل إلى غرناطة وأرسله حاكمها سفيراً له لدى حاكم إشبيلية؛ وبعد فترة رجع إلى شمال

إفريقيا وشغل منصب الوزير الأول لدى أمير بجاية أبي عبد الله؛ بعد ذلك لجأ إلى قلعة أمير عربي يدعى ابن سلامة (وهي قلعة تقع قرب مدينة فرندا بالجزائر) سنة 1375 ميلادية، بحثاً عن الوحدة والهدوء، وأقام في هذه القلعة أربع سنوات، وفيها ألف مقدمته الشهيرة؛ ثم عاد إلى تونس حيث قضى فترة من الزمن؛ وانتقل بعد ذلك إلى القاهرة سنة 1384 ميلادية حيث اشتغل بالتدريس في الجامع الأزهر، وعهد إليه السلطان برقوق بمهمة القضاء على طريقة المذهب المالكي.

واستطاع ابن خلدون أن يؤدي فريضة الحج، ورحل بعد ذلك لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، ولو حظ أثناء زيارته هذه أنه زار الكنيسة التي ولد فيها المسيح عليه السلام في بيت لحم، كما زار مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام في مدينة الخليل، ولكنه امتنع عن زيارة المكان الذي يزعم أنه صلب فيه المسيح عليه السلام.

وحدث أنه عندما حاصر تيمورلنك، قائد التتر، مدينة دمشق أن ابن خلدون كان مقيماً فيها، فخرج في جمع من وجهاء المدينة للتفاوض مع تيمورلنك الذي سمح بعد ذلك لابن خلدون أن يخرج من المدينة المحاصرة ليعود إلى مصر. وقضى هذا الرجل العظيم بقية حياته في القاهرة حتى وفاه الأجل سنة 1406 ميلادية.

كان هذا العالم الفيلسوف والمؤرخ الاجتماعي يشعر في أواخر حياته أنه يعيش في عهد وصل إلى مفترق الطرق، طريق يؤدي إلى غياب شمس الإسلام وحضارته في الأندلس، وطريق آخر يشير إلى أن أوروبا بدأت تستيقظ من سباتها العميق خلال القرون الوسطى.

توفي ابن خلدون ولكن اسمه ظل لامعاً في سماء المعرفة، في الشرق والغرب؛ وقد أحاطت معارفه بجوانب شتى من علوم عصره، وامتاز إلى جانب ذلك بحدة ذكائه، وبقدرته على دقة الملاحظة، وعلى تحليل الأفكار والإلتزام بالموضوعية في نقده.

ألف ابن خلدون في موضوعات شتى، في فلسفة التاريخ، وعلم الاجتماع، والنقد التاريخي، وله أبحاث في المنطق، وموجز في فلسفة ابن رشد، وكتب في الفلك، واللاهوت، والصوفية وغير ذلك.

وأهم مؤلفاته هو مصنفه الذي يحمل عنوان «كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر». ويقع في سبعة مجلدات، أولها «المقدمة» التي تعتبر من أعظم ما ألف في موضوع فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع حتى عصر المؤلف؛ وعليها تأسست شهرة ابن خلدون، وقد تناول فيها بالبحث والتحليل موضوعات العمران، والجغرافيا الاقتصادية وتأثير البيئة والمناخ على حياة البشر وسلوكهم وأخلاقهم وملامحهم وغير ذلك من قوانين العمران البشري. ويعتبر هذا العالم أول من ألف في علم الاجتماع، ووضع نظريات جديدة واقعية وسليمة في هذا العلم. وقد اعترف عدد من علماء الغرب بأهمية مقدمة ابن خلدون، منهم المؤرخ الانكليزي الشهير A.Toynbee الذي قال: إن ما أنتجه ابن خلدون في موضوع فلسفة التاريخ هو من دون شك أعظم عمل من نوعه يمكن أن ينتجه فكر في أي زمان ومكان». وقد عثرتُ على شهادة أخرى سجلها عالم يدعى R.Flint قال فيها: «إن ما كتبه ابن خلدون

في موضوع فلسفة التاريخ ليس له ما يعاد له في أيّ بلاد أو زمان، إلى عهد فيكو⁽¹⁾؛ بل إن أفلاطون وأرسطو والقديس أوغستين لم يبلغوا مستواه في هذا الموضوع». وقد سبق ابن خلدون بنظرياته في علم الاجتماع العالم الفرنسي أوغست كونت الذي يزعم الغربيون أنه مؤسس علم الاجتماع. ومما قاله ابن خلدون عن «علم العمران»: إن لهذا العلم موضوعاً خاصاً به ، هو المجتمع البشري ، ومشكلاته، أعني التحولات الاجتماعية التي يتلو بعضها البعض الآخر، ضمن طبيعة المجتمع نفسه». ويشير أحد الكتاب إلى أن «الباب الأول من المقدمة يبحث موضوع علم الاجتماع العام؛ والباب الثاني والثالث يبحثان موضوع علم الاجتماع السياسي؛ والباب الرابع موضوع علم الاجتماع الحضري؛ والخامس علم الاجتماع الاقتصادي؛ والسادس علم الاجتماع المعارفي».

(1) فيكو : هو Vico Giambattista ، 1668 - 1744 (نابولي).

استنهاض الهمم



استنهاض الهمم



جاء الإنسان إلى العالم ليضيف إليه شيئاً جديداً مفيداً للبشرية، وليس فقط ليأخذ منه. فماذا أضفت أيها الشاب، أيها الكهل، أيها الإنسان؟ ماذا أضفت إلى هذه الحياة؟ ماذا قدمت لنفسك، لأسرتك، لبلدك، للبشرية من خير؟

جاء في الحديث الشريف: «إغتتم خمساً قبل خمس؛ حياتك قبل موتك؛ وصحتك قبل سقمك؛ وفراغك قبل شغلك؛ وشبابك قبل هرمك؛ وغناك قبل فقرك».

المستقبل ابن الحاضر، فخطط له بواقعية؛ والحاضر سلم المستقبل فاستغله بحكمة وجدية. وعملك هو جنسك وأصلك وملجؤك، فأنجز جميع أعمالك بحماس فهو زيت الحياة وعجلة النجاح. إنما يفتح المستقبل ذراعيه لذوي العزم والإرادة والمثابرة والعمل الجدي ممن يقدر على مواجهة الصعوبات وتحدي العراقيل بثقة وجرأة وحماس.

يقول المخترع الشهير، العالم أديسون «ليس الحظ هو الذي أنتج الإلياذة والأوديسة، ولا مسرحيات شكسبير...» ولم يكن مجرد الحظ وراء ما نشاهد من إنجازات عظيمة؛ بل وراء ذلك سنوات طويلة من العمل الجدي والدراسات والبحوث العميقة والمثابرة والعزيمة والطموح وعلو الهمة.

ولنستمع إلى شاعر الحياة والشباب والطموح، الشاعر أبي القاسم الشابي يسأل الأرض قائلاً:

«أيا أم هل تكرهين البشر؟»

فتجيبه:

أبارك في الناس أهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر
وألعن من لا يماشي الزمان ويقنع بالعيش عيش الحجر
هو الكونُ حيٌّ يحب الحياة ويحتقر الميت مهما كبر
فلا الأفق يحضن ميت الطيور ولا النحل يلثم ميت الزهر

وحول موضوع استنهاض الهمم، والحث على طلب العلم واكتساب المجد يقول الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري:

بقدر الجِدِّ تكتسبُ المعالي ومن رام العلاء سهر الليالي
تروم المجد ثم تنام ليلاً يغوص البحر من طلب اللآلي
ومن طلب العلوم بغير كدٍّ أضاع العمر في طلب المحال
ويجدر التذكير بأنه ليس من الضروري أن يكون المرء عالماً فذاً، أو مخترعاً عبقرياً، أو قائداً فاتحاً ليبلغ مستوى النجاح والتفوق والمجد؛ بل كثيراً ما يكون الفرق بين النجاح والفشل في الجهد المتواصل، والعمل الدؤوب، والثقة الصامدة، والأهداف الواضحة، إذ ليس من السهل أن يقود المرء مركب حياته في طريق مبهم أو ليل مظلم. فمن متطلبات النجاح أن يفكر المرء بوضوح وتبصر، وأن يستغل مواهبه وإمكانياته في المجال المناسب لها.

لا شك في أن مفتاح النجاح الأساسي هو العلم، وسبيله الأوحى هو العمل. العلم والعمل، وما أدراك ما العلم والعمل! إنهما جناحا الطائر

الذي لا يمكنه أن يخلق بواحد منهما. فالعلم بدون عمل كشجر بلا غلال، أو نحل بلا عسل، أو سحابة بدون مطر. فالعلم والعمل هما اللذان نقلنا الإنسان من العصر الحجري إلى عصر غزو الفضاء.

العلم والعمل ركيزتان يشيد عليهما نجاح الأفراد وقوة الشعوب؛ إنهما أساس كل حضارة مزدهرة. ولكن لا بد أن ترافقهما صفات تضمن بلوغ الأهداف المنشودة. ومن هذه الصفات المثابرة، والجد، والشجاعة، والحماس، والطموح، وعلو الهمة. وكما جاء في قول الشاعر العظيم أبي الطيب المتبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتكبر في عين الصغير صغارها

وتصغر في عين العظيم العظائم

ويقول شاعر آخر :

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطر

ولا ينال العلا من قدم الحذر

وجاء في قصيد لأمير الشعراء أحمد شوقي :

وما نيل المطالب بالتمني

ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

كما ينبغي للعمل أن يؤسس على التخطيط السليم، والرأي السديد،

والبحث الواقعي، وأن يتجنب المرء التهور والمغامرة، لكي لا تنتهي جهوده بالخيبة والفشل، «فالرأي قبل شجاعة الشجعان كما قال المتنبّي:

ومن الصفات التي ينبغي أن تلازم العالم في دراساته وبحوثه الحماس، وقوة الإرادة، والرغبة في بلوغ الهدف. ولا فائدة في أن يكون المرء موهوباً إذا لم تحقق نظرياته إنجازات ملموسة، ولم تأت بنتائج لصالح البشرية. وكما يقول أحمد شوقي:

وما استعصى على قوم منال

إذا الأقدام كان لهم ركابا

ومن الأقوال السائرة في الحضّ على العمل: العمل منقوش على الصخر، والأمل مخطوط على الرمل؛ الجِدّ في الجِدِّ والحرمان في الكسل؛ وأفضل طريقة لقتل الوقت هي أن تهكّه بالعمل؛ ولا بد دون الشهد من إبر النحل؛ والعمل نصف العبقرية؛ والمعرفة ليست للزخرفة بل للإنتاج؛ ولا يكفي للعلم أن ينير الفكر، بل ينبغي أن يحفز الإرادة للعمل؛ ولا يكفي أن نتعلم كيف نتج، بل ينبغي كذلك أن نتعلم كيف نبدع لنحسن ظروف الحياة.

ومسك الختام أن نختم هذا الموجز بآيات من الذكر الحكيم. ومن يتصفح كتاب الله يجد أن كلمة «عمل» ومشتقاتها تحظى باهتمام كبير. ومن هذه الآيات الكريمة:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾

(سورة النور، الآية 55).

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الأنعام، الآية 132) .

﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ (سورة يس ، الآية 25).

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسُنَ مَثَابٌ ﴾ (سورة الرعد ، الآية 29).

لعله من المفيد لاستنهاض الهمم أن أسجل نبذة من سير عدد من الأشخاص الذين تركوا بصماتهم على سجل التاريخ. ولكن لا بد من الملاحظة أن سير هؤلاء العظماء لا تخلو من الأخطاء والسيئات، ولكن علينا أن نركز على ما في إنجازاتهم من تجارب إيجابية ساعدت على إثراء الفكر وتوسيع مجالات الحضارة، وعلى دفع الشعوب خطوات نحو التعارف والتحاور من أجل حياة أفضل.

وعسى أن يحرص الشباب على قراءة سير العظماء لأن فيها من المواعظ والتجارب ما يوقظ الخاملين والكسالى، ويبعث الحماس في نفوسهم. ولعل في ذلك ما يحفز الشباب إلى هجر العادات المنفرة والتقاليد المزعجة، وما يعيشون فيه من انحلال وراثته عن الغرب. وعسى أن يساعد الاطلاع على تاريخ حياة العظماء شبابنا وفتياتنا على الخروج من الأنانيات الضيقة، والحرص على اكتساب العلم ثم استغلاله وتطبيقه في ميادين العمل الذي يساعد على إخراج شعوبنا من الظلمات إلى النور.

الاسكندر المقدوني (356 - 323 ق.م) :

ارتقى الاسكندر المقدوني العرش وسنه لا يتجاوز العشرين عاماً، وذلك بعد وفاة أبيه فليب المقدوني. واستطاع أن يقضي على فتن القبائل، وعلى جميع من ثاروا ضده؛ واستولى على بلاد اليونان. ثم عقد العزم على غزو بلاد فارس.

كان الاسكندر ذكياً، مثقفاً يحب الأدب والفن والموسيقى والرياضيات والفلسفة. وكان يجيد الألعاب الرياضية، والصيد، والفروسية، والمبارزة. وإلى جانب ذلك كان شجاعاً، يحب المغامرة، ويتحمل الأعباء الشاقة. كان يحب جنوده، ويصدق الوعد، ويقدر الصداقة؛ وكان قائداً عظيماً وجندياً باسلاً، وإدارياً حازماً، يقدر العمل والنظام، وإن كان يجنح أحياناً إلى اللهو ليهدئ من أعصابه، كما يروى.

كان الاسكندر شخصية ديناميكية قوية طموحة، جمع بين إرادة حديدية، وقدرة عظيمة على دفع نفسه ورجاله إلى أقصى درجات التحمل؛ ولكنه كان كذلك متواضعاً، مرناً، مخلصاً، وكريماً في معاملاته، فاستطاع أن يحافظ على ولاء رجاله أثناء أشد ظروف الحرب قساوة. وكان دوماً يضع نصب عينيه سير العظماء وإنجازاتهم، فأصبح من أعظم القواد الذين عرفهم التاريخ.

استطاع الاسكندر أن يقود جيشاً قوامه ثلاثين ألف مشاة، وخمسة آلاف من الفرسان، وعقد العزم على محاربة الفرس. بدأ مسيرته التاريخية سنة 334 ق.م. وعمره لا يتجاوز 22 عاماً. فاستولى على سوريا، وفلسطين، ومصر، حيث رسم خطة لبناء مدينة

الاسكندرية، وحرص، وهو فى مصر، على أن يعترف كهنة مصر بأنه ابن الإله أمون.

واصل الاسكندر زحفه شرقاً نحو آسيا، فانتصر على ملك الفرس داريوس الثالث، واستولى على مدن كثيرة مثل بابل، والسوس، وبرسيبوليس...؛ وعبر نهر السند، وبلغ جبال الهملايا. وكان كلما احتل بلداً نظم حملات يعلن فيها أنه إنما جاء ليحرر الفلاحين، وينقذ التجار من الضرائب، ليكسب ترحيب السكان. وكان يعمل على استرضاء أشرف الفرس من أجل أن يستخلفهم في إدارة بلادهم؛ وقد زوج الآلاف من جنوده بنساء البلاد التي فتحها؛ وشيّد مدناً يقول المؤرخ بلوتارخ أنها تجاوزت سبعين مدينة.

قضى الاسكندر على الدويلات، وعمل على ازدهار التجارة بين الشرق والغرب، ومهد السبيل لقيام حضارة إغريقية على نطاق واسع؛ وعلى الرغم من أنه لم يحكم إلا فترة قصيرة، فقد ترك حكمه آثاراً حاسمة على العلاقات بين أوروبا وآسيا، وكانت فتوحاته بداية لعالم جديد يمتد من غرب البحر المتوسط إلى أعماق آسيا. وكانت إنجازاته رسالة عظيمة، إلى الشباب خاصة، تعلمهم بأن كل فرد يملك قوة كامنة عظيمة قد لا يستغل أثناء حياته إلا جزءاً قليلاً منها.

فماذا فعلت أيها الشاب، أيها الكهل، وماذا ستفعل بحياتك؟ وماذا أنجزت لنفسك، لأهلك، لبلادك، وماذا قدمت (أو تنوي أن تقدم) للبشرية؟ أم ستغادر هذا العالم دون أن تترك أثراً طيباً تذكر به، أو عملاً صالحاً تجازى عليه في العالم الآخر؟

حنبل (247 - 182) :

هو ابن الجنرال القرطاجي الكبير هاميلكار باركا. ولد سنة 247 ق.م في شمال إفريقيا؛ وذهب، وهو طفل، مع أبيه إلى أسبانيا التي كانت قرطاج تحتل جزء منها.

قاد حنبل الجيوش وهو شاب، وساعد على توسيع قوة قرطاج. وكان وهو فى عنفوان شبابه وثيق الأركان، ثابت الجنان. امتاز بقدرته على المناورات الحربية الذكية، وساعدته استراتيجياته العسكرية على أن يهزم جيوشاً أقوى عدة وأكثر عدداً من جيشه.

تولى قيادة الجيش القرطاجي فى أسبانيا وهو فى السادسة والعشرين من العمر. وعندما تطورت المشاكل بين قرطاج وروما، وأعلنت هذه الأخيرة الحرب على الأولى، عام 219 ق.م قاد القائد الشاب حنبل جيشاً قوامه نحو 40 ألفاً، وعدداً من الفيلة، واجتاز جبال البرانس، وجنوب بلاد الغال، وجبال الألب المغطاة بالثلوج، وحقق أثناء مسيرته المنهكة، إنجازات حربية مذهلة، وفقد جزء هاماً من جيشه، فلم يبق معه عندما وصل إلى إيطاليا سوى نحو ستة وعشرين ألفاً من الجند، وستة آلاف حصان، وعدد من الفيلة.

ودارت معركة كبيرة بين جيش حنبل والجيش الروماني عند بحيرة تراسيمينو، فألحق جيش قرطاج هزيمة كبيرة بجيش روما. ثم دارت معركة أخرى تاريخية بين الجيشين، تعرف بمعركة كانى (Cannae) حيث مُني الجيش الروماني بهزيمة لم يشهد مثلها، وواصل حنبل مسيرته وانتصاراته.

أثناء ذلك حقق الجيش الروماني انتصارات كبيرة في أسبانيا ضد جيش قرطاج. وظل حنبعل في إيطاليا يطلب المدد والعتاد الحربي من بلاده، ولكن حكومته خيبت أمله.

وفي عام 203 ق.م توجه القائد الروماني الشهير سيبيو (Scipio) الإفريقي نحو مدينة قرطاج لاحتلالها، فاضطر القائد حنبعل أن يسرع إلى بلاده ليدافع عنها. غير أن ظروف الحرب هذه المرة كانت معاكسة، فخسر أول معركة في حياته.

لقد كان حنبعل بطلاً إفريقيًا ورجل دولة، اشتهر باستراتيجياته الحربية الفذة؛ وكان رجلاً مثقفاً يتقن اللغتين الفينيقية واليونانية؛ وكان من أشجع الشجعان، أول من يدخل الميدان، وآخر من يغادره؛ كان محبوباً مكرماً من قواده وجنده، لا يرتدي ما يميزه عنهم، ولا يرتاح حتى يوفر لهم حاجياتهم؛ استطاع بحسن تدييره أن يؤلف بين مختلف القبائل والأجناس التي حاربت تحت لوائه وكانت طوع أوامرهم.

يوليوس قيصر :

كان يوليوس قيصر «رجلاً كألف»، اشتهر بقدرته الإدارية والتنظيمية، وبمهارته السياسية، وكان قائداً عسكرياً واسع الحيلة، وجلدا صبوراً لا يعتريه الكلال، وكان خطيباً وكاتباً ومؤرخاً، ومصالحاً اجتماعياً؛ وكان رجلاً طموحاً تنزع نفسه إلى السلطة والحكم الدكتاتوري لصالح روما .

ولد يوليوس قيصر في روما سنة مائة قبل الميلاد، في أسرة ليست ثرية ولا ذات امتيازات خاصة. وقد توفي أبوه وسنه لا يتجاوز ستة عشرة سنة. وشغل وظيفة محتسب في إدارة مالية، ثم عين قاضياً سنة 62 ق.م. بعد ذلك انتدب لقيادة حملات عسكرية لإخضاع بلاد غالة (شمال إيطاليا وجنوب فرنسا)، فأظهر عبقرية عسكرية كبيرة، وأعجب المحافظون والأرستقراطيون في روما بقدراته في ميادين الحرب .

وعرف القيصر كيف يستغل انتصاراته الحربية في فرنسا وجنوب بريطانيا، وفي مناطق أخرى من حوض البحر المتوسط، من أجل نيل شهرة عظيمة وتحقيق أهدافه المتمثلة في إصلاح الأوضاع المتردية في بلاده. وعندما قاد جيشه عبر نهر «الروبيكون» كان ذلك بداية لإشعال حرب أهلية، وكان النصر في جانبه، فنصب نفسه دكتاتوراً سنة 49 ق.م.

لا يكفي هذا الموجز للحديث عن حياة هذا الرجل العظيم، وتكفي الإشارة إلى بعض إنجازاته :

- عندما عين قاضياً في روما طلب من المشرعين أن تجمع جميع القوانين المعمول بها آنئذ في سجل واحد .

- كان يراقب جميع شؤون المدينة، على اختلاف أحيائها وعناصرها، بنفسه، وقضى على مصادر العجز والفساد، وسلط عقوبات شديدة على أصحاب الرشوة، ومن يتلاعبون بالانتخابات.
- قضى على حكم النبلاء الفوضوي، وبدلاً من حكم الجماعة القليلة التي تهدف إلى حماية مصالحها، تثبت حكم الفرد المطلق، ووجهه إلى خدمة الجماهير.
- عمل على الاقتراب من الفلاحين والجماهير، وقرر أن تكون الأولوية في توزيع الأراضي التي تملكها الحكومة على الأسر التي لها ثلاثة أولاد فأكثر. وسعى إلى خفض عدد العاطلين عن العمل بتجنيدهم في الجيش بعد تسريحهم؛ كما أرسل أعداداً كبيرة منهم ليستعمروا المدن قليلة السكان؛ وأمر أن يكون ثلث العاملين في المزارع من الرومان الأحرار حتى لا يستغل الرقيق والعبيد فقط في خدمة الأرض.
- وضع برامج واسعة للبناء رصد لها مبالغ ضخمة، فأمر بتشييد المباني العامة، والأسواق، والنوادي، وأمر بتجميل عدد من مدن الامبراطورية. وأمر بإنشاء جسور حول نهر التيبر، وإصلاح مجراه حتى لا تطفئ مياهه على الأراضي المجاورة؛ وأمر بإصلاح ميناء مدينة أوستيا؛ واستصلاح الأراضي والمستنقعات لإنقاذ مدينة روما من وطأة البعوض.
- أراد أن يعوض ما أحدثته الحروب من نقص في عدد السكان الرومان، فمنح حق المواطنة لأعداد كبيرة من غير الرومان، وسوى بين إيطاليا وبين الولايات الأخرى التابعة لها في الحقوق والواجبات.

- قضى على مصادر الاستغلال المالي والربح غير المشروع المتمثل في جباية الضرائب بواسطة مسؤولين في مختلف الولايات.
 - أصلح التقويم الروماني فجعل السنة 365 يوماً يضاف إليها يوم في آخر شهر فبراير من كل أربع سنوات.
 - أنشأ هيئة تسهر على تشييد المكتبات العامة.
 - عمل على استقرار العملة فجعل الذهب أساساً لها بصك قطعة نقد ذهبية أصبح لها قوة شرائية قوية.
 - أطلق للناس حرية المعتقدات، والتجمع، والسفر، والتعارف.
 - انتزع حق تعيين الولاة من مجلس الشيوخ الذي انتشر فيه الفساد والرشوة، ورشح لمنصب الولاة رجالاً عرفوا بالصدق والكفاءة.
 - منح نفس الحقوق التي يتمتع بها الرومان واللاتين للمستعمرين الذين أرسلهم لإنشاء عشرات المدن عبر الإمبراطورية الممتدة من جبل طارق إلى البحر الأسود.
- هذه بعض الإنجازات التي حققها رجل عظيم، يقال أنه كان في شبابه رجلاً متلاًفاً، عرييداً، يضل النساء... وكان في حكمه دكتاتوراً. لقد أصبح من أعظم رجال الدولة، وقواد الحروب، والزعماء في التاريخ. لقد أعطى للدولة الرومانية قوة دافعة دامت بعده عدة قرون. ومكن للحضارة اليونانية والرومانية أن تواصل مسيرتها زمناً طويلاً وفي مناطق واسعة. هذا وكان بوسعه أن يحقق إنجازات أخرى كثيرة لولا أنه اغتيل ولم يتجاوز سن السادسة والخمسين.

طارق بن زياد (670 - 720 م) :

لا يعرف شيء كثير عن طارق بن زياد في أول نشأته، إلى أن عُيِّن حاكماً لبرقة سنة 76هـ. بعد ذلك اختاره موسى بن نصير قائداً للجيش، فأبلى بلاءً حسناً وأظهر مهارة كبيرة في قيادة جيشه؛ فولاه موسى بن نصير قيادة مقدمة الجيش الموجه لفتح بلاد المغرب، وبذلك شارك طارق بن زياد مشاركة فعالة في السيطرة على المغرب حتى بلغ المحيط الأطلسي (مدينة طنجة).

وكان يحكم مدينة سبتة، في المغرب، الكونت جوليان، وكانت منيعة شديدة التحصين فاستعصت على جيش طارق. عندئذ حاول هذا القائد أن يكسب صداقة جوليان، الذي قرر هو الآخر أن جيش المسلمين قادر على فتح إسبانيا لعداوة كانت بين الكونت وبين لذريق ملك إسبانيا.

ووثق موسى بن نصير بصدق جوليان، فأمر طارق بن زياد على قيادة جيش من سبعة آلاف مقاتل لفتح شبه جزيرة إيبيريا (إسبانيا)، وفي شهر رجب من عام 92 هجرية (أبريل 711م)، بدأت أربع سفن أعدها الكونت جوليان تنقل جيش المسلمين إلى جبل كالبى جنوب إسبانيا الذي أصبح يعرف بجبل طارق. وبعد معركة غير متكافئة القوى، كان جيش ملك إسبانيا نحو سبعة أضعاف جيش المسلمين، كتب فيها النصر في النهاية للمسلمين.

وبعد هذه المعركة الحاسمة سارع طارق إلى الاستيلاء على المدن

الأسبانية واحدة تلو الأخرى. وأسرع موسى بن نصير فدخل إسبانيا بجيش عدده 18 ألف جندي؛ والتقى بطارق بن زياد في مدينة طليطلة. ثم واصل كل من القائدين فتح شمال إسبانيا حتى بلغا جبال البرانس.

عبدالرحمان الداخل (113 - 172هـ) :

هو عبد الرحمان بن معاوية بن هشام، الملقب بصقر قريش، ويعرف بـ«الداخل» لأنه دخل الأندلس وأسس الدولة الأموية. وعندما أسس العباسيون دولتهم بالمشرق، وراحوا يبطشون بالزعماء الأمويين، استطاع عبدالرحمان أن ينجو من بطشهم، وفرّ متخفياً يرافقه خادمه بدر حتى بلغ المغرب حيث نزل على أخواله من قبيلة نفاوة البربرية.

كاتب عبد الرحمان، وهو في المغرب، بعض زعماء الأمويين في الأندلس، وأرسل إليهم خادمه بدرًا، فأرسلوا إليه أن يلتحق بهم فدخل إسبانيا سنة 138 هـ (755م)، واستطاع أن يجلب إليه بعض القبائل اليمينية، فوعده زعماءؤها بنصرته، وجمعوا له جيشًا استطاع أن ينتصر به على الجيش الذي كان يقوده يوسف الفهري (والي الأندلس) والصميل بن حاتم. دخل عبدالرحمان قرطبة بجيشه سنة 138هـ، وكان ذلك بداية الدولة الأموية في الأندلس.

كان عبد الرحمان قوي العزيمة، بعيد الهمة، شديد الحذر، حازمًا، شجاعًا، قضى على عصبية القبائل، واشتد في ملاحقة الخارجين على حكمه. استقر بقرطبة، وزينها بالمباني الفخمة والحدائق؛ وشيّد قصر الرصافة؛ وبدأ بإنشاء الجامع الكبير الذي أكمله ابنه من بعده؛ وأسس ذلك الملك العظيم الذي جعل قرطبة تفاخر عواصم العالم.

وكثيراً ما كان أبو جعفر المنصور، الخليفة العباسي، يشيد بذكر

عبدالرحمن الداخل (وهو عدوه). يروى أنه قال لأصحابه ذات يوم: «أخبروني عن صقر قريش من هو؟ قالوا: أمير المؤمنين، أبو جعفر المنصور الذي راض الملك، وسكن الزلازل، وحسم الأذواء، وأباد الأعداء.

فقال الخليفة: ما صنعتُم شيئاً.

قالوا: فمعاوية. فقال: ولا هذا. قالوا: فعبد الملك بن مروان. فقال: ولا هذا. قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟ قال: عبد الرحمان بن معاوية الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلدًا عجميًا مفردًا، فمصر الأمصار، وجند الأجناد، ودون الدواوين، وأقام ملكًا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدة شيكته. إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، وذلًا صعابه؛ وعبد الملك ببيعة تقوم لها عقدها؛ وأمير المؤمنين بطلب عترته، واجتماع شيعته. وعبد الرحمان منفردًا بنفسه، مؤيدًا برأيه، مستصعبًا لعزمه».

حكم عبد الرحمان الداخل (صقر قريش) بلاد الأندلس مدة ثلاثًا وثلاثين سنة وأربعة أشهر، وتوفي عام 172هـ. وعاصر ثلاثة من الخلفاء العباسيين هم: المنصور، والهادي، والرشيد.

عبدالرحمان أبو مسلم الخراساني:

كان محمد بن علي إمام الدعوة العباسية، وكان يقيم في الحميمة؛ وبعث الدعوة إلى خراسان لنشر الدعوة «لإمام الرضي من آل محمد». وكان هؤلاء الدعوة يتنقلون سرّاً في تلك الأصقاع النائية بصفتهم تجاراً، أو بدعوى رحيلهم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج؛ ومع ذلك كانوا يلاقون متاعب كثيرة ويتحملون الأذى من ولاية بني أمية. وكان من أوائل هؤلاء الدعوة رجل يدعى سليمان بن كثير، وهو نقيب دعاة العباسيين في خراسان.

أما أبو مسلم الخراساني (وكان اسمه إبراهيم بن ختكان)، فقد ولد في أصبهان، ثم أجبرته الظروف أن يُنقل إلى الكوفة وهو طفل، وأصبح غلاماً لأبي موسى السراج (مولاه) يصنع له السروج، ويسلمها للمشترين.

وحدث أن زار الداعية سليمان بن كثير، ومعه عدد من النقباء، الكوفة، ولقي الفتى إبراهيم بن ختكان (أو عبدالرحمان أبو مسلم الخراساني) عند سيده أبي موسى السراج، فأعجب بما وجد فيه من فطنة وذكاء وحسن المنطق، واصطحبه معه إلى الإمام العباسي محمد ابن علي في الحميمة، فأعجب الإمام بالفتى، ووافق على ضمّه إلى الدعوة العباسية، ووصفه بأنه «جوهرة مكنونة»، وأوصى أولاده به خيراً.

والواقع أن الإمام العباسي لم يخطئ في حسن ظنه بالفتى الفارسي؛ فقد أثبتت التجارب أن أبا مسلم (إبراهيم بن ختكان) كان

على رغم صغر سنه ذا عقل وعلم، يتمتع بقدر وافر من الذكاء والدهاء، وبعد النظر؛ وكان له معرفة بأخبار سير الملوك وأخبار الحدثان والأمم؛ وكان متتبعاً لمجرى الحوادث في الدولة الأموية وتقلبات أوضاعها.

كان أبو مسلم الخرساني في ظاهره مجرد خادم لمولاه، يحسن صناعة السروج؛ ولكنه في داخله ذا همّة عالية، ونفس أبية، لها من العزم والطموح وقوة الإرادة والدهاء قدر كبير، وتسعى إلى تحقيق أهداف سامية وكان أبو مسلم كذلك معتزاً بأصله الفارسي، متذمراً مما وصل إليه حال قومه من الفرس أمام هؤلاء العرب الذين كانوا بالأمس بدوا حفاة تتناحر قبائلهم على موارد الماء والكلأ، حتى أعزهم الإسلام ورفع شأنهم بين الأمم، ثم يتساءل: ولم لا يعتز الفرس بالإسلام ويرتفع به شأنهم؟

كان نقباء الدعوة العباسية قد بذلوا جهوداً كبيرة للتمهيد للدعوة في خراسان، وكان ذلك في المرحلة الأولى تحت ستار السرية. ثم جاء الوقت الذي ارتأى فيه الإمام إبراهيم بن محمد (إمام الدعوة العباسية في الحميمة) أن الوقت قد حان للجهر بالدعوة، فوجه أوامر إلى النقباء والدعاة بأن يجهروا بالأمر، وأن يعلنوا لجميع الناس أهداف الدعوة دون الإفصاح عن اسم الإمام العباسي، وبذلك دخلت هذه الدعوة المرحلة العملية بإعلان الثورة على الحكم الأموي، وكان ذلك انطلاقاً من سنة 127 هجرية.

أرسل الإمام إبراهيم أبا مسلم إلى خراسان يحمل رسالة إلى

نقباء الدعوة يبلغهم فيها أنه ولاء مقاليد الأمور وشؤون الدعوة في خراسان؛ وأوصى أبا مسلم أن يرجع في ما أشكل عليه من قضايا إلى سليمان بن كثير.

وفيما يلي لمحة موجزة عن منجزات الفتى الخرساني (إبراهيم ابن ختكان) الذي سمّاه الإمام إبراهيم «عبد الرحمان أبا مسلم» :

- استطاع أب مسلم أن يجمع الفرس المتعصبين لقوميتهم ممن كانوا يرون أن الأمويين ليسوا جديرين بالحكم، وأن آل النبي من بني علي أو بني العباس هم أولى بالخلافة؛ خاصة وأن الفرس الذين اعتنقوا الإسلام كانوا في العهد الأموي يعاملون كمسلمين من الدرجة الثانية (في نظرهم).

- من هؤلاء جميعاً، ومن الفلاحين الفرس والعرب الذين كانوا يتذمرون من الولاة الأمويين، ومن سياستهم في جباية الأموال، استطاع أبو مسلم أن يكون جيشاً منظماً، وفياً له، وهو الجيش الذي دعم الدعوة وحقق للعباسيين الانتصارات الأولى.

- استطاع أبو مسلم بما أوتي من دهاء وعزيمة أن يستغل الخلافات السائدة بين القبائل العربية، يقرب إحداها ليضرب بها الأخرى، ونجح في استمالة القبائل اليمنية إلى جانبه، وأن يقضي على شيوخ القبائل المعارضة لسياساته.

- احتل أبو مسلم مدينة مرو، عاصمة خراسان، وأعلن الحرب على نصر بن سيار، والي الخليفة الأموي، وشاركه في قيادة المعارك عدد

من نقباء الدعوة العباسيين؛ وهي الحرب التي انتهت بسقوط الدولة الأموية.

- بايع الناس أبا العباس السفاح (أول خليفة عباسي) بالخلافة في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام 749 ميلادية.

- وانتهت دولة بني أمية بقتل خليفتهم مروان بن محمد في هجوم قامت به ثلة من الجيش العباسي (وكانوا يدعون بالمسودة لارتدائهم الملابس السوداء) على قرية «أبو صير» (الفيوم) بمصر السفلى، وكان ذلك في ذي القعدة من سنة 132 هجرية، الموافق لشهر أغسطس (آب) من سنة 750 ميلادية.

المنصور بن أبي عامر (326 - 392هـ) :

نشأ محمد بن أبي عامر، الملقب بالمنصور، في قرية تسمى «طرش» من أعمال المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء في جنوب إسبانيا. كان من أسرة متواضعة مادياً، فلم يرث مالاً ولا لقب إمارة. وذهب إلى قرطبة وهو شاب لطلب العلم. وبعد تخرجه عمل في دكان لبيع الأقمشة، ثم افتتح دكاناً ليكتب الرسائل لأصحاب الشكاوي، فشاع ذكره وحُسُنُ بلاغته، واتصل به بعض خدم قصر الخليفة الحكم بن عبدالرحمان الناصر.

وساعده بعض الوجهاء على الاتصال بالحاجب (وهو بمنزلة رئيس الوزراء) فقدمه إلى زوجة الخليفة «صبح» التي وكلت إليه أمر رعاية ابنها هشام، وكذلك النظر في ممتلكاتها. وظهرت مواهب الفتى ابن أبي عامر في إدارة الأموال وحسن التدبير والتصرف، فأعجب الخليفة بذكائه وسعة علمه، وأسند إليه مهام القضاء في بعض الدوائر. وبمرور الزمن ازداد إعجاب الخليفة الحكم بنجاح الفتى وقوة عزمته، فأسند إليه مهام أخرى حتى بلغ مركز الوزير في آخر أيام الخليفة.

وعندما توفي الخليفة الحكم كان سن ابنه هشام، ولي العهد، لا يتجاوزو عشر سنين؛ وكانت صبح قد وثقت بمحمد بن أبي عامر الوزير واستلطفته، وخشيت أن تحدث فتن في البلاد، فأقرته في وظائفه، وأسندت إليه أمر تصريف شؤون الدولة، تحت رعايتها، فنهض بذلك بما عرف عنه من حزم وحسن التدبير، ونجح في القضاء على أعدائه واحداً تلو الآخر، ودام حكمه ستاً وعشرين سنة.

من صفات هذا الفتى الطموح ورجل الدولة البطل المناضل أنه كان مشغولاً بالمعرفة، مجداً في تحصيل العلم، ولوعاً بالفلسفة، واسع الاطلاع، عالي الهمة، مجداً في أعماله، ذا مهارة في علاقاته مع كبار رجال الدولة، وكريماً في رعاية رجال العلم والأدب.

ومن منجزاته العديدة :

- أعاد تنظيم الجيش مستعيناً بالبربر والمرتزقة والنصارى؛ وعرف كيف يستميلهم إليه ويكسب وفاءهم.
- كان الصقالية يسيطرون على مجريات الحوادث في القصر، ويعاملون سكان المدينة بقسوة، بل حاولوا أن يمنعوا وصول ولي العهد إلى الحكم. فسعى ابن أبي عامر بحزم وقوة للقضاء على المتآمرين منهم.
- رماه بعض العلماء المتعصبين بتهمة الزندقة، فسعى بذكاء إلى إخفاء نسخ من الكتب الهامة، وأخرج أكياساً من كتب أخرى إلى ساحة عامة وأمر أن تشعل فيها النيران.
- نجح في القضاء على سلطة الحاجب المصحفي وأتباعه.
- أنشأ مدينة الزاهرة وجعلها مركزاً للحكم.
- جمع في قرطبة عدداً من كبار العلماء والأدباء؛ وكان يعقد المجالس التي يتناظرون فيها.
- حقق انتصارات عظيمة ضد الأسبان، فقد غزا ستاً وخمسين غزوة، ولم يهزم في واحدة منها؛ وسيطر على مناطق واسعة في شمال إسبانيا لم ترفع فيها قبل ذلك راية الإسلام.

عبد الله بن ياسين الجزولي؛

سافر يحيى بن إبراهيم الجدالي، أمير قبيلة جدالة، إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وأثناء عودته إلى قبيلته في جنوب المغرب، إلتقى بعبد الله بن ياسين الجزولي فطلب منه أن يصحبه إلى موطن قبيلته ليفقه قومه في تعاليم الإسلام، ويصحح ما ينتشر ما بينهم من ضلالة وفساد.

كان يحيى بن إبراهيم الجدالي رجلاً مؤمناً، مخلصاً لمبادئ الإسلام وميالاً للعلم، وحريصاً على إصلاح ما فسد من عقائد قومه. غير أنهم رفضوا الاستماع إلى دروس عبد الله بن ياسين، وطالبوا أميرهم بطرده من ديارهم. فقرر يحيى بن إبراهيم وعبد الله بن ياسين أن يعتصما، ومن تبعهما، بجزيرة على نهر السنغال (ويقال أنها جزيرة تيدرة على ساحل موريتانيا)، وأنشأ فيها مركزاً يأوى إليه كل من يرغب في الاستماع إلى دروس الفقه وتعاليم الإسلام التي يلقيها ابن ياسين؛ وقد عرف ذلك المركز بعد «بالرباط».

لم يكن عبد الله بن ياسين عالماً في شؤون الدين فقط، بل كان كذلك مصلحاً إجتماعياً، ومجاهداً صادقاً، وقائداً شجاعاً، ومؤمناً مخلصاً، كافح لإرساء قواعد الإسلام الصحيحة، وساعد على إرساء تعاليم المذهب الماكلي في تلك البقاع الصحراوية النائية، كما جاهد لتدعيم قواعد الدولة المرابطية التي قدمت للإسلام خدمات جليلة بنشرها لتعاليم الإسلام، ومحاربة التفرق والضلال في المغرب الأقصى وغيره من المناطق الواسعة جنوباً حتى موريتانيا والسودان. كما عملت

هذه الدولة تحت قيادة بطلها المغوار يوسف بن تاشفين، على صدّ جيوش ألفونسو، ملك قشتالة الإسباني، وألحقت به هزيمة نكراء في معركة الزلاقة الشهيرة، وبذلك جدّد قوة الإسلام وعزته في الأندلس.

كانت هذه بعض المنجزات التي تحققت بفضل تلك الفئة التي اعتصمت بادئ الأمر بجزيرة على نهر السنغال، وبدأ ينضمّ إليها رجال من مختلف القبائل، وظل عددهم يتكاثر تدريجياً حتى بلغ نحو ألف رجل. وكانوا أثناء إقامتهم في الرباط يلتفون حول عبد الله بن ياسين ليفقههم في الدين، ويتعلمون صنع السلاح واستعماله.

وعندما شعر الأمير يحيى بن إبراهيم والعالم عبد الله بن ياسين أن جيشهما أصبح على استعداد لمواجهة القبائل الضالة، قررا الخروج إليها ودعوتها إلى العقيدة الصحيحة والعمل بتعاليم الإسلام، وتطبيق مبادئ الشريعة الحنيفة.

ومن كلمات عبد الله بن ياسين لتلاميذه، عند مغادرة الرباط: «اخرجوا على بركة الله، وانذروا قومكم، وخوفوهم عقاب الله، وأبلغوهم حجته؛ فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه، فخلوا سبيلهم، وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيهم، ولجّوا في طغيانهم، استعنا بالله عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا».

بعد وفاة الأمير يحيى بن عمر اللمتوني، ولّى عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر بن عمر الذي تنازل عن قيادة الجيش لابن عمّه يوسف بن تاشفين.

توفي عبدالله بن ياسين في شهر جمادى الأولى من سنة 451 هجرية، وكان ذلك في إحدى المعارك التي خاضها ضدّ قبائل برغواطة.

يوسف بن تاشفين (410 - 500هـ):

هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم، من قبيلة لمتونة. تولى له الأمير أبو بكر بن عمر عن قيادة جيش المرابطين، وسافر بجيشه إلى الصحراء (جنوب المغرب) للجهاد من أجل هداية القبائل الضالة. وعندما رجع من مهمته وجد أن القائد يوسف بن تاشفين قد نظم في المغرب الأقصى جيشاً عظيماً، وبسط سلطانه على البلاد، ووجد القبائل المتناحرة، ونظم دولة المرابطين، وشيّد مدينة مراكش، فنزل الأمير أبو بكر له عن السلطان، وعاد إلى الصحراء لمواصلة مهمته الجهادية.

اشتهر يوسف بن تاشفين كذلك بأنه كان بطل معركة «الزلاقة» التي أذلّ فيها جيش ألفونسو المستبد. كان ذلك عندما استجاب لدعوة عدد من ملوك الطوائف لمساعدتهم على مواجهة خطر الفونسو السادس، ملك فشتالة الأسباني، الذي كان يجهز جيشاً عظيماً للهجوم على المسلمين وإخراجهم من الأندلس. فاستصدر ابن تاشفين فتوى من فقهاء الأندلس تجيز له الدخول إلى الأندلس.

وفي عام 1086م قاد ابن تاشفين جيشاً من المرابطين. وانضم إليه عدد من ملوك الطوائف بجيوشهم، وهزم جيش المسلمين جيش ألفونسو هزيمة تاريخية في معركة «الزلاقة» الشهيرة. على إثر هذا النصر المبين بايعه من حضر المعركة من الطوائف «بإمارة المسلمين»، وعاد إلى المغرب.

وعندما تيقن ابن تاشفين بأن ملوك الطوائف في الأندلس غير قادرين على حكم البلاد وفقاً لقوانين الشريعة، استصدر فتوى أخرى من مشاهير الفقهاء، ثم دخل الأندلس مرة أخرى فاستولى عليها، وقبض على ملوكها؛ وأصبح يعرف بأمير المسلمين، وخطب في المساجد للخلفاء العباسيين.

لقد كان هذا البطل الصحراوي قائداً عظيماً، وحاكماً حكيماً، ومسلماً صادقاً حازماً، نجح في تنظيم دولته، وبسط الأمن، وتوحيد كلمة المسلمين، وبصفة خاصة استطاع أن يقهر الملك الفونسو، وأن يقضي على خلافت ملوك الطوائف، ويرفع من شأن الأندلس المسلمة ولو إلى حين.

صلاح الدين الأيوبي (532 - 589هـ):

ولد صلاح الدين الأيوبي سنة 532هـ، وكان أبوه نجم الدين وعمه شيركوه في خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي صاحب حلب ودمشق والموصل؛ ودخل الفتى صلاح الدين في خدمة نور الدين محمود فأعجب به وكلفه بمهام من جملتها قيادة شرطة دمشق. واشترك مع عمه شيركوه في الحملات التي وجهها نور الدين إلى مصر سنة 559هـ؛ وعين حاكماً على مدينة الاسكندرية، فأظهر مهاراته الإدارية والعسكرية. ثم اختاره الخليفة العاضد (آخر خلفاء الفاطميين في مصر) ليتولى مهام الوزارة وقيادة الجيش، وكان سنه لا يتجاوز ثلاثين عاماً.

وفيما يلي نظرة خاطفة إلى أخلاقه وبعض منجزاته :

- حفظ القرآن، ودرس الفقه والحديث والشعر؛ واشتهر بالتقوى والاستقامة، وحسن التدبير، وكرم الأخلاق. وكان محباً للعلم، نصيراً للعلماء، كثير التواضع.
- بعد أن تولى الوزارة في مصر ركز جهوده على تقوية أركان الدولة وتدعيم سلطانها. ولكنه ظل وفياً لنور الدين زنكي حاكم الشام.
- بعد وفاة هذا الأخير، اضطربت الأوضاع في الشام، فأقبل صلاح الدين إلى دمشق لإصلاح الأوضاع وإعادة الوحدة إلى البلاد؛ وكذلك للاستعداد لمحاربة الصليبيين.

- هناك قصص وأخبار كثيرة تتحدث عن سمو أخلاقه وعدله وحسن معاملته حتى لأعدائه، مما جعلهم يعترفون بفضله ونبيل أخلاقه، وبعَدْلِهِ والوفاء بوعوده.

- استطاع أن يقضي على مخلفات حكم الفاطميين والشيعة في مصر.

- كانت أعظم انتصاراته ضد الصليبيين في معركة حطين عام 583هـ؛ وتوالت بعد ذلك حملاته ضدهم دون هوادة حتى تم تحرير مدينة القدس، وتطهير البلاد نهائياً.

- جدّد المسجد الأقصى، وأمر ببناء القلعة الشهيرة في القاهرة؛ وأنجز خدمات عمرانية وعلمية عظيمة في مصر والشام؛ ووضع خطة محكمة لدمج مدينتي الفسطاط والقاهرة في مدينة واحدة محصنة.

- أصبح اسم صلاح الدين رمزاً لعهد من أعظم عهود الإسلام، وهو تطهير الأراضي المقدسة من عدوان الصليبيين؛ وأصبح ذكر صلاح الدين في الشرق الأوسط وفي أوروبا كذلك، رمزاً للملك العادل الصالح، وعنواناً خالدًا إلى جانب عظماء التاريخ.

توفي صلاح الدين الأيوبي في دمشق سنة 589 هجرية.

السلطان محمد الثاني (الفاتح) 833-886هـ (1429-1481هـ):

يعتبر السلطان محمد الثاني بن السلطان مراد الثاني المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية، وهو أشهر سلاطينها. ارتقى العرش للمرة الثانية) عام 1451.

وفيما يلي نبذة موجزة عن أعماله ومنجزاته:

- خطط لفتح القسطنطينية (عاصمة بيزنطة)، ونجح في الاستيلاء عليها عام 1453، وأسمها «إسلامبول»، أي عاصمة الإسلام، وحول الاسم بعد ذلك إلى إسطنبول. ورفع هذا الفتح العظيم شهرة السلطان فأصبح يعرف بالسلطان محمد الفاتح، واكتسب بذلك سلطة عظيمة فأصبح يعتبر نفسه حامي الإسلام وقيصر الروم.
- جدد حصون اسطنبول وجعلها مركزاً للامبراطورية العثمانية، وأظهر كثيراً من التسامح الفكري والعقائدي، فعمل على تنظيم أحوال اليونانيين، واعترف لهم بالاستقلال في جميع ما يتعلق بالسلطات الدينية؛ وطلب من بطريك المسيحية أن يؤلف له مدونة عن العقيدة المسيحية، وترجمها إلى اللغة التركية.
- اعترف لليهود، والبلغار، والأرمن بالاستقلال في جميع ما يتعلق بمعتقداتهم.
- جعل من اسطنبول المركز الفكري الأول في العالم الإسلامي؛ وكان يجمع من حين لآخر كبار العلماء ويطلب منهم أن يتحاوروا حول المسائل العقائدية. وقد بلغت علوم الرياضيات، والفلك، والفقه الإسلامي أعلى مستوياتها أثناء حكمه.

- شيد منشآت علمية عديدة منها : جامع السلطان محمد الفاتح الذي بنى حوله مدارس، ومطاعم، وحمامات، ومستشفيات، ومنازل للغرباء والتجار المسافرين، ودورا للعجزة، وخانات، ومساكن للمعلمين والطلاب.

- أنشأ أحواضاً لبناء السفن، ودوراً لصناعة السلاح.

- قاد بنفسه حملات عديدة وأدت فتوحاته في أوروبا إلى الاستيلاء على بلاد الصرب، وإقليمي البوسنة والهرسك، كما احتل ألبانيا، ودوقية أثينا، ومعظم بلاد الموره، وفتح بلاد المجر، وولاشيا، ومولدافيا، والأناضول، ومنطقة القرم، وجنوب إيطاليا؛ وكان يستعد لغزو روما قبل وفاته.

- حارب دولة البندقية وأجبرها على دفع الجزية؛ وسيطر على المحطات التجارية التابعة لجمهورية جنوة الواقعة في منطقة البحر الأسود.

- دون القوانين الجنائية، والمدنية، وجعل القوانين الدستورية في مدونة خاصة.

- أنشأ في قصره مكتبة جمع فيها ما استطاع من مجلدات العلم والأدب باللغتين اللاتينية واليونانية، وقرب إليه رجال الفكر.

توفي هذا البطل الشجاع ورجل الدولة العظيم في شهر مايو (أيار) من سنة 1481 ميلادية، في موقع قريب من العاصمة إسطنبول، ولم يتجاوز 52 سنة من العمر. وتشير بعض الروايات إلى أنه مات مسموماً.

سليمان القانوني :

سليمان هو ابن السلطان العثماني سليم الأول، وجدّه بايزيد الثاني. ولد سنة 1494 أو 1495 ميلادية. خلف والده على العرش عام 1520، وكان سنه 26 عاماً. وصفه المؤرخون بأنه كان سلطاناً ورعاً، وقائداً عظيماً، ومشرعاً بارعاً، ومنظماً حازماً. نال شهرة واسعة لشجاعته وكرمه، وحسن إدارته لإمبراطورية مترامية الأطراف ومتعددة الجنسيات. وقد شهد الأجنب بأنه كان يفوق أي حاكم في عهده من حيث الكفاءة والحكمة والخلق النبيل. وقد بلغت الإمبراطورية العثمانية أثناء حكمه قمة قوتها العسكرية والحضارية.

ارتأى السلطان سليمان أن أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم، وبدأ بتأمين البلاد الشمالية فاستولى على مدينة بلغراد، عاصمة صربيا. وكانت جزيرة رودس تحت سيطرة فرسان القديس يوحنا، وفيها قلاع منيعة؛ وهي تقع في الطريق بين اسطنبول وسوريا والاسكندرية؛ وكان فرسان القديس يوحنا يمدون القرصان النصارى بالمساعدة؛ فقرر السلطان سليمان أن يجعل من هذه الجزيرة معقلاً للمسلمين، فاستولى عليها بعد حصار طويل.

واتجه السلطان شمالاً، واستطاعت القوة العثمانية أن تحطم القوة العسكرية المجرية في معركة موهاكس، فكانت هزيمة المجر نكسة مادية ومعنوية للعالم المسيحي.

وعندما اشتد النزاع بين ملك النمسا وأمير ترانسلفانيا حول

السلطة على المجر، انحاز السلطان سليمان إلى الأمير وجعله حليفاً له، واستطاع جيش السلطان بذلك أن يحتل مدينة بودا الهامة في المجر للمرة الثانية. وفي عام 1529 ميلادية قرّر السلطان أن يضع حداً لتدخل النمسا (أسرة هَبْسْبورغ) في شؤون المجر، فقاد حملة قوية واتجه شمالاً فحاصر مدينة فيينا عاصمة النمسا، غير أنه لم يتمكن من فتحها بسبب اقتراب فصل الشتاء، وبعد خطوط التموين. ولكن سليمان عاد وحاصرها مرّة ثانية. وكان هذا الحصار رادعاً للنمسا فتوقفت عن التدخل في شؤون دولة المجر طيلة حكم الملك حليف السلطان.

وفي 1534، انطلق السلطان نحو الشرق فقاد حملته الأولى إلى بلاد فارس، واحتل منطقة أرزروم، وبحيرة «فان»، ودخل مدينة تبريز، عاصمة فارس، واستولى على بغداد.

واهتم سليمان القانوني بتجهيز الأسطول البحري وتدعيمه حتى أصبح قوة عظيمة في البحر المتوسط. وكان البحار خير الدين (المشهور بباربروسا) وأخوه عروج قد أظهرها همة قوية في مواجهة القرصنة في غرب المتوسط، فاستدعى السلطان خير الدين وعيّنه أمير البحر (أميرال)، واستعان به في تنفيذ طموحاته البحرية.

وقاد الأميرال خير الدين الأسطول العثماني في معركة بحرية كبيرة ضد أسطول البندقية وأسطول أسبانيا مجتمعين، وألحق بهما هزيمة شديدة. واهتزت جمهورية البندقية من آثار الهجوم العثماني، وفقدت ممتلكاتها في بحر إيجه وشواطئ دالماسيا، ووقعت سنة 1540 صلحاً مع اسطنبول.

ودمّر الأسطول العثماني حملة قوية أرسلتها أسبانيا إلى ليبيا، وقعت المعركة قرب جزيرة جَرَبَه عام 1560. وكان الأسطول العثماني قد استولى قبل ذلك على مدينة طرابلس (ليبيا)؛ وحمى تونس من هجمات الأسبان والبرتغال؛ واستولى على الجزائر. وبقي هذا الأسطول يمثل قوة لا تقهر إلى أن وقعت معركة ليبانتو Lepanto البحرية سنة 1571⁽¹⁾.

لقد نجحت الامبراطورية العثمانية في بسط نفوذها على جزء كبير من بلاد البلقان، وعلى آسيا الصغرى، والعراق وسوريا وفلسطين، ومصر، وشمال إفريقيا، وسيطر أسطولها على البحر المتوسط؛ وأثبت الجيش العثماني قدرته وشجاعته شرقاً وغرباً، وقاد السلطان سليمان شخصياً ثلاث عشرة معركة من المعارك الكبيرة، وحقق لبلاده أفضل ما كان في العالم عندئذ من العلوم والتهجيزات العسكرية. وأثبتت الحكومة التركية قدرتها الفائقة في ميادين الحكم والتنظيم والإدارة والدبلوماسية، وأصبحت أسطنبول أقوى عاصمة، والدولة العثمانية أكبر دولة في أوروبا كلها في عهد السلطان سليمان القانوني.

ولابد من الإشارة بإيجاز إلى المآثر العمرانية التي أنجزها سليمان، فقد شيد خمسة متاحف، وواحداً وثمانين مسجداً جامعاً

(1) لبانتو Lepanto، وقعت هذه المعركة البحرية سنة 1571، في عهد السلطان سليم الثاني، عندما زحف الأسطول العثماني ليستولى على جزيرة قبرص التي كانت تحتلها جمهورية البندقية. وتحالفت أسبانيا، وقوات بابا الفاتكان مع البندقية، فوجد الأسطول العثماني نفسه أمام ثلاث قوات مسيحية متحالفة؛ وكتب النصر لهذه القوات. غير أن البندقية اضطرت بعد سنتين للتخلي عن قبرص للدولة العثمانية.

كبيراً، واثنين وخمسين مسجداً صغيراً، وسبعة معاهد للقرآن والعلوم الدينية، وخمسة وخمسين مدرسة، وعدداً من كتاتيب لحفظ القرآن، وثلاثة مستشفيات، وسبعة جسور، وثلاثة وثلاثين قصرًا، وثلاثة وثلاثين حماماً عمومياً، وسبعة عشر مطعمًا لعامة الناس... إلخ.

إن الغرب هو الذي أطلق على سليمان لقب «العظيم» أما شعبه فسماه «القانوني» لما بذل من مساعي في تدوين القانون العثماني. لقد كان سليمان القانوني عظيمًا حقًا في أخلاقه وحكمته وقوة حكمه التي أعزت لواء الإسلام ورفعته عاليًا.

كريستوفر كولبوس (1451 - 1506م) :

ولد كولبوس في مدينة جنوه التي كانت عاصمة إحدى الجمهوريات الإيطالية. ولم يتابع الدراسة النظامية لأنه كان يساعد أباه في صناعة النسيج. وكان كولبوس الشاب يراقب باهتمام المراكب القادمة إلى ميناء جنوه المزدهم، ويستمع إلى حكايات البحارة حول أسفارهم ومغامراتهم. ثم ركب البحر وسافر إلى موانئ عديدة في بريطانيا، وشواطئ غرب أفريقيا، وإلى إسلاندا كذلك.

وذات يوم قرر أن يستقر في لشبونة (البرتغال)، وتزوج ابنة أحد المستكشفين الرواد، واستطاع أن يطلع على ما كان لدى صهره من خرائط؛ وقرأ بعض الكتب التي تتحدث عن الطواف حول الأرض، وكتاب ماركو بولو الشهير بـ«المليون» الذي يصف بلاد الصين وثرواتها، واطلع على وثائق وخرائط أخرى جعلته يفكر في السفر إلى الهند وجزر الهند الشرقية بالإبحار عن طريق المحيط الأطلسي؛ وكان يظن أن هذا الطريق أسهل وأقصر من السفر حول إفريقيا.

بدأ كولبوس يبحث عن ممولين يساعدونه على تحقيق هدفه، فقصده عددًا من ملوك أوروبا. وبعد سنوات من السعي المتواصل وافق فرديناند ملك إسبانيا، والملكة إيزابيلا على تمويل مشروعه.

كان كولبوس رجلاً متواضعًا، لم يرث ألقابًا، ولا ثروة، ولا إمارة، ولا مجدًا تليدًا؛ ولكنه كان بحارًا شجاعًا ذا همة عالية، وإرادة قوية، وعزيمة لا تلين؛ وكان بحارًا مغامرًا تجرأ على ركوب الأخطار، وأبحر

في محيط لا يعرف له نهاية. كان هدفه الوصول إلى الهند وجزر الهند الشرقية فاكشف العالم الجديد، وأصبح يعرف بأمر البحار، وطبقت شهرته الآفاق.

غير أن اكتشافاته لم تكن كلها خيراً على البشرية، فقد كان من نتائج رحلته أن تكالب الأسبان والبرتغاليون على استعمار القارة الأمريكية واستغلال ثرواتها واسترقاق سكانها. غير أن لاكتشافاته آثاراً عالمية أخرى، فقد أنهت سيطرة البحر المتوسط على التجارة الدولية؛ وفتحت المحيط الأطلسي؛ وازداد تدفق خيرات العالم الجديد على أسبانيا والبرتغال؛ وظهرت نتائج اقتصادية وسياسية بهجرة الأوروبيين إلى القارة الأمريكية؛ واستوردت أوروبا من أمريكا مزروعات جديدة مثل الذرة، والبطاطس، وقصب السكر، وغيرها.

ونج عن اكتشافات كولمبوس آثار فكرية وأدبية، وكذلك انتشرت اللغتان الأسبانية والبرتغالية (ثم الإنكليزية والفرنسية) تبع ذلك إنتاج أنواع من الأدب والفنون زادت في ثروة الإنسان الفكرية. كما أدت الهجرات المتتالية من أوروبا إلى الاحتكاك بين العادات والمعتقدات بين الأوروبيين وسكان «العالم الجديد»، فانتشرت المسيحية في هذا الأخير. وتوسعت حدود العالم، وفتحت سبل الانتقال والرحلات غرباً، وانتشرت موجات الجشع الأوروبي نحو أمريكا، وصحبها كثير من أساليب العدوان والظلم والاستغلال البشع تجاه السكان الأصليين.

محمد علي (1769 - 1849م) :

ولد محمد علي بمدينة قوالة على ساحل اليونان الذي كان آنئذ جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. توفي أبوه وهو طفل فتولى حاكم المدينة رعايته، وتزوج بفتاة من أسرة هذا الحاكم، واشتغل في مطلع حياته بتجارة التبغ.

تولى محمد علي قيادة كتيبة صغيرة ضمن الحملة التي أرسلها السلطان العثماني سليم الثالث سنة 1799 لمحاولة طرد الجيش الفرنسي أثناء غزو نابوليون لمصر. وعاد محمد علي إلى مصر مرة ثانية على رأس كتيبة من الجنود الألبان سنة 1801، وقرر أن يبقى في مصر؛ وأظهر من المهارة العسكرية والقدرة القيادية ما ألفت إليه الأنظار.

استطاع محمد علي أن يخضع مصر السفلى لسلطته، ثم توسط عدد من علماء الأزهر لدى السلطان العثماني ليولي محمد علي حاكماً على مصر، فوافق السلطان على ذلك. واستطاع محمد علي أن يقضي على المماليك الذين كانوا يسيطرون على مصر العليا، فأصبح سيد مصر الفعلي.

وفيما يلي فكرة موجزة عما أنجزه هذا الجندي الطموح:

- استولى على الأراضي التي كانت تملكها طبقة الاقطاعيين.
- حول طبقة رجال الدين إلى التقاعد يحصلون على مساعدة من الدولة.

- أخضع طبقة التجار والحرفيين لرقابة الدولة.
- قضى على حركات التمرد بين الفلاحين، وحدّ من نشاطات السكان البدو.
- طور نظام الري الزراعي، وأدخل إلى مصر مزروعات جديدة مثل القطن، والقنب.
- طور الهياكل الإدارية الحكومية للسهر على النشاطات الاقتصادية.
- عمل على إنشاء نظام صناعي حديث لتحويل المواد الأولية.
- ألغى الجيش المكون من الألبان، وأنشأ جيشاً من الفلاحين المصريين، وأسس أسطولاً قوياً.
- أنشأ المعاهد على النمط الأوروبي لتكوين المهندسين، والأطباء، والبيطريين، وأرسل البعثات إلى أوروبا للتدريب على التقنيات الحديثة.

ولكن على الرغم من إنجازاته العديدة، لم تكفل جميع مساعيه بالنجاح لأسباب عديدة منها أن مصر كانت بلداً زراعياً تنقصها التقنيات الحديثة واليد العاملة المدربة؛ ومنها تجنيد الشباب في الجيش لمواجهة الحروب؛ وارتفاع الضرائب واحتكار الدولة للتجارة؛ وارتفاع تكاليف الحروب التي خاضها محمد علي، وغير ذلك.

غير أن محمد علي الذي لم يرث ثروة ولا لقباً مشهوراً، ولم يكن من أصحاب العلم في شبابه، كان ذا عزيمة قوية، وهمة عالية، فمهد الطريق لإنشاء دولة مصر الحديثة.

القسم الثاني



من حديث الروح



يقول الأديب الفيلسوف فولتير: نقول عن «الروح» إنها العنصر الذي يبعث الحياة، ولا نعرف أكثر من ذلك. يعترف الناس أنهم مخلوقات مفكرة، ولا يزعجهم كونهم يجهلون كل شيء عن الروح. وهناك نخبة منهم يتساءلون ويبحثون ، غير أنهم لم يعثروا على شيء يقال له «الروح». ويتابع فولتير حديثه قائلاً:

«مسكين الفيلسوف، يرى نبتة تنمو، فيسميها قوة النمو، أو روح الإنماء...، ويلاحظ أن الأجسام تتحرك، فيسمى ذلك «طاقة»؛ وتلاحظ أنت كلبك يركض وراء الأرنب، فتسمى ذلك «غريزة»؛ وتشعر بأفكار تجول في خاطرك، فتسمى ذلك «تفكيراً»؛ ولكن أخبرني بربك هل شاهدت شيئاً حقيقياً نسميه غريزة، فكرياً، طاقة النمو...، أعني هل شاهدت شيئاً ملموساً أو مخلوقاً منفصلاً ندعوه بهذه الأسماء؟ وكيف تردّ على من يقول لك: جميع المخلوقات والحيوانات «حيّة»، لأنه يوجد داخلها شيء نسميه الحياة أو الروح؟ ويقول فولتير:

«ولننظر قليلاً إلى «معرفتك» وما تعرفه على وجه اليقين، إنك تمشي على رجلك، وتهضم الطعام بمعدتك، وتفكر برأسك، وتحس بجميع جسدك؛ ولننظر إلى ما إذا كان عقلك وحده قد استطاع أن يقودك، من غير مساعدة القوى المتافزكية، إلى أن تستنتج بأن لك «روحاً».

كان قدماء الفلاسفة يقولون بأنه يوجد في داخلنا شيء ينتج أفكارنا، وهذا الشيء ينبغي أن يكون مثل النفس، مثل الأثير، خفيفاً مثل النسيم، بارعاً متناغماً. ويقول أبيقور إن الذرات هي التي تفكر في داخلنا. ولكن يطرح السؤال : من شاهد ذرة تفكر؟

ويميل فولتير إلى القول بأن الروح شيء غير مادي؛ ولكن كيف يمكن للمرء أن يتصور شيئاً غير مادي؟ وقد يقول بعض العلماء إن من طبيعة هذا «الشيء» أن يفكر إذا أخبرونا كيف عرفتم ذلك، أم أنكم تسيرون على درب أبقور؟ إن من طبيعة الصخرة أن تسقط، ولكن ما الذي يجعلها تسقط؟ إنها قوة الجاذبية التي جعلها الله فيها. ولكن هذه الجاذبية ليست مركبة من أجزاء، ولا يمكن تفكيكها. وكذلك قوة الحركة في الأجسام، وقوة النمو في المخلوقات العضوية، وغرائزها، وحياتها، ليست أشياء مادية يمكن تحليلها وتجزئتها، فنحن لا نستطيع أن نفصل قوة النمو في وردة، ولا قوة الغريزة في كلب، ولا قوة الحياة في فرس، ولا أن نأخذ كمية من الشعور فنجزئها. ويقول فولتير:

«إذا أنت لا تستطيع، من دون وحي خارجي، أن تكون فكرة واضحة عن روحك سوى أنها مجرد قدرة على الإحساس والتفكير، قدرة تجهل حقيقتها وجوهرها. والآن أخبرني بصدق هل هذه القدرة على الإحساس والتفكير هي نفسها القدرة التي تجعلك تمشي، وتهضم الطعام؟ وإذا أمرَ وعيُك وفكرُك المعدة بأن «تهضم» وهي متعبة، فهل تلبى الطلب؛ وإذا أمرَ وعيك بأن تمشي، فهل تستطيع أن تلبى الطلب إذا كانت رجلاك عاجزتين عن المشي؟

شعر علماء الإغريق بأن الفكر لا يملك أية سلطة على عمليات الأعضاء فجعلوا لها «روحاً حيوانية»، ولأفكار روحاً عقلانية سامية. ولاحظوا أن هذه الأخيرة تسيطر في معظم الحالات على الأولى. ولكن لاحظوا أن الروح العقلانية المفكرة تأمر اليدين بالفعل فتفعل، ولكنها لا تتحكم في نبضات القلب أو جريان الدم؛ وهكذا وجدوا أنفسهم أمام روحين مرتبكتين محتارتين كل منهما ليست صاحبة الأمر في بيتها.

والواقع أن الروح الحيوانية لا وجود لها، وهي عبارة عن مجرد حركة الأعضاء والأجهزة الحيوية. ويقول الفيلسوف فولتير: إعلم أيها الإنسان أنك لا تملك دليلاً عقلياً على وجود الروح العقلانية السامية ولا تستطيع أن تعرف شيئاً عنها إلا عن طريق الإيمان. فأنت تولد، تعيش، تتحرك، تفكر، تنام، تستيقظ... من غير أن تعرف كيف يحدث ذلك. لقد وهبك الله ملكة التفكير مثلما وهبك القدرة على جميع الأشياء الأخرى؛ ولو أن الخالق لم يعلمك بعنايته أن لك روحاً إلهية قدسية خالدة لما كان لك أي دليل على ذلك.

ولنلق نظرة خاطفة على النظريات التي وضعها بعض الفلاسفة

حول الروح:

- إن روح الإنسان نشأت من روح الإله نفسه؛

- الروح نشأت من روح الكون الكلية العظمى؛

- نشأت من روح الخلود، وإليه تعود؛

- الروح لم تنشأ... بل هي من تصور الإنسان؛

- الروح تنشأ في لحظة التزاوج والإنجاب؛

- الروح من خلق الإله، وهي تنتظر حتى يتكون الجنين، فإذا لم تجد الظرف الملائم تنتظر فرصة أخرى.

ويرى القديس توما الأكويني أنه توجد ثلاثة أرواح «إنباتية»: روح غذائية؛ وروح إنائية؛ وثالثة روح مولدة؛ وأن ذاكرة الأشياء الروحية «روحية»، وذاكرة الأشياء المادية «مادية»؛ وأن الروح العاقلة تأخذ شكلاً لا مادياً، أثرياً، مجرداً، فيما يتعلق بالعمليات الفكرية؛ وتأخذ شكلاً مادياً فيما يتعلق بالملحوقات.

وقد قيل الكثير عن هذه الروح عندما تفارق الجسد الذي كانت تسكنه، وتشعر بواسطة حواسه ومشاعره؛ وكيف يمكنها بعد فراقه أن تسمع بدون أذنين، وتشم بدون أنف، وتشاهد بدون عيينين؛ وأي جسم ستسكنه بعد ذلك، هل هو الجسم الذي سكنته وعمره شهر أو سنة، أو جسم عمره سبعون أو ثمانون سنة؟ وفي هذه الحالة كيف تتعامل الروح مع الأفكار التي عاشتها في سن المراهقة؟ وكيف تتلاءم وتتفاعل مع شخص فقد رجليه في أوروبا، وبُتِرَ ذراعه في أمريكا، وخضع لعمليات أخرى غيرت مظهر جسده، مما يجعل الروح تعيش في مجال حيوي مختلف. ولعلنا لا ننتهي من هذه الغرائب التي نتخيل أن تلاقىها الروح في مسيرتها الطويلة.

ويقول فولتير ما مفاده أنه لم ترد في الأسفار العبرية أية عبارة عن الروح وخلودها؛ وأن موسى عليه السلام لم يعد اليهود بالحساب

والعقاب في حياة أخرى، ولم يحدث قومه عن خلود الروح، ولم يبشّروهم بالجنة، ولم يحذروهم من الجحيم. وقد قال موسى لقومه قبل وفاته⁽¹⁾:

- إذا أخلّلتكم بواجبكم ولم تتجيبوا الأولاد والأحفاد، فستطردون من البلاد، ويقلّ عددكم بين الأمم.

- احترموا أمهاتكم وآباءكم لكي تعيشوا عمراً طويلاً؛ ويتوفر لكم الغذاء فلا ينقصكم شيء؛ وإذا اتبعتم آلهة غير آلهتكم ستمرون جميعاً؛ وإذا أطعتم سترزقون المطر في الربيع وفي الخريف، ويكثر لديكم القمح والزيت والنبيد، والكأل لأنعامكم، فتطعمون وتسكرون.

- احفظوا هذه الكلمات في قلوبكم، وفي أيديكم، وبين أعينكم، واكتبوها على أبوابكم، وبذلك تطول حياتكم.

- افعلوا ما أمركم به، لا تضيفوا إليه شيئاً، ولا تحذفوا منه شيئاً.

- إذا ظهر نبيٌّ يتبأ بحوادث خارقة ومعجزات، وإذا ظهر أن تنبؤاته صحيحة، وقال لكم: هيا، اتبعوا آلهة غير إلهكم» فاقتلوه على الفور، ولينهض كل الشعب معكم.

- عندما يُخضع الإله لكم الأمم، فاذبحوا الجميع ولا تأخذكم رحمة بأحد منهم، ولا تتركوا منهم واحداً على قيد الحياة⁽¹⁾.

- عندما تتمسكون بجميع هذه الأوامر، فسيبارككم الربّ في المدن والبيوادي، ويبارك غلاتكم في بطون أرضكم ويطون أنعامكم.

(1) حسبما يرويه فولتير.

- وإذا أهملت هذه التعاليم والأوامر والاحتفالات فستلغنون في المدن والبوادي، وتعانون الجوع والفقر، والبرد والأمراض.

ويعلق فولتير على هذه التعاليم قائلاً: من الواضح أنه لا يوجد في جميع هذه الوعود والتهديدات إلا أمور دنيوية، ولا يوجد فيها كلمة واحدة عن حياة الآخرة ولا عن الروح وخلودها. ولا يجدي أن نتجادل حول مشاعر موسى السرية، لأن الواقع هو أنه لم يتحدث أبداً، في قوانينه الموجهة للناس، عن حياة مستقبلية، وأنه يحدد جميع ما يتحدث عنه من جزاء وعقاب في نطاق الزمن الحاضر، في الحياة الدنيا. ولو كان يعرف عن حياة الآخرة لماذا لم يعرض بوضوح هذه العقيدة الهامة؟

ولكن يطرح السؤال: إذا لم يتحدث موسى عليه السلام عن الآخرة، فماذا كان هدف رسالته؟ ويجيب كثير من العلماء بأن إله موسى كان يحتفظ لنفسه بأن يشرح لليهود، في الوقت المناسب، عقيدة الدار الآخرة والحساب والجنة والنار، لأنهم لم يكونوا آنئذ جاهزين لإدراك مغزاها وهم قبائل تائهون في الصحراء.

ويشير فولتير إلى أن اليهود لم يتفرقوا إلى ثلاث شيع إلا بعد تأسيس مدينة الاسكندرية⁽¹⁾، وهذه الشيع هي الفرسيون، الصدوقيون، والأسنيون. ويخبرنا المؤرخ يوسفوس بأن الفرسيين (من اليهود) كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح؛ وأن شيعة الصدوقيين منهم كانوا يؤمنوا بأن

(1) أمر ببناء الإسكندرية الإسكندر الكبير أثناء حملاته الشهيرة التي دامت من 334 إلى 323 قبل الميلاد.

الروح تنقرض مع الجسد؛ وأن الأسننين كانوا يعتقدون بأن الروح خالدة. وكانوا يقولون بأن الأرواح تهبط من السماء فتسكن الأجسام، وأن هذه الأرواح إذا كانت في الماضي تسكن أشخاصاً صالحين، تنتقل بعد وفاتهم إلى مناطق وراء المحيط الكبير، في بلاد مناخها معتدل، لا برد فيه ولا حرارة، لا مطر ولا رياح؛ وأن الأرواح التي كانت تسكن أشخاصاً فاسدين، تنتقل بعد وفاة أصحابها إلى مناطق مناخها مخالف للأول. هكذا كانت معتقدات تلك الشيع اليهودية.

ويختم فولتير بقوله: ثم جاء الشخص الذي كان عليه أن يعلم الناس أشياء جديدة (يعني المسيح عليه السلام) فاستنكر كثيراً من المعتقدات اليهودية، «ولولاه لما عرفنا شيئاً عن الروح، إذ أن الفلاسفة لم يتوصلوا إلى فكرة مؤكدة وواضحة عن الروح.

وبقي أن نسأل الفيلسوف الكبير، فولتير، هل جهلت أم تجاهلت ما ورد في كتاب الله على لسان رسوله الأكرم ﷺ عن حديث الروح، وكانت خلاصة هذا الحديث قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الإسراء - الآية 85).

حول الخير والشر



ديموقريطوس (460 - 370 ق.م)؛

كان هذا الفيلسوف اليوناني يرى أن هدف الحياة هو أن يكون المرء سعيداً، لهذا ينبغي للإنسان، في جميع الأوقات أن يبحث عن السعادة؛ ويقول إن السعادة حالة نفسية داخلية تجعل المرء يشعر بالسكينة، وهي تتوقف على ما يتمتع به المرء من تناغم وانسجام واطمئنان.

ومن تعاليمه أن الإنسان في سعيه لتحقيق سعادته، لا ينبغي أن يعتمد على متاع الحياة الدنيا لأنه يأتي ويزول، وزواله يسبب الشقاء. ولذا ينبغي أن تتمثل السعادة في حياة الإنسان الذاتية الداخلية، حياة التوازن، وهي حالة تتطلب التأمل والتعقل.

ويرى ديموقريطوس أن حياة الرجل الفاضل الطيب تتوقف على رغباته النفسية، والرجل الصالح ليس من يفعل خيراً، بل هو من يرغب في فعل الخير في كل وقت.

السوفسطائيون :

هم جماعة من الفلاسفة والمعلمين والكتاب اليونانيين عاشوا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد. وكان معظمهم يسافرون عبر

البلاد الناطقة باللغة اليونانية ويعلمون الشباب الطامحين مقابل أجور ومرتببات.

ويرى بعض هؤلاء الفلاسفة أنه لكل إنسان الحق في أن يحدد لنفسه ما هو خير وما هو شرّ. وكانوا يقولون: ما اعتبره خيراً، يمكنك أن تعتبره شرّاً، والعكس صحيح، وكل واحد حرّ في رأيه.

ولا يخفي ما في هذا السلوك من الفردية والأنانية والفوضى. غير أن بعض علماء العصر الحديث بحثوا هذه الفلسفة ووجدوا فيها بذوراً للحرية الفردية، لأن الشخص المعاصر يطلب الحرية ليفكر كما يشاء، وليحكم بنفسه على ما يراه صالحاً أو فاسداً، وما هو خير أو شرّ.

سقراط (469 - 399 ق.م) :

كان سقراط يميل قليلاً إلى رأي السوفسطائيين، ولكنه لم يرغب في أن يسير على دربهم. كان يعتقد بأنه لا بدّ من وجود مبدأ أساسي للتمييز بين الخطأ والصواب والصلاح والفساد؛ مبدأ يعلو فوق ما يعتقد كل فرد على حده. ولهذا ظل يتساءل: ما هو الخير؟ وما هو الخير الأسمى الذي يصلح لأن يكون معياراً في جميع أنحاء العالم؟ وكان جوابه: إن العلم هو الخير الأسمى.

وكان يرى أنه لا يوجد إنسان سيئ وفساد برغبته وإرادته؛ وأنه إذا عرف المرء ما هو «الخير» فعله. ولهذا فإن أهم ما ينبغي أن يسعى إليه الإنسان هو أن يكتشف ما هو الخير. وهكذا في رأيه تكون الحياة

التي لا تتوقف في مسعاها لمعرفة ما هو الخير الأسمى هي أسمى أنواع الحياة، وهي وحدها الحياة الجديرة بأن يسعى وراءها الإنسان.

أفلاطون (427 - 347 ق.م) :

يرى أفلاطون أن «الخير» مرتبط بنظرية طبيعة الكون؛ فعالم الحواس متغير، سريع الزوال، متلاشي، غير حقيقي، وهذا شرٌّ. والعالم الحقيقي هو عالم الأفكار الطاهرة الصرفة الذي لا يتغير. ولا يعرف الإنسان هذا العالم إلا عن طريق العقل، وعلى هذا فإن العقل هو الخير الأسمى للإنسان. والهدف هو تحرير الروح من الجسد لتستطيع أن تتأمل مباحج العالم الحقيقي، عالم الأفكار.

أرسطو (384 - 322 ق.م) :

أرسطو تلميذ أفلاطون، ومعلم الإسكندر المقدوني؛ وهو يقول: إن لكل عمل يقوم به الإنسان هدفاً، وهذه الأهداف سلسلة لا تنتهي، لأن الإنسان ينجز عملاً للحصول على شيء ما، ويستغل هذا الشيء لينال شيئاً آخر، وهكذا... وتساءل أرسطو: ما هو الخير الأسمى؟ الخير الذي يحقق به المرء كل شيء إذا وصل إليه؟ وتوصل إلى جواب مفاده أن هدف كل شيء في العالم هو أن «يحقق نفسه» إلى أقصى حدٍّ ممكن. وكل شيء يختلف عن جميع الأشياء الأخرى، وهو يتمتع ببعض المميزات والمواهب والخصائص. ويكمن الخير في أن يحقق هذه

القدرات والمواهب. وهكذا يخلص أرسطو إلى أن تحقيق الذات هو الخير الأسمى، وهو ما تهدف إليه جميع الأعمال.

وبما أن ما يميز الإنسان هو «العقل»، فإن الخير الأسمى هو أن يسعى إلى تنمية عقله إلى أعلى مستوى ممكن، وهذا ما يجلب له السعادة، لأن المتعة ترافق تحقيق المرء لعقله تحقيقاً سليماً وكاملاً.

ولكن العقل ليس سوى جزء من الإنسان الذي يتمتع كذلك بالمشاعر، والرغبات، والشهوات؛ لذلك فإن الحياة الكاملة هي الحياة التي تتحقق فيها جميع مكونات الإنسان بانسجام وتوازن، حيث يكون العقل هو الحاكم، والمشاعر والرغبات مطيعة.

وهكذا لتحقيق السعادة ينبغي أن تسود المواقف العقلانية التي يسيطر فيها العقل على المشاعر والرغبات. ويقول أرسطو إن هذه المواقف تتألف من جملة من «الخصائل الذهبية»، فعلى سبيل المثال «الشجاعة» خصلة وسيطة بين الجبن والتهور. والرجل الفاضل هو الذي يحيا حياته وفقاً لهذه القواعد أو الخصال الذهبية، ولا ينزلق نحو التطرف في أفعاله.

ويلاحظ أن بعض المفكرين في القرنين الأخيرين اهتموا بقضية الخير والشر من زاوية علاقات الإنسان الاجتماعية، وتناولوا موضوع الأخلاقيات من وجهة نظر المجموعة البشرية، لا من زاوية القوانين الإلهية. وبالنتيجة أصبح موضوع الخير والشر متعلقاً بأفعال الإنسان في علاقاتها بالظروف التي تنجز فيها.

وترى هذه المجموعة أن الخير هو ما يخدم أهداف المجموعة البشرية والفرد معاً؛ وأن العمل الخيري هو ذلك العمل الذي يعتبر الفرد كهدف في حد ذاته، وليس كوسيلة فقط. فالفرد البشري، كوحدة اجتماعية هو معيار الخير والشر، فهو عندما يثري حياته أو يفقرها، يثري أو يفقر حياة المجموعة. وهذه الفلسفة تربط الفرد والمجتمع بمصير مشترك، لأنها ترى أن «مميزة الفردية» من إنتاج المجموعة، وليس لأي شخص فردية إلا ضمن إطار المجموعة.

حول التاريخ



كلمة History (تاريخ) في أصلها الإغريقي تعني «البحث»، وعملية الحكم على البيانات من أجل التمييز بين الحقيقة والخيال. ويجدر التفريق بين نوعين من البحث: البحث العلمي، والبحث التاريخي. كان هدف البحث قديماً أن يفرق الباحث بين المؤرخ والشاعر، بين كتاب الأساطير والخرافات.

وقد استحق المؤرخ هيرودوت لقب «أبي التاريخ» لأنه أَلَفَ بطريقة تختلف عن كتابة الشعر، إذ لم يحاول أن يكتسب إعجاب القارئ بسرد الحكايات فقط، بل كان يذكر المصادر التي اعتمد عليها في بحث المراجع وجمع البيانات التي استقى منها معلوماته.

فالشاعر يحاول أن يؤلف قصصاً وحكايات جذابة، أو ملاحم محتملة الوقوع، أما المؤرخ فيكتب معتمداً على بيانات موثوق بها، عن حوادث قد مضت. وقد يقدم معلوماته للقارئ ويترك له حرية الحكم عليها.

ويلاحظ أن المؤرخ هيرودوت كان يعي الفرق بينه وبين الشاعر الشهير هوميروس، خاصة بالنسبة للموضوعات التي عالجها هذا الشاعر، والتي تقع كذلك في نطاق الحوادث التي عالجها هيرودوت. ويورد هذا الأخير شواهد من ملحمتي الأوديسة والإلياذة لهوميروس، كمصدر لمعلوماته، ولكنه لا يفعل ذلك إلا بعد أن يقارنها بمصادر أخرى.

وبما أن المؤرخ، أثناء عمله، يقوم بدوري الباحث والراوي معاً، فمن الممكن مقارنته بالعالم من جهة، وبالشاعر من جهة أخرى. ولا شك أن ميزة التاريخ كنوع من المعرفة تختلف عن العلم أو الفلسفة، لأنه يركز على حوادث الماضي. أمّا العالم والفيلسوف، فلا يهتم فقط بما حدث، بل يبحث طبيعة الأشياء. وقد يتخذ العالم بعض الحوادث كبيانات ودلائل، غير أن استنتاجاته تتجاوز الحادثة المحددة إلى بيانات عامة تشمل طبيعة الأشياء في الحاضر، وفي أيّ مكان وزمان. وعلى هذا فإن بحوث المؤرخ تبدأ وتنتهي بحوادث محددة. ويمكن القول بأن البيانات والبراهين التي نجدها لدى العالمين أبقراط أو أفلاطون تشير إلى الاختلاف بين العالم والفيلسوف من جهة، وبين المنهج الذي يتبعه المؤرخ.

ويشير أرسطو إلى التباين بين العلم والفلسفة من جهة، والتاريخ من جهة أخرى، فيقول: إن الشعر أقرب إلى الفلسفة لأنه يعبر عن الأشياء العامة والكونية، أما التاريخ فيهتم بالحوادث الخاصة، وبما حدث في الماضي؛ بينما نجد أن الشعر، مثل الفلسفة، يمكن أن يتناول كل ما هو كائن أو سيكون.

وعلى خلاف الشعر، نجد أن التاريخ والعلم يتشابهان في كون كل منهما يحاول أن يبرهن على ما يقول. غير أن التاريخ يختلف عن العلم والفلسفة لأنه يشبه الشعر بصفة خاصة عندما يتناول الملاحم والقصائد المسرحية الكبيرة، فيصبح نوعاً من الأدب القصصي. فالمؤرخ والشاعر كلاهما يروي القصص ويسجل الملاحم.

وفيما يتعلق بالأهداف التي يسعى إليها المؤرخون، وبمناهج

عملهم، نجد بعضهم يعلنون بكل وضوح عن الأهداف التي يسعون لبلوغها، وعن المعايير التي يدللون بها على صحة معلوماتهم، ويعتمدون عليها في انتقاء الحوادث والحقائق الهامة، ويرتبون على أساسها تحليلات توضح مغزى الحوادث التي سجلوها. فيقول المؤرخ هيرودوت، على سبيل المثال، إن هدفه فيما يسجل أن يحفظ الأعمال العظيمة التي أنجزها اليونانيون والبربر من البلى والاندثار. ويعلن المؤرخ توسيدايدس أنه يسجل ما يعتبره أعظم الحروب بين الأثينيين والبيلوبونيزيين. ويقول المؤرخ تاسيتوس: إن هدفه ليس أن يقص بالتفصيل كل حادثة، بل أن يسجل ما بلغ حدود الروعة والامتياز، أو ما انتشرت أخباره بسبب ما جلب من الشرور والدمار. فلا أترك الأعمال العظيمة تندثر في طي النسيان، ولا أهمل الأعمال الإرهابية والإجرامية وعواقبها، لكي تعتبر بها الأجيال القادمة.

وتجدر الإشارة إلى كتابين تناولوا الحديث عن فلسفة التاريخ، وحاول المؤلفان صياغة نظرية شاملة لحياة الإنسان على الأرض. الكتاب الأول «مدينة الله» للقديس أوغستين، والثاني كتاب فلسفة التاريخ للفيلسوف هيغل. تناول الأول الموضوع من وجهة نظر لاهوتية، والآخر من وجهة نظر فلسفية. والمقارنة هنا لا تعني أن كتاب هيغل يخلو من الحديث عن الإله ورعايته، بل إنه يرى أن تاريخ العالم كله «عبارة عن عمليات تطور مستمرة تحقيقاً لروح القدس». أما القديس أوغستين فيرى كل شيء يحدث في نور الله وخطته كما وردت في الكتاب المقدس.

ويحاول هيغل (ومعه فلاسفة آخرون) أن يكتشفوا في سجلات التاريخ القوانين التي تحكم تتابع الحوادث وترباطها وتطورها، والنموذج الذي يلازم هذا التطور منذ الأزل حتى نهاية تاريخ البشرية.

ويرى القديس أوغستين أن الإنسان أثناء وجوده على الأرض يمر بأربعة مراحل ضمن التدبير الإلهي ورعايته:

- مرحلة وجوده في الجنة قبل سقوطه.

- مرحلة وجوده في الدنيا، بعد إخراجه من الجنة، وقبل نزول الشرائع على بني إسرائيل.

- مرحلة وجوده حتى مجيء المسيح (عليه السلام).

- مرحلة حياته الحالية تحت العناية الإلهية.

ويتحدث أوغستين عن تقسيم آخر لمراحل التاريخ، ويضعها كذلك في إطار ديني. فهو يقسم الزمن التاريخي إلى سبعة أقسام :

- المرحلة الزمنية الأولى، وتمتد من عهد آدم إلى زمن الطوفان.

- المرحلة الزمنية الثانية وتمتد من عهد الطوفان إلى زمن إبراهيم (عليه السلام).

- المرحلة الزمنية الثالثة، من عهد إبراهيم إلى عهد داود (عليهما السلام).

- المرحلة الرابعة، من عهد داود إلى تاريخ أسّر بني إسرائيل.

- المرحلة الخامسة، من زمن أسر بني إسرائيل إلى ميلاد المسيح (عليه السلام).

وتعيش البشرية الآن (حسب نظرة أوغستين) في المرحلة السادسة، وتأتي بعدها المرحلة السابعة، عندما يعود المسيح، وهي تمثل مرحلة الراحة الأبدية للبدن والروح معاً.

وإلى جانب وجهة نظر هيغل الفلسفية، ووجهة نظر أوغستين اللاهوتية، تمكن الإشارة إلى نظرية كارل ماركس المتعلقة بالجدلية المادية التي تعتبر أن ما يحكم هذا الكون هو وجود وحدة جدلية (ديالكْتية) مادية بين متناقضاته؛ وأن التفاعل التراكمي نتيجة ما يحدث من تحولات في التاريخ، وما يصاحبه من تطور بشري، كل ذلك يؤدي إلى حدوث اختلالات بين القديم والجديد، ثم تؤدي مسيرة التطور البشري في نهاية المطاف إلى صراع بين الطبقات؛ وفي النهاية تتصر الطبقة العاملة على الطبقة البرجوازية الحاكمة.

ومن الملاحظ أن هناك تحولات دورية تحدث في الطبيعة، تغيرات بيئية تشبه التغيرات الدورية التي تسيطر على البشر، جيلاً بعد جيل، مثل الميلاد، والنمو، والاضمحلال، والموت. وقد لاحظ المؤرخون منذ القدم كيف يدور الزمان دورته، «ويعيد التاريخ نفسه»، وكم من مدن عظيمة اندثرت وأصبحت أثراً بعد عين؛ وأخرى كانت متواضعة مهملة، أصبحت قوية مزدهرة؛ وكم من حضارات سادت وازدهرت ثم انطفأت شعلتها، وكم من دول قويت شوكتها وانتشر صيتها، ثم اضمحلت ونشأت بدلها دول أخرى، وظلت عجلة الزمان تواصل دوراتها.

يروى أفلاطون أسطورة العصر الذهبي فيقول: هناك أزمنة يقود فيها الإله العالم ويساعده على التطور في مسيرته؛ وأزمنة أخرى تنتهي فيها المرحلة الدورية المحددة، ويتلقى هذا العالم الوحي من خالقه بأن يسير في الاتجاه المعاكس. وهكذا يمرّ تاريخ العالم بدورات متواصلة، ويتلو كل عصر عصوراً سابقة في دورات لانهائية».

أما الشاعر الروماني الكبير فيرجيل فيرى أن بناء مدينة روما كان بداية العصر الذهبي، وأن الإله جوبيتر بنفسه منح الرومان ملكاً بدون نهاية زمانية ولا مكانية، وأنه سيأتي يوم تسود فيه روما الخالدة العالم، ولا تترك مكاناً ولا زماناً لما يعرف بدورات التاريخ وتحولاته التي تبدأ بالازدهار، وتنتهي بالاندثار.

ويبدو أن العقيدة المسيحية القائلة بخروج الإنسان من أحضان العناية الإلهية (خروج آدم من الجنة)، ثم عودته إلى أحضان العناية الإلهية بفضل الوسط الإلهي، تعطي للتاريخ نمطاً يشبه إلى حد ما النظرية الأفلاطونية المتعلقة بدورات التاريخ من ازدهار وانحطاط، من حيث أنها تجعل زوال العصر الذهبي فرصة تسمح للإنسان بأن يسعى بالتقوى والعمل الصالح لاسترجاع ذلك العصر الذهبي والنعيم المفقود.

وإلى جانب هذه المجادلات حول أهداف التاريخ ودوراته وتحولاته هناك آراء تهتم بدور التاريخ في الثقافة، وما يقدم من تنوير للفكر البشري، ومن تجارب تتفع الإنسان في مسيرة حياته. نجد الأديب مونتيني، على سبيل المثال، يجعل من قراءة التاريخ وسير العظماء نافذة ينظر منها الإنسان إلى العالم. ولا يعرف الإنسان حقيقة وجوده إلا عندما يتأمل المشاهد الواسعة وطبائع البشر المختلفة التي يكشفها التاريخ.

ويقول المؤرخ غيبون: إن تجارب التاريخ توسع آفاق نظراتنا وتثري أفكارنا وتخيلاتنا. ولكن هيغل يرى أن الدول والمجتمعات لم تتعلم من تجارب التاريخ شيئاً، ولم تنتفع بالدروس والعبر التي يزخر بها تاريخ البشرية. ولكن المؤرخ تاسيتوس يؤكد أن معظم الناس يتعلمون الحكمة من نجاح الآخرين أو فشلهم. ونلاحظ أن مفكرين مثل مكيافيلي ومونتسكيو يستخدمون التاريخ لتقديم أمثلة تؤيد آراءهم ومبادئهم. ويقول المؤرخ تيوسايدس بأن معرفة الماضي تساعد على فهم المستقبل وتفسير حوادثه التي يمكن أن تعكس جانباً من حوادث الماضي⁽¹⁾.

(1) المرجع : هذا الموضوع ملخص من موسوعة:

Great Books of the Western World, The Great Ideas (Syntopicon- vol. 2 - Chapter 34).

حول اليوطوبيا



حول اليوتوبيا UTOPIA



كلمة اليوتوبيا (UTOPIA) تعني مكاناً أو شيئاً لا وجود له. وقد وضع عدد من الأدباء والفلاسفة مشروعات وخططاً لإصلاح ظروف المجتمع، وتحسين مستوى أخلاقهم ومعيشتهم. وتوصف هذه المشروعات الإصلاحية بأنها مثالية خيالية، أو متطرفة يتعذر تحقيقها، أو مفرطة في التفاؤل؛ أو لا أخلاقية... إلخ. ونلاحظ بين مؤلفيها من يعبر عن نية طيبة ورغبة صادقة؛ ومن ينطلق من أفكار سلبية ومبادئ مجحفة ليصل إلى نتائج ضررها أكثر من نفعها.

وكم نشاهد من المحرومين والمعذبين في الأرض يعانون ويتألمون من الجوع والمرض، ويشقون بسبب أنانية بني جنسهم وظلمهم. وكثير من الناس يتألمون لمشاهدة الفئات المحرومة، ولكنهم لا يستطيعون توفير المساعدة لهم. ومن هذه المشاهد الإنسانية المؤلمة انطلقت رغبة معظم كتاب اليوتوبيا، فراحوا يرسمون خططهم، ويقترحون مشروعاتهم لإنشاء مدن ومجتمعات متكاملة ومنظمة مادياً وسياسياً وأخلاقياً، تتمتع في ظلال العيش الكريم.

من هؤلاء الكتاب من تخيل مجتمعا متجانساً، أفراد مخلصون في أداء واجباتهم، رحماء بينهم، مطيعون للمسؤولين؛ ومنهم من تصور مدينة لا يعرف أهلها الكذب، والظلم والأنانية والاحتيال؛ ومن كتاب

اليوطوبيا من يدعو إلى مجتمع خال من النقود، يعتمد على نظام مقايضة سلعة بأخرى؛ ومنهم يقترح نظاماً تسيطر فيه النساء على جميع مقاليد الحكم؛ ومن يتخيل أن السيد المسيح عاد إلى الأرض ليظهرها ويملاًها عدلاً وسلاماً، ويصلح شؤون البشر؛ ومن يدعو إلى تغيير السكان الموجودين حالياً (أو عزلهم) من أجل إنشاء مجتمعات جديدة صالحة للحياة؛ ومن يدعو إلى تسليط أشد أنواع العقاب على المفسدين والأشرار للقضاء على رذائلهم؛ ومن رأيه عكس ذلك، فيؤكد أن الفساد ومساوئ السلوك ليست من صنع الإنسان، ولا ينبغي أن يحاسب عليها، لأنها ميراث جيناته المحتوم عليه، ولأن المجتمع هو المسؤول عن تربيته وتقويم سلوكه؛ ومن مشروعات كتاب اليوطوبيا من يقترح صراحة التخلص من المرضى والمعاقين لأنهم يفسدون حياة غيرهم.

ومعظم مشروعات اليوطوبيا تتخيل مجتمعات خالية من الفقر، والجهل، والظلم، ينعم جميع مواطنيها بالمعرفة والمساواة، ومن هؤلاء الكتاب من يدعو إلى إلغاء العلاقات الأسرية، وبدل ذلك تتولى الدولة تربية الأطفال ورعايتهم، والهدف هو أن تنشأ الأجيال في إطار ظروف تربوية موحدة تحت رعاية الخبراء والخبيرات؛ ومن أصحاب المشروعات الاجتماعية من عمل على إنشاء إمبراطورية تسيطر على بقية الشعوب، والمثال الواضح في هذا الصدد هي سياسات هتلر وخطته التي اعتمدت على القوة لإخضاع الدول، وتنفيذ مشروع نقاء العرق الآري، ورفع شأنه فوق جميع الشعوب الأخرى.

وانتشرت في العهود الأخيرة مشروعات تدعو لتحديد النسل والحد من تكاثر السكان. وكان ممن نادوا بهذه الفكرة الكاتب H.G.Wells (سنة 1899) ، مؤكداً أن زيادة السكان ستؤدي في النهاية إلى تدمير بيئة النباتات والحيوانات والمياه، وانتشار المجاعة والأوبئة. وكان ويلز يرى أنه إذا أمكن القضاء على معظم سكان آسيا وأفريقيا، وعلى المعاقين والمجرمين من سلالة الجنس الأبيض، فإن هذا سيخفف العبء على كوكب الأرض.

وتجدر الإشارة إلى ثلاث شخصيات هامة ممن تناولوا موضوع المدن الفاضلة والمجتمعات المثالية، لا تُفصّل مشروعاتهم في هذه العجالة، إذ سبقت الإشارة إلى أعمالهم. وهؤلاء هم الفيلسوف أفلاطون في كتابه «الجمهورية»⁽¹⁾؛ ورجل الدين والدولة توماس مور في كتابه "UTOPIA"⁽²⁾؛ والفيلسوف كمبانيلا في كتابه «مدينة الشمس»⁽³⁾.

وفيما يلي فكرة موجزة عن برامج ومخططات عدد من الكتاب الذين تناولوا موضوع إصلاح ظروف الإنسان (أو إفسادها) كل واحد حسب أفكاره وتصورات.

-
- (1) انظر كتابي «حصاد الأيام» طبعة 2008، صفحة 105.
 - (2) الكتاب السابق، صفحة 35.
 - (3) كتابي «نفحات من الأدب العالمي»، طبعة 2008، صفحة 146.

الدولة الصالحة

Edward J. Martyn (1859 - 1923)



كان مارتين من أنصار الحركة الوطنية الأيرلندية، لأنه كان ممن يرغبون في تخليص بلادهم من «شوائب العالم النجس». وكان متحمساً للعقيدة الكاثوليكية، يكره الديمقراطية، ويكره إنكلترا التي كانت في نظره تمثل النزعة المادية الجديدة.

ويقول في كتابه "Morgante the Lesser" إنه يرغب في إنعاش الفن، والعودة بإيرلاندا إلى اللغة الغيلية (لغة السلتيين)، لأنه كان يرى في ذلك شبهاً بالفن اليوناني الكلاسيكي. وينتقد مارتين العقائد البروتستانتية، وحركة التنوير الأوروبية، والحركة الاشتراكية؛ وكان يرفض أن يدخل النساء حلبة الانتخابات.

ويتحدث مارتين في كتابه عن الحياة في جزيرة خيالية أسماها Agathopolis (الدولة الصالحة) فيصف نظام الحكم بأنه نظام الاستبداد «الرشيد»، وأنه يفضل على الديمقراطية «العمياء»؛ وأن عقيدة السكان هي الكاثوليكية؛ ولغتهم اليونانية. وأن فن النحت يزدهر فيها، لأن فناني الجزيرة يستلهمون إبداعاتهم من التماثيل اليونانية، ومن مشاهدة أجسام الفتيان والفتيات وهم يتدربون وفقاً للأساليب اليونانية الكلاسيكية.

وبصدد الحديث عن حياة السكان اليومية يقول المؤلف : «ينهض السكان مبكرين، ينعشهم مناخ الجزيرة المعتدل، وعلى كل مواطن أن يستحم مرة كل يوم، على الأقل؛ بعد ذلك يحضر السكان القداس في أقرب كنيسة إليهم؛ ثم ينصرف كل مواطن إلى عمله أو دراسته.

بعد فترة الغداء، يذهب كل من له فترة استراحة لمشاهدة النشاط الذي يلائم هوايته، مثل استعراض الكتيبة البحرية؛ أو المباراة الرياضية؛ أو مسابقة الفروسية في الملعب الكبير؛ أو يشارك في نشاط الصيد في البراري...

يتناول السكان وجبة العشاء بين السادسة والسابعة مساءً؛ وتمثل هذه المناسبة فرصة للقاءات اجتماعية يسودها الكرم والمرح والسهرات الممتعة.

مجتمع الثراء والشقاء

Ignatius Donnelly (1831 - 1901)



يتخيل الكاتب أن مدينة نيويورك، مدينة الرفاه والتبذير، تحكمها شرذمة من اليهود الأثرياء، وتشتدّ فيها ظروف الفقر والشقاء، لذلك يكثر فيها عدد الذين ينتحرون. ويقول:

«لقد أنشأ المسؤولون تسهيلات ومباني لا ثقة، مؤثثة ومزخرفة، ليس للتخفيف من آلام المحرومين، بل ليلجأ إليها الأشخاص الذين يقررون الانتحار. وبعد أن يكتب المواطن البئيس وصيته، يشرح له الطبيب طبيعة أنواع السموم وتأثيرها، ويترك له أن يختار النوع الذي يرغب في تناوله.

يتناول المواطن الشقي الجرعة المميّنة، ويستلقى على الفراش، أو في الصندوق المهيأ له، في جو من الألحان الموسيقية اللطيفة الهادئة، ولا «يستيقظ إلا على الشاطئ الآخر من الحدود الفاصلة بين الأرض والسماء. وهكذا، في كل يوم يهلك مئات من الرجال والنساء، في قلب المدينة الثرية المتحضرة، وتحمل جثامينهم إلى المحرقة العظمى. ويؤكد المسؤولون أن هذه الطريقة من أساليب الانتحار يفضلها الناس لأنها لا تترك جثامينهم مبعثرة في الحدائق والشوارع.

(1) عنوان هذه الحكاية الخيالية هو : Caesar Column.

ويضيف الكاتب رأيه قائلاً:

«غير أنني على يقين من أن مشاهد الانتحار هذه صدمة كبيرة، وعار شنيع على ضمير هذا المجتمع المتحضّر الذي أصبح بؤرة للفساد والمخدرات وعبادة المال. وأصبح الناس الذين يرغبون في إنهاء حياتهم يشعرون باليأس، وبأنهم لا قيمة لحياتهم، فيحولونها إلى «لاشيء».

مجتمع المشاعر المنسجمة

Charles Fourier (1772 - 1837)⁽¹⁾



حاول شارل فورييه أن يؤسس مجتمعاً فاضلاً سعيداً على أساس المشاعر المنسجمة والميول المتشابهة بين الناس، وأسماه مجتمع الانسجام (HARMONY).

يقول فورييه: إن الإنسان يجذب بمشاعره وميوله نحو الناس الذين يجد فيهم مشاعر ونزعات ونشاطات وميولاً تتآلف مع مشاعره. وإذا استطاع علماء النفس (والخبراء بسلوك الإنسان مثله) أن ينظموا المجتمع بطريقة تجمع الناس في تجمعات وكتائب تتآلف مشاعرهم وتتشابه ميولهم، وتدفعهم رغبات طبيعية نحو أعمال متماثلة، فإن البشرية ستعيش في وئام وانسجام ورفاهية، وتتمتع بمتعة نفسية وحسية، في حرية متوازنة مع الطبيعة البشرية.

ويؤكد المؤلف أنه لتحقيق «مجتمع الانسجام»، ينبغي أن نعطي الأولوية للمشاعر المتماثلة، وأن نعمل على التنسيق بينها بدقة وعناية. ولتحقيق هذا التنسيق علينا أن ندون في سجلات مجموعات المشاعر والرغبات الأساسية الضرورية لإنشاء سلسلة من التجمعات البشرية المنسجمة فيما بينها. ويحذر فورييه من أن الحضارة الحديثة تعرقل المشاعر الطيبة، وتعمل على كبتها، لذلك فهي لا تحقق سعادة الإنسان.

(1) المرجع : The Utopian vision of Charles Fourier (Textes).

ويوجه فورييه الخطاب إلى الفلاسفة فيقول: أيها الفلاسفة لا يجدي أن تكتفوا بالبحث عن سعادة الإنسان في المكتبات؛ بل الأولى أن نتعاون لنقضي على التطورات الصناعية التي تنشر الآفات والشورور في المجتمع؛ إنها مناهضة للإرادة الإلهية.

إنكم تشتكون من أن الطبيعة لم تساعدكم على كشف أسرارها، ولعل السبب هو عجز مناهجكم وأساليب عملكم، فإما أن الطبيعة لا تريد الخير للإنسان، أو أنها ترفض أن تستسلم لنظرياتكم. ألا ترون أنها تتجاوب بسهولة مع جهود الأطباء؟ ذلك لأنهم يدرسون قوانينها، بدلاً من أن يفرضوا عليها آراءهم. أما أنتم فتلجؤون غالباً إلى المجادلات النظرية التي تخنق صوتها، وتهملوا عوامل التجاذب والترابط بين الناس التي تتبع من الطبيعة وتتنطق بلسانها؛ وهو ما يؤدي في نهاية المطاف إلى إعمار المجتمعات، وإنشاء التجمعات البشرية المتألفة المتحررة.

ولإنشاء المجتمع المنسجم (الخيالي) قام فورييه بإعداد حسابات دقيقة عن السكان، فتوصل إلى أنه يوجد 810 نماذج من شخصية الإنسان العامة، كل شخصية تمثل تشكيلة مختلفة من المشاعر الاثنى عشر الأساسية، وأضاف مثل ذلك العدد ليشمل النساء، فأصبحت النماذج لديه 1620 نموذجاً. وكان هذا، في نظره، هو العدد الأمثل الذي ينبغي أن يتمثل في كل مجموعة بشرية لتكون السلسلة الطبيعية للمجتمع الأمثل.

وتناول فورييه تفاصيل الحياة العملية داخل مجتمعه المثالي،

فوصف المباني، والقاعات العامة، والمباني المخصصة لتناول وجبات الطعام، وقاعات الدراسة، والمكتبات، وقاعات الرقص والتسليّة، والمعابد، والأسواق، والشوارع، والقصور المزخرفة... وغير ذلك.

ويقول المؤلّف، لكل مواطن في مجتمع الانسجام Harmony الحق في خمس وجبات غذائية في اليوم، ويحصل على جميع ضروريات الحياة من سكن، وملابس، ووسائل الترفيه... سواء اشتغل أو لم يشتغل. والعمل في هذا المجتمع نوع من التسليّة، مضمون لكل مواطن، وهو يختار نوع العمل الذي يلائم ميوله ورغباته الطبيعيّة. فإذا كانت نفس المرء، مثلاً، تنزع نحو الأشغال العنيفة، أو تميل إلى الأعمال الدمويّة، ولا تأنف من المشاهد الوحشية، يوجه منذ شبابه إلى العمل في المسالخ، أو يعمل جزّاراً.

ويعود فورييه فيذكر أن المشاعر والميول والرغبات والإحساسات، مهما كان نوعها، هبة من الله، فلا ينبغي كبتها، بل توجه نحو استعمالات مفيدة، وأن تستغل لصالح الحياة العامّة. فإذا لاحظنا أن بعض الأولاد والبنات لا يرفضون القيام بالأشغال الوسخة، نوجههم منذ صغر سنهم إلى العمل في تطهير مجاري الصرف الصحي وجمع الفضلات وتنظيف الشوارع.

أما الأشغال الشاقة، مثل إصلاح الأراضي، وحفر قنوات المياه، وإنعاش الغابات والصحراء، وإعمار المناطق التي دمرتها الحضارة، فتتهض بها الفرق المتخصصة من جيش الأشغال الصناعيّة والزراعيّة.

وتشتغل النساء جنباً إلى جنب مع الرجال، لتتوثق العلاقات،

ويتعمق التعارف، ويختزن عشاقهن من بين رفقائهن في العمل. وتساعد هذه الأوضاع على أن يجتمع العمل بالعلاقات الجنسية، فلا يكون الحب مجرد فترة استراحة تبعد المرء عن عمله، كما يحصل في المجتمعات المتحضرة الآن.

ويولي فورييه اهتماماً كبيراً للعلاقات الجنسية في مجتمعه الحر، ذي الميول والرغبات المتجانسة، فيشرح بأنها، أي العلاقات الجنسية، منظمة تنظيمًا دقيقاً، لأن المجتمع يسعى إلى توفير المتعة إلى جميع المواطنين: المعاقين، العجزة، كبار السن... بالإضافة إلى الفتيان والفتيات، وينظم المسؤولون مجموعات من النساء لتلبية الرغبات الجنسية للفئات التي تنقصها الجاذبية، حتى لا يحرمون من تلك المتعة الحيوية.

ويسهر على تنظيم العلاقات الجنسية لجميع الناس من مواطني مجتمع الانسجام نساء ورجال مسؤولون من ذوي التجربة، وتعدّد اجتماعات «لمجالس الحب» كل مساء، وبعد المناقشات وتبادل الآراء مع الراغبين والراغبات في هذه العلاقات، يجري ترتيب الاختيارات بين جميع المرشحين على أساس سجلات تتضمن معلومات عن ميول الفتيان والفتيات ورغباتهم.

ويشجع المجتمع نظام تعدد الزوجات، العلاقات الجنسية الحرة، دون زواج، ولا يفرض على هذه العلاقات أية شروط أو عراقيل، فهي تتم دون خوف ولا حياء ولا سرية. ويستتكر المجتمع نظام الزوجة الواحدة، ويعتبره تضييقاً لمجالات الحب وحرية المواطنين.

حول الخير والشر

John trotter



يتحدث المؤلف في كتابه عن بلد خيالي يحكمه خبراء في فِراسة الجمجمة والرأس، ويقول إنهم يفحصون رأس الطفل ويتبأون بميوله ونزعاته الداخلية نحو الخير أو الشر. ويتساءل: إذا كان ميراث الإنسان من جينات أبائه وأجداده، ثم تأثير البيئة والتربية...، هو ما يحدد نوع سلوكه، فهل يحق للمجتمع أن يعاقبه على تصرفاته السيئة؟ وفي الفقرات التالية يشرح أحد الحكماء في ذلك البلد الخيالي، بإيجاز:

يقول المؤلف: «تجراً الزائر وطرح على الحكيم السؤال: هل تقولون إن أنواع التصرفات السيئة هي خارجة عن إرادة المرء؟ وهل هذا ينطبق على السلوك الأخلاقي الفاضل كذلك؟ وهل الأشخاص الذين ينزعون نحو الإجرام مثل القتل، والسرقعة، والسلب، والاحتيال... مجبرون على ما يفعلون، أي أنهم يخضعون لنزعاتهم الطبيعية الموروثة؟

فأجاب الحكيم: يمكن القول بأن نزعات الأطفال يمكن تحويرها والتأثير على موروثاتها بواسطة التربية السليمة المتواصلة. وبالنسبة للبالغين، فإن صديقي الدكتور سكيليني يعالجهم بمزيج من الحشائش التي تؤثر على الرأس، وعلى الطبع والسلوك. ولكن عندما تأخذ

(1) العنوان الأصلي : Travel in phrenogasto (تأليف عام 1829).

الجمجمة شكلها النهائي، يمكن القول بأن إخراج حجرة من الثلج المتجمد أسهل من تغيير ميل الشخص ونزعاته».

«إذا كأنك تقول، يا سيدي، بأن الآلهة التي شكلت جمجمة الفرد بشكل يدفعه إلى الإجرام هي المسؤولة على الجرائم التي يرتكبها!

أرى أن لا نسميها «جرائم» يا سيدي، فإن مثل هذه العبارات، والحمد لله لم تعد تستعمل في بلدنا. والواقع أن التصرفات اللاأخلاقية تكلف مرتكبيها غرامات محددة مقابل كل تصرف سيئ.

وقد شرحت كيف أن جمجمة الإنسان، بعد سن معين، تتحجر عظامها وتتخذ شكلاً نهائياً، بحيث تصبح مواهبه وقواه العقلية متجمدة لا يمكن التأثير عليها. وفي هذه المرحلة لا تنسب الأفعال السيئة إلى مرتكبيها، بل إلى الأشخاص الذين لم يسهروا على تربيته في طفولته، ولذلك فإن الغرامة المفروضة مقابل فعل الشر وسوء التصرف تؤخذ منهم، وليس ممن أساء التصرف.

مذكرات العام ألفين وخمسمائة Louis Sebastien Mercier (1740-1814)



يروى مرسى في قصته الخيالية أن رجلاً من عصره توفي، ثم عاد إلى الحياة بعد سبعمائة عام، فوجد أن حياة الناس وظروف معيشتهم قد تغيرت؛ فقد اختفت الأخلاق الرذيلة، وتحسنت جميع مرافق الحياة، والمؤسسات في مدينة باريس. اختفت الأنانية والغرور والفساد، وسادت أخلاق التسامح والمحبة والكرم والإيثار. وحتى النساء أَصْبَحْنَ طائعات لطيفات، لا يفعلن إلا ما يرضي أزواجهن.

لاحظ ذلك الرجل، عندما استيقظ، أن باريس أصبحت نظيفة لا أثر فيها لروائح التلوث والغازات المزعجة؛ وأنها تزخر بالحدائق والنافورات الجميلة التي تتبع منها مياه صافية صالحة. ووجد أن السكان يتجولون في شوارع المدينة النظيفة، ويرتدون ملابس خفيفة ملونة، ولاحظ أن الملك نفسه وحاشيته يتجول وسط السكان؛ وقد تحول حصن الباستيل الشهير إلى معبد ضخم كتب على مدخله «معبد التراحم».

أصبح الناس، كما يتخيلهم الكاتب بعد سبعمائة سنة، يعيشون حياة بسيطة سعيدة آمنين؛ والمكتبات تعتبر مجرد مقاهي للكسلاء المتقاعسين عن العمل؛ المجلات التي تتحدث عن العقائد واللاهوت وكتب القانون وضعت في مخابئ وراء القضبان، وألغي تعليم اللغتين

الإغريقية واللاتينية؛ وألغيت كذلك كتب التاريخ التي تذكر الناس بالجرائم التي ارتكبتها الأشرار في الماضي. غير أن تعاليم السلطات صدرت لتوجيه الناس إلى التمسك بالإيمان بالخالق الأعلى، والتأمل في ملكوته، ودراسة العلوم الطبيعية.

ويشرح مَرَسِيَّ كيف أن الناس أصبحوا يدفعون الضرائب بقلوب راضية ونفوس منشرحة... لأن الدولة كانت تضع في الأماكن العامة صناديق ضخمة يضع فيه المواطنون طواعية نسبة الضرائب المطلوبة من أموالهم، الضرورية لدعم الدولة.

وكانت صناديق أخرى من نوع مختلف، في الأماكن العامة، يضع فيها المواطنون تبرعاتهم لإنجاز المشروعات التي وافقوا عليها. وكان الناس يتبرعون بسخاء لهذه المشروعات لأنهم معتزون بحرية تصرفهم.

وكان كل مواطن يضع تبرعاته في الصناديق الخاصة بها في غلاف عليه ختمه الخاص؛ وكذلك يفعل عندما يدفع مبلغ الضريبة السنوية، لكي يعلن المسؤولين، في الأوقات المناسبة، أسماء المواطنين الذين أدوا واجبهم ونصروا دولتهم، وأسماء الذين تخلفوا.

الرجل الذي لم يذنب

Newman Watts



يتنبأ الكاتب وأتس بأن جنوب إنكلترا سيدمره العدو أثناء الحرب العالمية الثانية، وأن شخصاً اسمه سيسيل ماكي ينجو من الموت؛ لأنه خدر نفسه بعناية داخل كبسولة لا تؤثر عليها القنابل. وتخيل المؤلف أن هذا الرجل استيقظ بعد مدة، فوجد أن المسيح عليه السلام قد نزل إلى الأرض، من خلال السحاب، ومعه عدد من الملائكة، في فترة كان يسيطر على الأرض دكتاتور مستبد. فعجل المسيح عليه السلام ومساعدوه من الملائكة بتدمير جميع أسلحة الدكتاتور لينقذوا العالم.

ويواصل المؤلف قصته الخيالية فيقول:

«شعرت الجماهير بالبهجة والأمل عندما علمت أن الأسلحة قد دمرت، وكذلك جميع المصانع التي تنتج الآلات الحربية، وطرد موظفوا وزارة الحربية.. وأعلن أن عهد السلام العالمي قد حل. وقام السيد المسيح بإنجاز إصلاحات كثيرة، أولها أن قدم لكل عائلة مساحة من الأرض لتزرعها وتنتج غذاءها.

ومن هذه الإصلاحات الريانية أنه عمل على تطهير الأرض من الجمعيات السرية، والشركات الاحتكارية، ومن الطموحات الأنانية في ميادين السياسة والاقتصاد.

وكانت الخطوة الهامة أنه قضى على إنتاج المواد التي لا تسمن ولا تغني من جوع، مثل أصناف الكحول، والتبغ، والمخدرات، والأفلام والمواد الأدبية التي تفسد الأخلاق.

وأعلن «منقذ العالم»، السيد المسيح عليه السلام، أن البشرية لا تستطيع أن تحقق ازدهارها، وأن تواجه المهام التي تنتظرها في المستقبل، إلا إذا ألغت إنتاج جميع المواد غير الضرورية للحياة، وأنه ليس من حقّ المواطن أن يبذر الأموال في طلب الكماليات في الوقت الذي يموت فيه الفقراء من الجوع والبرد، ويعاني المحرومون من الجهل والبيّس والشقاء.

وتركز اهتمام المنقذ كذلك على إصلاح الحياة الاجتماعية وإعادة بناء الاقتصاد الدولي على أسس المصلحة العامة؛ وألغى فكرة الديمقراطية، فأصبحت جميع السلطات في يده. ومن الواضح أن الجماهير لم تطالب بالمشاركة في الحكم بعد أن تولى أمرها الملك العادل الحكيم، إنه المخلوق المعصوم من الخطأ.

وحقق الملك العادل تقدماً كبيراً في استغلال القوى الطبيعية لخدمة الإنسان، وفي إصلاح البيئة التي أفسدها الإنسان؛ وطهر العلوم من الاستعمالات الضارة ومن الشوائب المادية؛ وتحققت إنجازات كثيرة ظهرت نتائجها في تحسين الظروف الصحية، وتقدم البحوث الطبية، وتوفير الأدوية لجميع الفئات الاجتماعية، والقضاء على الأوبئة.

رحلة خيالية

Francis Godwin (1562 - 1633)



كان بعض الناس في ذلك العهد يتخيلون أن القمر كوكب يشبه الأرض، وصالح للحياة. وقد كتب غودوين حكايته الخيالية ولم يبلغ العشرين من العمر، نحو عام 1580.

تخيل الكاتب أن بطله غونزا ليس انتقى خمسة وعشرين بطة ضخمة، وربطها إلى عربة خفيفة، وبمجرد أن تحرر من جاذبية الأرض أصبحت رحلته ميسرة. وفيما يلي بعض ملاحظاته على الحياة فوق سطح القمر.

- نساء القمر جميعهن جميلات؛ وعندما يتعرف الرجل على امرأة لا يستبدلها.

- سكان القمر لا يعرفون الرذائل، يعيشون في جو من المودة والأمن والسلام. وعندما يلاحظ المسؤولون أن بعض الأشخاص ينزعون نحو الفساد، أو تصدر عنهم معاملات سيئة، يرسلونهم إلى كوكب آخر منعاً لانتشار الفساد.

- سكان القمر لا يعرفون معنى القتل، ولم يحدث أن قتل رجل مخلوقاً آخر.

- عندهم أعشاب «سحرية» تعالج جميع الجروح والأمراض.
- تتكون لغتهم من أنغام، لا من كلمات.
- تنمو المواد الغذائية في كل مكان، من غير أن يبذل السكان جهداً يذكر.
- سكان القمر نوعان: عمالقة وأقزام، ويهتم الأقزام بجمع المحاصيل.
- مما يجعل الحياة على القمر مريحة، اعتدال المناخ، براعة الأطباء، والاعتدال في العلاقات الجنسية.
- على سطح القمر حجارة سحرية تجعل المواطن خفيف الوزن أو ثقيل الوزن، وهذا يساعدهم على التنقل.

الفردوس المسترد Thomas traherne (1637 - 1674)



يرى هذا الكاتب أنه بإمكان الإنسان أن يستعيد سعادته لو أنه يتعلم كيف يتمتع بالنعم والخيرات التي تحيط به مثل الشمس، والهواء الطلق، والسماء الصافية، ومشاهد الطبيعة الساحرة، وخاصة لو أنه نظر إلى العالم من حوله بعين الطفل، بدلاً من الركض وراء الثروة والمركز وألقاب الشهرة الزائفة.

ويضيف تراهين: يبدو لي أن آدم في جنة عدن لم يدرك ما في هذا العالم من خيرات ممتعة ومسلية مثلما أدركت أنا في طفولتي؛ فقد كانت السنابل تبدو لي قمحاً شرقياً مذهباً، لم تزرع، ولا ينبغي أن تحصد؛ وكانت رمال الشوارع وحصاها تبدو لي ذهباً لامعاً؛ وكم كانت أغصان الأشجار المخضرة والمزهرة تتعش نفسي!

وكان كبار السن بلحاهم البيضاء يبدوون لي مخلوقات طاهرة موقرة؛ والأطفال يبدوون لي ملائكة صغيرة يمرحون في جو من البهجة الملونة بأشعة الشمس، والفتيات مثل الفراشات حول عرش الإله؛ ولم أكن أفكر في أنهم ولدوا، وأنهم سيموتون؛ بل كنت أعتقد أن جميع تلك المشاهد تختفي لحظة ثم تعود كما شاهدتها.

كانت القرية تبدو لي، كأنها حدائق أنشئت وسط جنة عدن؛ كنت

أظن أن الشوارع ملكي، والناس أقربائي، وأن جميع ما لديهم من ملابس وتحف وذهب هي ملكي؛ بل كنت أشعر أن عيونهم اللامعة، ووجوههم المتوردة، وبشرتهم البيضاء هي لي. بل أكثر من ذلك كنت أظن أن الشمس والقمر والسماء والعالم كله لي، وما عليّ إلا أن أفرح وأتمتع بكل ذلك.

ثم مرت السنون، وأفسد الناس رؤيائي وأحلامي، وعلموني أساليب التفكير القبيحة مدة طويلة. ولكن ها أنا قد أفقت، وأحاول أن أفرغ نفسي من تلك التعاليم السلبية، لأعود طفلاً صغيراً كما كنت، آملاً أن أدخل مرة أخرى إلى جنان الفردوس.

ملاحظات حول تطور الإنسان Marquit A.N. de Condorcet (1743-1794)



يقول كوندورسي ما مفاده :

- إن القوة المحركة وراء تقدم الإنسان كانت، وما تزال، هي عقله الذي يسعى بطبيعته وراء المتعة والريح والطموح. وكانت العراقيل التي تقف في وجه هذا التقدم هي قوى الاستبداد، وقوى المعتقدات الرجعية. وهنا يعترف كوندورسي بأن العقيدة الإسلامية أكثر تعقلاً وتسامحاً من غيرها.

- القضاء على المظالم التي تسببت في عدم المساواة بين الفئات الاجتماعية، خاصة بين الرجال والنساء. وقد أثبتت التجربة أن الاعتراف بحقوق المرأة كان لصالح الرجال.

- وكان يرى أن التطور سيؤدي إلى نشوء عدد من اللغات العالمية، قد تخصص كل واحدة منها في علم من العلوم، وتزداد قدرتها فتصبح قادرة على التعبير بدقة أكبر على مواهب الإنسان، وتسهل الوصول إلى الحقائق العلمية.

- إن تدهور حياة النبات والحيوان والإنسان، بعد فترات مختلفة من الزمن، من سنن الطبيعة. ولكن الطب الوقائي بدأ يتطور، وكذلك

وسائل التغذية والإسكان، وبذلك ستتحسن الظروف الصحية،
ويطول عمر الإنسان.

- من القوى الفسيولوجية والمواهب الفكرية ما يرثه الإنسان أباً عن
جد. وهذا يعني أنه إذا تواصل تطور هذه القوى والمواهب بفضل
تقدم العلوم وتحسن ظروف الحياة، فإن الأجيال القادمة ستترث
قوى فكرية وطاقات بدنية أفضل، وبذلك تواصل حياة الإنسان
مسيرتها نحو مزيد من التطور.

جزيرة أطلانطس الجديدة

Francis Bacon (1561 - 1626)



حكاية اجتماعية خيالية، يتخيل فيها المؤلف زيارة إلى جزيرة بن سالم في المحيط الهادي، ويصف ظروف الحياة في الجزيرة الخيالية، ووصفها بأطلانطس الجديدة إشارة إلى ما كتبه الفيلسوف أفلاطون عن جزيرة أطلانطس في كتابه Timaeus.

تدور حوادث هذه القصة الخيالية في جزيرة نائية في المحيط الهادي؛ ويتخيل بيكون أن سكانها كانوا مسيحيين وأن سلوكهم كان مثاليًا؛ وأنهم حققوا تقدمًا كبيرًا في العلوم الطبيعية، وأنجزوا أعمالاً متطورة أشبه بالسحر أو الخرافات الخيالية. فقد كانوا، على سبيل المثال، في ذلك الزمن الغابر، يزرعون نباتات وأشجارًا يتحكمون في ثمارها خلال فترات نموها، فيقدمون أو يؤخرون مواسم نضجها، كما يتحكمون في ألوان هذه الغلات، وفي حجمها، ومذاقها.

وكان سكان الجزيرة يهتمون بتربية الطيور والحيوانات، ويخضعون بعضها لتجارب علمية، ويستفيدون من نتائجها لتحسين ظروف حياة الإنسان، وكانوا يستغلون معارفهم العلمية المتطورة في التأثير على أشكال الحيوانات وصفاتها وسلوكها فيزيدون حجمها أو ينقصون، ويرفعون مستويات تكاثرها أو يخفضونه، أو يجعلونها عقيمة⁽¹⁾.

(1) لنتذكر أن هذا الفيلسوف كتب هذه المعلومات قبل نحو أربعة قرون مما يدل على سعة علمه وخبرته.

وكان السكان ينجزون ضرورياً من التلقيح العلمي بين أنواع من الحيوانات، فينتجون أجناساً جديدة من المخلوقات الصغيرة المفيدة لحياة الإنسان والبيئة.. وهم لا يصلون إلى هذه النتائج العجيبة بالصدفة أو الشعوذة، بل يعدون لذلك بعناية أنواع الخليط من المواد الطبيعية التي توصلوا إليها بعد تجارب علمية طويلة.

ويجري علماء الجزيرة فيما بينهم مشاورات ليتفوقوا على نوع الأسرار والتجارب العلمية التي يمكن نشرها؛ والأسرار العلمية التي تظل سرية لكي لا تصل إلى الأيدي التي تسيئ استعمالها.

من هم المتوحشون؟ Michel de Montaigne



عاش الأديب مونتيني خلال الفترة 1533-1592، واطلع على أخبار العالم الجديد التي كانت تتوارد على أوروبا على إثر اكتشافات كولبوس وغيره. وحدث أن التقى مونتيني بعدد من هنود البرازيل الذين جلبهم مكتشفون إلى فرنسا، كما التقى بهم الملك شارل التاسع وتحدث إليهم. وعلى إثر ذلك كتب الأديب مونتيني مقالاً طبع في كتابه المشهور تحت عنوان «مقالات»، يقول فيه:

«إن الهنود البرازيليين ليسوا متوحشين، كما يزعم البعض، إلا كما نسمى الأزهار البرية متوحشة، وهذا يعني أنهم يتمتعون بأفضل المزايا الطبيعية وأطهرها». وكم أتأسف ؛ لأننا لم نتصل بهم قبل هذا التاريخ؛ بل أتأسف كذلك ؛ لأن بعض الفلاسفة مثل أفلاطون لم يحظوا بلقائهم، لأنني على يقين من أن ما شاهدناه من هؤلاء الهنود، وما عرفناه عنهم، يفوق بكثير ما رسمه بعض الشعراء، وتحدث عنه بعض الفلاسفة ، عن العصور الذهبية».

«كم وددتُ أن يعرف أفلاطون أن شعب البرازيل من الهنود لا يعرفون التجارة، ولا الحروف والأرقام، ولا يهتمون بزعماء السياسة ولا بمراتب القضاة، ولا بالثروات والمراكز، ولا بالميراث واقتسام العقارات وتسجيل العقود، بل إنهم لا يهتمون بالمقربين منهم إلا كما يهتمون

بالعلاقات مع الجيران والأصدقاء. أعمالهم بسيطة، ومطالبهم متواضعة، فلا صناعات، ولا خمور ومخدرات... ولا توجد في لغتهم كلمات تعبر عن الجشع والكذب والخيانة والغيرة والحقد؛ بل لا توجد كلمة «الأمانة» ولا «التسامح» لأنه لا توجد اعتداءات ولا سرقات. ومن أخلاقهم حب الزوجات، والثبات في المعركة ضد المعتدين».

أجل، كان من حق الرجل الهندي في البرازيل أنئذ أن يكون له عدة زوجات، وبقدر ما تعلق شهرته وتثبت شجاعته، يسمح له بأن يتزوج عدداً أكبر من النساء. ومن ميزات زوجاتهم أنه بينما تحرمنا زوجاتنا الأوروبيات من التمتع بصداقة نساء أخريات، تهتم نساؤهم بأن توفر لأزواجهن ذلك النوع من المتعة.

كانت هذه ملاحظات الأديب مونتيني بعد أن قابل عدداً من الهنود البرازيليين كما سبق. وبعد أن اطلعوا على بعض معالم مدينة Rouen، وعرفوا شيئاً عن أسلوب حياة الفرنسيين، سألهم رجل عن رأيهم في ما شاهدوه من أشياء جديدة، فكان مما قالوا:

«نعجب عندما نرى أن كثيراً من الرجال الأشداء المسلحين من ذوي اللحي يحيطون بالملك (وكان سنه 12 سنة)، يعنون الحرس الملكي. وكانوا يتحدثون عن «الناس» وكأن كل شخص هو نصف الشخص الآخر، وأن وجود الواحد لا يكتمل بانفراده. وكانوا يعجبون ويتساءلون كيف يملك بعض السكان أشياء كثيرة تزيد عن حاجاتهم، ويبقى رجال آخرون، وهم أنصافهم، مشردين، يتسولون في الشوارع⁽¹⁾.

(1) كان الأديب يرى أن هنود البرازيل يعيشون في ظلال قوانين الطبيعة الطاهرة؛ وأن الاستعمار الأسباني أفسد أسلوب حياتهم التي كانت نموذجاً للحياة الراضية السعيدة.

كفاحي

Adolf Hitler (1889 - 1945)



كان لهتلر مشروعات ضخمة عديدة لإصلاح حياة الشعب الألماني، وكانت بعض أفكاره ومخططاته مرعبة. وكان هدفه الرئيسي تقوية الجيش الألماني ليسيّطر على الشعوب الضعيفة، مثل الشعب السلافي في أوروبا الشرقية، واستغلال خيراتها لرفع شأن ألمانيا.

كان يعتقد جازماً بأنه ينبغي أن يسود حكم الأقوياء، حكم الدكتاتورية، لأن الديمقراطية في نظره حكم الضعفاء، الرعاع، والجماهير الساذجة. كان يعتبر المسيحية صدمة مؤلمة للبشرية؛ والشيعوية بكتيريا تنشر الوباء؛ وأنه لا مناص من الصراع ليكون البقاء للأقوى.

كان هتلر يزدري الحضارة الأمريكية المادية، وكان معجباً بالحضارة اليونانية والرومانية، ويجل أعمال العباقرّة من أمثال شكسبير، موزار...، ويزدري «أدب الفضلات»، والسينما المبتذلة، والصحافة الرخيصة، وكان بصفة خاصة يكره اليهود، ويعتبرهم وباء البشرية.

وكان هتلر، كما يبدو من كتابه «كفاحي»، ومن أفعاله خاصة، يعتقد أن الجنس الآري هو أنقى السلالات البشرية، وأسمها وأكثرها إبداعاً. ولذلك لا ينبغي أن يختلط أو يتزاوج مع السلالات الأخرى لأنها تفسد صفاء جنسه، وتضعف مواهبه الإبداعية. وكان يرى أن

الأجناس «الوضيعة» في نظره، مثل اليهود، والشعوب السلافية، والسلالات المهجنة، والسود، لا تستحق الثقافة، ولا تصلح للحضارة، لأنها لم تخلق لتعيش حياة طاهرة كريمة. وأن التعامل معها مخالف لقوانين الطبيعة؛ وأنه للمحافظة على الجنس الآري، وصفاء دمه، ينبغي القضاء على جميع من يعانون من مرض مزمن، وعلى المعاقين، وضعفاء البنية. إنه قانون الطبيعة في نظره.

وهكذا دفع التعصب الأعمى هتلر إلى القول بأن بقاء الجنس البشري مرتبط ببقاء السلالة صافية، وذلك بمنع اختلاطها بالأجناس الأخرى. والفكرة الأساسية الأخرى في كتابه «كفاحي»، وفي تصريحاته لقواده، هي أنه ينبغي الاستيلاء على مناطق واسعة، خاصة من بلدان أوروبا الشرقية لتصبح ألمانيا عظيمة وقوية، بعد استعباد الشعوب السلافية وغيرها. لقد كان كتابه المذكور يقرأ في ألمانيا من طرف أنصار هتلر كأنه جزء من الإنجيل المقدس.

كان هتلر يعتقد أن أوكرانيا هي البلد الأول الملائم لمشروعاته التوسعية الإصلاحية، وهي الأرض التي ينبغي أن يستغلها الألمان ويعمروها، بعد الاستيلاء على روسيا. أما سكان أوكرانيا السلافيون، فيكتفي هتلر بعزلهم في محيط ضيق، دون رعاية صحية حتى ينتهي أمرهم. وراح هتلر يخطط لمشروعاته «الإصلاحية» على نطاق واسع، لبناء طرق تربط ألمانيا بمنطقة القوقاز والبحر الأسود؛ ولإنشاء مدن حديثة يسكنها الألمان، على طول الطرق المذكورة.

وكان يعتقد جازماً أن ألمانيا ستصبح، بعد توسعها، أكبر دولة

مكتفية ذاتياً، تنتج جميع ما تحتاج إليه بنفسها. فالبحر الأسود سيوفر لها كميات لا تنتهي من الأسماك؛ وشبه جزيرة القرم توفر لها القطن والفواكه والمطاط؛ وستزرع الصويا بكميات لتربية الحيوانات، وكذلك ملايين الأطنان من الحبوب كل سنة. وستحصل من المستعمرات على الحديد والمنغنيز والخشب بكميات غير محددة؛ وعلى بحيرات من النفط.

وكان هتلر حتى آخر أيامه يردد عزمه، على جميع مستشاريه وقواده، بأن يقضي على شرادم اليهود التي تسمم الدم الألماني؛ ويطلب من رجاله أن يظلوا أوفياء لمبادئ نقاء دم الجنس الآري.

الإنسان، الحيوان، الروح



إذا أخذنا في الاعتبار النصيحة القديمة التي تدعو الإنسان إلى معرفة نفسه، يمكن القول عندئذ بأن علم النفس هو أقدم العلوم. غير أننا إذا أخذنا بالمفهوم الدقيق لكلمة «علم»، نجد أن الموضوع يتطلب أكثر من مجرد تفحص المرء لأفكاره ومشاعره، وهو ما يعرف بالاستبطان. فالعلم وضع تعاريف، ومبادئ، وتحاليل يمكن تطبيقها على جميع الناس. إذ لا يكفي في هذا المجال الاعتماد على الإحساسات والمشاعر الفردية.

ويمكن القول بأن علم النفس بدأ بحوار أفلاطون، ومقالات أرسطو حول موضوع «الروح». وتشير كلمة Psychology (علم النفس) في معناها اليوناني الأصلي إلى أن المقصود كان دراسة «الروح»، وليس الجسد. وكانت البحوث آنئذ تتجاوز الإنسان إلى جميع الكائنات الحية. ويقول أرسطو: إن دراسة الروح تساهم في التوصل إلى معرفة الحقائق العامة، وبصفة خاصة إلى إدراك حقائق الطبيعة.

غير أنه مهما اختلفت التعاريف والمناهج، فإن علم النفس حتى في عهد الإغريق كان يهتم بدراسة الإنسان، ذلك أن تحليل روح الإنسان تشمل كذلك تحليل مميزات الإنسان وخاصياته، وما يملك من قوى، وما ينجز من أفعال ووظائف؛ ثم إن المناهج التي يستعملها عالم

النفس هي في معظمها المناهج نفسها التي كان يستعملها الفلاسفة الإغريق في دراسة علوم الفيزياء.

ويقول أرسطو ما مفاده أن دراسة الروح تقع ضمن علوم الطبيعة، فتعاريف علم النفس مثل تعاريف علم الفيزياء، تهتم بحركة مادة أو جسم أو بجانب من مواهب الجسد لسبب أو غاية ما. ولكن فيما يتعلق بِنفس الإنسان يمكن لعالم النفس أن يستعمل منهاجاً لا يطبق في موضوعات أخرى، ذلك أن العقل البشري يمكنه أن يفحص نفسه بنفسه، وأن يعرف أشياء عن أفكاره ومشاعره، وهذا لا يمكن أن يحدث في العلوم الأخرى.

وقد بدأ مجال علم النفس ينحصر شيئاً ما، في العهود الأخيرة، عندما أصبح العرف يميل إلى دراسة العقل، بدلاً من دراسة الإنسان كوحدة متكاملة. فيلاحظ مثلاً أن ديكارت كان يقول بوحدة الروح والعقل، ولكنه كان يعالج موضوع المشاعر والإرادة ضمن إطار الفكر والمعرفة. وهناك علماء آخرون مثل هيوم، وبيركلي، ولوك، ركزوا اهتمامهم على تحليل محتويات الوعي، والشعور، والذكاء، والإدراك، وعالجوها ضمن إطار موهبتي التفكير والمعرفة. وبينما كان العرف السائد يقول بأن دراسة السلوك البشري والحيواني يفيد في مجال علم النفس، ازداد الاهتمام بعمليات الاستبطان كمصدر رئيسي في بحوث علم النفس.

ويعترف الفيلسوف كانت بعلم النفس التجريبي إذا كان يَحْصُرُ بحوثه في عمليات الفكر والشعور، لأنه في هذه الحالات يمكن

الاعتماد على ملاحظة ما يجري من تفاعلات نفسية ونتائجها، ومن ثم نتوصل إلى «قوانين للذات المفكرة». ويضيف هذا الفيلسوف أن هذه التفاعلات لا تساعدنا على تحديد الخصائص النفسية التي لا تخضع للتجربة ويتحدث عن «علم النفس العقلاني» الذي يهدف إلى ما هو مستحيل، ويعني إلى معرفة حقيقة الروح وجوهرها، لأنه لا يمكن أن نصل إلى نتائج مؤكدة حول موضوع يقع خارج مجال التجربة.

ويبدو أن انتقاد كائنات لعلم النفس العقلاني يعتمد على نفس المبادئ التي يبني عليها انتقاده للقضايا الميتافيزيقية التي تتعلق بفكرة الإله وبحرية الإرادة. وترتكز هذه المبادئ على نظرية المواهب والاستعدادات الحسية والعقلية مثل الحس، والفكر، والادراك، والوعي، وغيرها من الملكات الطبيعية، وعلى دورها في تكوين التجربة والمعرفة. ويميل علماء آخرون، مثل هيوم، ولوك، إلى تركيز اهتمامهم على الكيفية التي يتحصل بها المرء على محتويات الفكر، ويجعلونها أساساً لتقييم مدى صحة المعارف الأخرى. فهم لا يشكون في صحة علم النفس في حد ذاته، بل يفترضون أن لمعرفة النفس، وما يجوز فيها من تفاعلات وأفكار ومشاعر، مزايا تفوق مزايا البحوث الأخرى.

ويمكن أن تطرح أسئلة عديدة حول هذا الموضوع: هل الإنسان حيوان عاقل؟ ويتمتع وحده بميزة العقلانية؟ وهل يتمتع الإنسان بحرية الإرادة؟ وهل يختص بهذه الحرية من دون المخلوقات؟ وهل يملك الإنسان من الخصائص والمواهب ما يجعله يختلف عن الحيوانات في النوع والجوهر؟ أم أن الحيوانات تملك نفس الخصائص والمواهب التي

يملكها الإنسان، فيكون الفرق فقط في مستوى ما يملكه الإنسان وما يملكه الحيوان من هذه المواهب، وبهذا يكون الفرق في الدرجة وليس في النوع، أي أن الإنسان يشارك الحيوان في النوع، ويرتفع عنه في الدرجة، وليس في الجوهر.

وتجدر الإشارة إلى نظرية داروين الذي يرى أن الاحساس، والمشاعر، والحدس، والبديهة، والذاكرة، والتقليد، والعقل، وغيرها من المواهب التي يفتخر بها الإنسان، قد توجد لدى الحيوانات، وأنها قادرة على تحسين سلوكها كما نلاحظ لدى الكلاب الأليفة مقارنة بالذئب. ويضيف داروين ما مفاده أنه إذا كان من الممكن التدليل على أن بعض القوى الفكرية مثل الوعي الذاتي، وتكوين المفاهيم العامة، هي مواهب خاصة بالإنسان، وهو أمر غير مؤكد، فإن هذه الميزات قد تكون نتيجة لتطورات فكرية حدثت هي الأخرى نتيجة لاستعمال الإنسان للغة بصورة ذكية مستديمة.

ويلاحظ أن كثيراً ممن يتبنون مواقف معارضة لداروين لا يتفقون على المميزات والصفات الدقيقة التي تكمن وراء اختلاف الحيوانات من حيث النوع، أي الاختلاف الجوهرى؛ ولكنهم في معظم الأحيان ينسبون ميزة العقلانية للإنسان وحده، ويستعملون كلمة «حيوان» لتدل على جميع الحيوانات الأخرى التي لا تملك موهبة العقل، مهما بدا على سلوكها علامات الذكاء والوعي والفتنة.

وهكذا نجد من يرون أن الفرق بين الإنسان والحيوان هو فرق في النوع والجوهر يقولون إن المجتمع البشري، بتطوير اللغة، أصبح

يختلف بصورة جوهرية عن مجتمع النمل والنحل وغيرهما، وأن لغتهم تختلف عن تغريد الطيور وصياح الغابات وما شابه ذلك، لأنها تصدر عن موهبة العقل، وتعبر عن رقي الإنسان. وعلى خلاف داروين، يرى كثير من العلماء أن اللغة لا تعبر فقط عن اختلاف الإنسان عن الحيوان في الدرجة، بل يجدون فيها سبباً للاختلاف الجوهري في النوع، أي أن لغة الإنسان تعبر عن العقلانية التي يتميز بها عن غيره.

وبما أن الإنسان يستطيع أن يفعل أشياء لا يقدر الحيوان أن يفعلها، فهذا يعني لهؤلاء العلماء أنه يملك قدرات ومواهب لا تشاركه فيها حيوانات أخرى. وبما أن داروين اعترف بأن القرود الشبيهة بالإنسان لا تستطيع أن تصنع من الحجرة آلة، ولا أن توصل سلسلة من التفكير الميتافيزيكي، أو تحل مشكلة رياضية، أو تفكر في الإله، أو يعجب بالمشاهد الطبيعية الرائعة.. فإن بعض العلماء يفسرون هذا الاعتراف بأنه دليل على أن القرد لا يملك عقل الإنسان ومواهبه المميزة، مهما كان ذكاؤه حاداً.

غير أن العلماء الذين يتفوقون على أن الإنسان بمواهبه العقلانية يختلف جوهرياً عن الحيوان، لا يتفوقون على تفسير ظاهرة العقل. يقول الفيلسوف لوك، على سبيل المثال، إن موهبة العقل ترفع الإنسان فوق بقية الحيوانات التي تشترك معه في قوى الإحساس، والذاكرة، والتخيل، ولكنها لا تملك القدرة على إدراك المفاهيم التجريدية مثل فكرة الزمن، والفضاء، والخلود.. فالقدرة على التجريد وتعميم الأفكار مميزات فاصلة بين الإنسان والحيوان.

أما الفيلسوف روسو فيرى أن الحيوان قادر على التفكير، وأن الإنسان يختلف عن الحيوان في درجة التفكير ومستوى المواهب، وعلى هذا ليس الفهم والذكاء هو المميز النهائي بين الإنسان والحيوان، بل المميز هو حرية الإرادة والاختيار.

ويتفق الفيلسوف جيمز مع لوك في قوله بأنه من المحتمل أن الحيوانات لا تقدر على التجريد الفكري، ولا على ترابط الأفكار بالتمائل؛ ويؤكد جيمز على أن العامل الأخير هو الذي يشكل الفرق الأساسي بين الإنسان والحيوان. ويذكر هذا الأخير عوامل أخرى تقليدية تميز الإنسان، ومنها أنه الحيوان العاقل الناطق الضاحك. ولكن جيمز يضيف بأن هذه الصفات والخاصيات، مثل خاصية العقلانية، جاءت نتيجة المواهب الفريدة المتمثلة في قدرة الإنسان على ترابط الأفكار وتداعي المعاني بالتشابه. ويوافق آدم سميث على كون موهبتي العقل والنطق هما سبب سمو الإنسان على غيره من الحيوانات، ويضيف إلى ذلك كون الإنسان قادرًا على إنجاز عمليات مثل المقايضة ومبادلة الشيء بغيره، وهو نشاط لا نجده لدى الحيوان.

وعلى الرغم مما تحمله نظريات هؤلاء الفلاسفة من اختلافات، فإنهم يتفقون على أن الإنسان يختلف عن الحيوان في النوع، وليس في الدرجة فقط. على أن من العلماء من يتجنب هذه الخلافات، ويقتصرون على ما يشاهدون في الحضارات التي أنشأها الإنسان، وما فيها من مميزات تتمثل في الفنون والعلوم، والقوانين وأساليب الحكم، وتنظيم العقائد... وجميعها تشهد للإنسان بمواهب عظيمة تميزه عن

الحيوان. فنجد الفيلسوف ميل يتحدث عن الإحساس بالعدالة، ويقول إن جذورها لدى الإنسان عميقة تكمن في حوافز طبيعة تدفعه إلى أن يرفض أيّ أذى يحدث له أو لمن يتعاطف معهم. ويرى ميل أن الإنسان يختلف عن الحيوانات في كونه يتعاطف مع جميع البشر، بل ومع جميع المخلوقات الحساسة. وبفضل ما يتمتع به من ذكاء متطور يستطيع أن يستفيد من المصالح المشتركة بينه وبين المجتمع البشري في كل مكان.

غير أن وجهة النظر هذه لا تجيب عن التساؤل: هل هذه المميزات والتطورات تعني أن الإنسان يملك مواهب وقدرات تجعله يختلف عن الحيوان في النوع؟ كما أنها لا تنفي نهائياً كون هذه الإنجازات الرائعة التي حققها الإنسان قد تمثل مجرد اختلاف أوسع في القوى والمواهب بين مستوى الإنسان والحيوان التي تبدو لنا في الظاهر اختلافاً في النوع والجوهر. وهكذا يستمر الجدل حول ما يعرف «بمواهب الإنسان العليا». وإذا استثنينا وجهة النظر القائلة بأن الإنسان مخلوق روحي محض، قضى عليه أن يسكن جسداً مادياً، لا توجد نظرية خاصة بطبيعة الإنسان تشك في أنه، باعتباره نظاماً حياً، يشترك مع الحيوانات والنباتات في عدد من الوظائف والقوى الجسدية، وفي مقومات الحياة التي تساعد على النمو والبقاء. وقوى الاحساس والرغبات والشهوانية موجودة في الإنسان كما هي موجودة في الحيوان. ويرى الملاحظ أن الحيوانات العليا، مثل الإنسان، عندما تواجه مواقف مزعجة تبدو عليها علامات الخوف والقلق والغضب.

ومن الأسئلة التي تطرح في هذا المجال: هل حواس السمع

والبصر واللمس والذوق والشم توفر المعرفة للحيوان مثلما توفرها للإنسان؟ وهل قوى الذاكرة والتخيل توسع مجال الوعي والإدراك لدى الحيوان كما تفعل لدى الإنسان؟ وهل هذه القدرات تؤثر على كيفية تصور الأشياء الماثلة في الحاضر بالطريقة نفسها لدى الإنسان والحيوان؟ والواقع أنه ليس من السهل الجواب على هذه الأسئلة بمجرد ملاحظة السلوك الخارجى للإنسان والحيوان. وتزداد المشكلة تعقيداً عندما تنسب للإنسان موهبة خاصة به مثل التفكير أو المعرفة، لأنه لا يمكن قياس مدى الإدراك والتخيل لدى الإنسان والحيوان إذا أدخلنا عامل التفهم والعقلانية في تجارب الإنسان، ونفيناها كله عن الحيوان.

لقد كان العلماء في العهد الاغريقي وعهود القرون الوسطى يفرقون بين مواهب الإحساس بما فيها قوى الاحساس الداخلية المتعلقة بالذاكرة والتخيل، وبين المواهب التي تسمى بالعقل والفكر، ذلك أن مدى قوى الإحساس لا يمتد ليصل إلى المفاهيم التي لا تدرك إلا بالعقل. لذلك كان أولئك العلماء لا يساوون بين قدرات الذاكرة الحسية وبين قوى التفكير العقلاني. والإنسان وحده هو الذي يتمتع بموهبة الفهم والتبصر، ويدرك الأشياء الخاصة والأشياء الكونية؛ وهو وحده يستطيع أن يفكر في الأشياء التي لا تدركها الحواس مثل الذرة، والإله، والخلود، واللانهاية. وهكذا يكون التأكيد على الفرق الجوهرى بين الحس والعقل مرتبطاً بالتأكيد على الفرق الجوهرى بين الإنسان وغيره من الحيوانات، هذا في رأي علماء القرون الوسطى.

غير أن شكوكا حول هذه الآراء بدأت تظهر في العصور الحديثة.

فوجد الأديب الفرنسي مونتياني، على سبيل المثال، لا يشكك في كون الإنسان يتمتع بالعقل، ولكنه يشك في أن الحيوانات الأخرى جميعاً خالية من التفكير تماماً. وهو يبحث هذه المسألة معتمداً على ظواهر السلوك الخارجية لدى الإنسان والحيوان، ويستنتج أن بصيصاً من شعاع العقل والتفكير ينير سلوك الحيوانات كذلك. ويستشهد بحكايات رواها عن علماء، منها حكاية الكلب الذي راح يبحث عن صاحبه حتى وصل إلى مكان تفرع فيه الطريق إلى ثلاثة دروب. فتحسس الكلب بحاسة الشم الدرب الأول، والثاني، فلم يجد رائحة صاحبه، ثم انتقل بدون تردد، ومن غير أن يشم شيئاً، إلى الدرب الثالث وتابع بحثه عن صاحبه. ولاحظ مونتياني بأن سلوك هذا الحيوان حدث بطريقة القياس المنطقي، وكأنه كان يقول في نفسه: لقد اقتفيت آثار صاحبي إلى هذا المكان، ولا شك أنه سلك أحد هذه الدروب الثلاثة، وهو لم يسلك هذا الطريق، ولا ذلك، فلا شك أنه سار في هذا الطريق الثالث».

وتجدر الإشارة إلى أن الفيلسوف اللاهوتي توما الأكويني أورد هذه القصة ليستنتج بعض التفكير «العقلاني» لدى الحيوانات يمكن تفسيره ضمن إطار السلوك الذي توحى به الغريزة. يقول هذا العالم: إننا نلاحظ في سلوك الحيوانات بعض دلائل الحكمة؛ فهي تقوم بأعمال منظمة محكمة بتقنية سامية. غير أنها لا تنجز أعمالها نتيجة إرادة حرة وتفكير حصيف.

وعلى عكس مونتياني، يرى مكيا فيلي أن البشر والحيوانات يتشابهون ليس لكونهم يتمتعون بموهبة العقل، بل لكونهم لا يملكون

هذه الموهبة، ذلك لأن مشاعرهم هي التي تتحكم في سلوكهم. فعقلانيتهم تتجلى في شكل المكر والدهاء من أجل بلوغ الأهداف والرغبات التي تحددها المشاعر. وليس الإنسان بأقل حيوانية من الحيوان، لأنه في غابة المجتمع ينجح في تحقيق أهدافه، في معظم الأحيان، بواسطة المكر والاحتتيال. ويضيف ميكافيلي: قد يملك الإنسان دهاء أقوى من الثعلب، ولكنه بدون سلاح يجد نفسه أضعف من الأسد. وإذا اضطر الأمير لاختيار سلوك حيوان ما، فعليه أن يختار الأسد والثعلب معاً، لأن الأسد لا يستطيع أن يحمي نفسه من حبال المصايد؛ ولأن الثعلب لا يحمي نفسه من الذئاب».

وفي صدد الحديث عن العوامل التي تجعل الإنسان مختلفاً عن الحيوان يقول الفيلسوف هوبز إن اللغة هي العنصر الأساسي في هذا الاختلاف. فهو يرى أن قوى الإحساس والتخيل مشتركة بين الإنسان والحيوان، وأن موهبتي العقلانية وتسلسل الأفكار يمكن أن تحدث لدى أي حيوان يتمتع بقدرات الذاكرة والتخيل، أما موهبة الفهم التي يصفها هوبز بأنها «المفاهيم التي تولدها موهبة اللغة»، فهي خاصة بالإنسان. وهذه المفاهيم اللغوية تساعد على تطوير المواهب المشتركة بين الإنسان والحيوان، ولكن لصالح الإنسان، إلى درجة راقية تصبح ميزة فاصلة بينه وبين جميع الحيوانات الأخرى. وهذا يعني أن هوبز يقول بأن الإنسان لا يتفوق على الحيوان إلا من حيث درجة الرقي. غير أننا نجد في مكان آخر يعدد المؤسسات التي يختص بها الإنسان، مثل العقائد، والعلوم، والقوانين... ولعله بهذه يشير إلى أن الإنسان يختلف عن الحيوان من حيث النوع، وليس فقط في الدرجة والمستوى.

ويرى بعض العلماء، منهم دافيد هيوم، أن الإنسان لا يملك مواهب

فوق الاحساس والتخيل، وهذا يعني أنه لا يتمتع بقدرات وملكات لا يتمتع بها الحيوان. يقول هيوم ما مفاده : إن الحيوانات مثل البشر تتعلم أشياء كثيرة من التجارب، وتستنتج أن الحوادث نفسها ستتكرر إذا تكررت الأسباب التي أحدثتها أول مرة. وهذه الاستنتاجات لا تنشأ نتيجة جدال أو تفكير عقلائي، بل نتيجة التكرار والعادة والغريزة. ولو كانت طريقة نشوء هذه الاستنتاجات مشكوك فيها لدى الإنسان فهي مؤكدة لدى الحيوان. وبما أن النتيجة مؤكدة لدى أحد الجنسين، فإنه بناء على قاعدة التشابه الجزئي، ينبغي تطبيقها بصورة عامة دون استثناء.

ويتساءل هيوم قائلاً: ... ولكن إذا كانت الغريزة والعادة تكمنان وراء ظهور موهبة التفكير لدى الإنسان والحيوان، فما الذي يجعل الإنسان يتفوق في التفكير، بهذه الدرجة، على الحيوان؟ وما الذي جعل شخصاً يتفوق على شخص آخر؟ ويجيب ببساطة بأن التفوق إنما هو في درجة ما يتمتع كل من موهبتي الإحساس والتخيل، وما يملك من تجارب وقوى غريزية. أما بالنسبة للعلماء الذين يرون أن الإنسان وحده يتميز بموهبة العقل، بالإضافة إلى قدرات الاحساس، فإن الدلائل التي يوردها هيوم تظل محل جدال.

وبما أن الموضوع يتعلق بطبيعة الإنسان، وبالاحساس، والتفكير، والعقل، وبالمواهب التي تميز الإنسان، أو لا تميزه، عن الحيوان، فإنه من المفيد أن نلقي نظرة سريعة إلى ما يقوله بعض المفكرين عن الروح. والسؤال الذي يطرح ليس هل للإنسان روح، بل هل الإنسان وحده، من بين الحيوانات يملك روحاً عقلائية سامية، لا مادية، روحاً قادرة على الحياة منفصلة عن الجسد، روحاً خالدة؟ ولكن إذا كانت الروح عنصر الحياة وجوهرها في جميع المخلوقات الحية، فإنه يفترض أن هذا

العنصر واحد، لا يميز الإنسان والحيوان والنبات. أما إذا ميزنا بين روح عقلانية سامية، وروح «نباتية»، بالطريقة التي نميز بها بين البشر والحيوان والنبات، أي بالاعتماد على قوى سامية مثل العقل، والفكر، وحرية الإرادة، والقدرة على التجريد، والنطق، وتصور الماضي والمستقبل، والخلود وغير ذلك، ففي هذه الحالة إذا قلنا بأن البشر وحدهم يتمتعون بروح عقلانية متميزة، لا نضيف شيئاً جديداً لما سبق من القول بأن الإنسان وحده هو المخلوق الذي ينعم بخاصية العقل والفكر التي ترفعه فوق نوع الحيوانات الأخرى. بل قد يكون الأمر أعمق من ذلك، لأننا إذا قلنا بأن الإنسان يتمتع بروح عقلانية صرفة، فإن هذا يضيف عليه صفات مخلوق روحاني، لا مادي، مما يجعله منفصلاً عن الأشياء المادية، وأكثر انفصلاً عنها من المقام الذي تمنحه ميزة العقل التي تفصله عن الحيوان.

أما الفيلسوف لوكرتيوس فيرى أنه لا يوجد في هذا العالم سوى الذرات والفراغ، لذلك فإن طبيعة الروح لا تكون إلا من طبيعة الجسد؛ وهي تتكون من ذرات صغيرة جداً لدرجة لا تستطيع قوة صغيرة أن تحركها. ويستنتج أن الإنسان بتكوينه المادي لا يختلف عن أي تركيب مادي آخر، وهذا يعني أن روحه مادية، وأنها فانية مثل أي مادة مركبة.

ويقول ديكارت ما مفاده: ليس المهم لديّ ما إذا كانت الحيوانات الأخرى مجرد مخلوقات آلية أو كان لها روح، فأنا لا أنفي عنها أنها تتمتع بالإحساس والحياة، ولكن ما أنفيه عنها هو كونها تتمتع بموهبة «التفكير والفهم». وكونها لا تملك موهبة الفهم يجعل من المستحيل عليها أن تتجزأ أعمال الإنسان وتقلد كلامه وتعبّر بلغته. وعامل الفهم والفكر الذي يختص به الإنسان هو الذي يقتضي أن روح الإنسان

مختلفة عن روح الحيوان، أي روحانية محضة. ويؤكد هذا الفيلسوف أن عملية الفكر والفهم والإرادة تختلف عن الاحساسات والمشاعر في كونها ليست وظائف جسدية؛ وأن الإنسان يختلف عن الحيوانات في كونه يملك جسداً مادياً وروحاً غير مادية، قابلة للانفصال والخلود.

ونلاحظ أن الفيلسوف سبينوزا يجعل للإنسان وضعاً خاصاً في النظام الطبيعي، فيخصه وحده بالمشاركة في الروح الإلهية، إذ يقول بأن العقل الإنساني جزء من الفكر والروح القدسية؛ أما الجسد فهو وسيلة للتعبير بطريقة بينة ومحددة عن جوهر الإله. فالإنسان مركب من عقل وجسد، روح ومادة، غير أن هذا الازدواج في طبيعة الإنسان إنما هو ازدواج في المظهر، وليس في الجوهر.

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن أرسطو يرى بأن الروح ليست مادة، بل إنها العنصر الجوهرية في جسد مادي. ويقول بأن هذا ينطبق على جميع أنواع الأرواح في النباتات، والحيوانات، وفي البشر. ولكنه عندما يعدد القوى المتنوعة التي تملكها الكائنات الحية، مثل القدرات التغذوية، والشهوانية، والحركية، والحسية، والفكرية، فإنه ينسب للإنسان وحده، وللمخلوقات التي في مستواه أو أرقى منه، قوة التفكير، أي ملكة العقل.

ويقول أرسطو ما مفاده أنه باستثناء حالة التفكير المذكورة، لا توجد حالة أخرى يمكن للروح أن تشارك فيها وتتأثر بها دون أن يتدخل الجسد في العملية. وبينما تتمركز قوى الإحساس في الأعضاء الجسدية، ولا تنشط إلا في إطار الوظائف الجسدية، فإن العقل (الفكر) قوة روحانية، لامادية، ليس لها أعضاء، ولا يمكن أن تشبه بالعين عضو النظر، أو بالدماغ عضو الذاكرة والتخيل. وبناء على هذه

النظرية يعتبر الإنسان وحدة متلاحمة متكاملة، مكونة من جسد وروح، غير أنه يختلف عن المخلوقات الأخرى المادية، لأنه مكون من عناصر يمكن انفصالها عن المادة.

ويرى القديس توما الأكويني أن للإنسان روحاً عقلانية يمكن أن توجد بمعزل عن المادة عندما تتحلل مكونات الإنسان المادية بوفاته، ومن ذلك يتبع خلود الروح الذي ينقذ الإنسان من التحولات الطارئة، ويخلصه من قبضة الموت. وبهذه الخاصية ترتفع منزلته، فلا يظل مجرد عابر سبيل في هذا العالم.

وما زال الإنسان يطرح أسئلة كثيرة حول وجوده في هذا العالم، وعلى هذا الكوكب السابح في الكون الفسيح، وحول ماضيه ومستقبله، وهل هو حر في تفكيره وسلوكه يكفي نفسه بنفسه، وهل وجوده مناسب للمكان والزمان، وهل مصيره الفناء الأبدي، أم تنتظره حياة أخرى ينعم فيها بالخلود...

يقول باسكال ما مفاده: الإنسان لا شيء مقارنة باللانهاشي؛ وهو كل شيء مقارنة باللاشيء؛ وبما أنه بعيد كل البعد عن بداية الأشياء ونهايتها القصوى، فهو غير قادر على معرفة اللاشيء الذي جاء منه، واللانهاشي الذي سَيَبْتَلعه، ولا ينبغي له أن يجعل نفسه في مستوى الحيوانات ولا الملائكة؛ بل عليه أن يعرف عناصر طبيعته، لأن فيها أسباب سعادته وشقائه»⁽¹⁾.

(1) المرجع : هذا الموضوع ملخص من موسوعة :

Great Books of the Western World, The great Ideas (syntopicon - vol. 3 Chapter 51).

بين الظن.. واليقين⁽¹⁾



يقول الأديب كليفورد (W.K. Clifford) أن من الواجبات الأخلاقية أن لا يسارع المرء إلى تصديق كل ما يسمع، وما يقرأ، بل عليه أن يفحص الموضوع بدقة وعناية حتى يجد الدلائل التي تؤكد صحته أو تكشف زيفه. وعلى جميع الناس أن يعوا أن من حقهم أن يدرسوا ويثبتوا ويطلبوا الوثائق والتفاصيل والبراهين عندما يجدون أنفسهم أمام قضايا هامة أو موضوعات مريبة، أو تعاليم ومعتقدات جديدة؛ وإذا كان بعض الظن إثماً في مقام، فإن الظن لا يغني عن الحق شيئاً في مقامات كثيرة.

وينتقد الأديب الافتراض القائل بأنه «ينبغي أن نفصل مجرد الاعتقاد بالشيء» عن مرحلة الإنجاز الفعلي. ويقول ما مفاده إن تصديق المرء لفكرة أو حادث ما بطريقة سخيفة قد لا يؤدي نتائج سلبية، غير أن تكرار الحوادث والأفكار السخيفة والنيات السيئة يدعم معتقداتنا الزائفة وتصرفاتنا الباطلة، إلى أن ينفجر الوضع في نهاية المطاف.

وعندما يتعلق الأمر بالقضايا الهامة في الحياة، وتبدأ عمليات البحث والتحقيق، قد يتساءل المرء: إلى أيّ درجة يحق لنا أن نعتمد على كلام الآخرين وشهاداتهم؛ ومن هم أهل الذكر والمعرفة في

(1) مقتبس من مقال للأديب الإنكليزي W.K. Clifford.

الموضوع قيد البحث؛ وهل ما جرت به العادات والتقاليد شيء يمكن أن نثق به؛ وإلى أيّ درجة يمكننا أن نستلهم تجاربنا ونثق بها في هذا الموضوع أو ذلك؟ ويلح الأديب على أن كل فرد بالغ عاقل مسؤول عن أفعاله، وعليه أن لا يصدق، ولا يفعل إلا عن علم ودليل، وليس على آراء الناس وظنونهم.

يقصّ الأديب كليفورد الحكاية التالية:

كان صاحب سفينة على وشك أن ينقل عليها عددًا كبيرًا من المسافرين إلى بلد بعيد؛ وكان يعلم أن سفينته قديمة قد تحملت أسفارًا طوال السنين إلى بحار بعيدة، ولعله قد آن أوان إصلاحها؛ فساورته شكوك في أن السفينة قد لا تصلح هذه المرة لرحلة بعيدة، فأقلقت هذه الشكوك ضميره، ورأى أنه من الرأي أن لا تسافر هذه المرة حتى يعيد فحصها ويصلح نقاط الضعف فيها... غير أنه في اليوم التالي أعاد النظر فيما يساوره من شكوك، واستطاع أن يتغلب على قلقه، وقال لنفسه: لقد قامت سفينتي هذه برحلات كثيرة في ظروف عسيرة، وعادت إلى الميناء بالسلامة، فلما أخشى عليها هذه المرة، سأتوكل على الله وأثق بعنايته السامية التي تستحمي جميع هذه العائلات المسكينة التي قررت أن تهاجر إلى بلاد أخرى بحثًا عن حياة أفضل. وتمنّى رب السفينة للمسافرين حظًا سعيدًا في موطنهم الجديد.

على أيّ قاعدة أو دليل اعتمد الرجل في استنتاجه بأن السفينة صالحة للإبحار؟ ومن المؤكد أن شكوكه ستعاوده، وماذا لو غرقت السفينة ومن عليها؟ فهل يجدي الظن وحسن النية والتوكل على الرعاية

الإلهية لإرسال سفينة إلى أعالي البحار؟ لم يعتمد الرجل في قراره على الفحص العملي المؤكد، ولا على رأي أهل الخبرة، بل اكتفى بطرد شكوكه مفترضاً أن السفينة سليمة، وتمنى أن تعود إلى الميناء كعادتها.

والآن لنغيّر الحكاية قليلاً، ولنفترض أن السفينة أنهت رحلتها بسلام وعادت إلى صاحبها، فهل يخفف هذا من مسؤوليته؟ كلا! لن يخفف من ذنبه شيئاً، لأنه عندما يتم إنجاز عمل ما فهو إما صواب أو خطأ وانتهى الأمر. وسواء جاءت نتيجة ذلك العمل صالحة أو سيئة، مبهجة أو محزنة، فإن هذا من قبيل الصدفة، ولا يغير شيئاً من مسؤولية صاحب السفينة لاتخاذ قراره الأول على أساس الظن لا اليقين، وعلى ذلك القرار ينبنى الحكم بالصواب أو الخطأ، وليس على كون النتيجة جاءت سليمة أو كارثية، لأن السؤال يظل: هل كان من حق رب السفينة أن يسمح بالرحلة دون أن يحصل على بيانات مؤكدة؟

كان سكان جزيرة نائية يدينون بعقيدة لا تعلمهم شيئاً عن قضية الخطيئة الأصلية (خطيئة آدم وحواء)، ولا عن عقيدة الحساب والعقاب يوم القيامة. وانتشرت إشاعات خارج الجزيرة بأن بعض شيوخ هذه العقيدة كانوا يلجأون إلى أساليب غير سليمة في تعليم الأطفال، واتهموا بمخالفة القوانين بهدف انتزاع الأطفال من رعاية أوليائهم. وثار عدد من السكان وكونوا جمعية من أجل إثارة القضية، ونشروا اتهامات خطيرة ضد مواطنين لإلحاق الضرر بهم.

أرسلت السلطات من خارج الجزيرة هيئة للتحقيق في الموضوع،

فأثبتت التحقيقات أن الاتهامات لم تكن مبنية على بيانات ودلائل وحقائق سليمة، وأن المتهمين أبرياء، وأن جمعية المواطنين «المشاغبين» كانوا قادرين على اكتشاف أخطائهم لو كلفوا أنفسهم البحث عن الحقيقة بتأن وإنصاف. وهكذا فإن جمعية المواطنين وجهت اتهاماتها لشيوخ العقيدة عن حسن نية، ظناً منها أنها مصيبة فيما تفعل، غير أنها تتحمل مسؤولية تصرفاتها، وتدفع ثمن خطئها حتى وإن أثبت التحقيق براءة المتهمين، لأن الجمعية بادرت بالاتهام والتشهير على أساس الظن، وبعض الظن إثم وعدوان.

والآن لنغيّر مضمون الحكاية قليلاً، ولنفرض أن التحقيقات أثبتت أن المتهمين كانوا فعلاً مذنبين، فهل كان هذا يخفف من ذنب الجمعية التي أثارَت الضجة ونشرت الإشاعة؟ كلا! لن يكون ذلك؟ لأن السؤال هو ليس: هل كان ظن الجمعية واتهاماتهم صواباً أو خطأً، بل هل توصلت إلى اتهاماتها لأولئك المعلمين باتباع إجراءات التحقيق السليمة المشروعة. وقد يصيح أفراد الجمعية قائلين: أنظروا، ألا ترون أننا كنا على حق؟» غير أن قولهم هذا لا يجعلهم على حق، ولا أبرياء، ولا يحتلون أي مرتبة شرفية بما فعلوا.

إن المنطق السليم يرى أنه حتى عندما يكون «اعتقاد» المرء بالشيء واضحاً متبلوراً في ذهنه بحيث يتعذر عليه تغييره، فإن عملية التنفيذ تظل ضمن اختياره أن ينجز أولاً ينجز، وهذا يوجب عليه أن يواصل البحث ليتأكد من صحة رأيه واعتقاده. وكذلك على من لا يتحكمون بسهولة في مشاعرهم وأفكارهم وطنونهم أن يحددوا

لأنفسهم قاعدة سليمة واضحة تساعدهم على التحكم في مرحلة مجرد الاعتقاد بالشيء، قبل الدخول في مرحلة العمل والتنفيذ.

ومع أن هذه المقدمة منطقية وصریحة، فإنها غير كافية؛ لأنه من الصعب على المرء أن يفصل الاعتقاد بالشيء عن العمل الذي ينتج عنه، لدرجة أن يدين الواحد دون الآخر؛ وليس من السهل لمن يؤمن بقوة بجانب من قضية ما أن يتولى التحقيق بنزاهة في القضية نفسه. ولذلك يصح القول بأن وجود فكرة أو «اعتقاد» غير مبني على أدلة مؤكدة يجعل صاحبه غير صالح للقيام بمهمة التحقيق، وهل يعقل أن يحقق المذنب في جريمته مع نفسه؟

ويجدر القول كذلك بأن اعتقاد المرء بفكرة، أو برأي، أو بقضية ما ليس مسألة خاصة به وحده لأن حياتنا جميعاً تتأثر بقواعد مجرى الأمور كما يحددها المجتمع. فأقوالنا، وأساليب سلوكنا، ونوع أفكارنا وقراراتنا جميعها ملكية مشاعة، تنشأ، تنمو، وتتطور ضمن المجتمع، وتبقى بعدنا ميراثاً للأجيال القادمة؛ وإنها لمسؤولية كبرى أن نساعد على خلق المجتمع الذي نعيش فيه، والذي ستعيش فيه أجيال بعدنا.

إن الإيمان بفكرة أو بعقيدة ما قوة تدفع إرادة المرء وتجند طاقاته، والفكرة وإن كانت ملكه وتحت تصرفه، فإن عليه أن يعلم أن تنفيذ مضمونها قد يضرّ بمصالح الناس أو يخدمهم. لذلك عليه أن يتصرف بعقلانية على أساس الحقائق والقوانين والتجارب والخبرات السليمة والممارسات الحياتية التي ألفها الناس وتقبلها المجتمع،

وساعدت على توثيق عرى التعاون، وتدعيم العلاقات الاجتماعية من أجل تحقيق الثقة والتضامن.

إن ميادين الشرور والفساد تتسع وتزدهر عندما يحتضن الناس معتقدات وبدعا وأفكارا وعادات خرافية زائفة فاسدة من غير أن يختبروا عواقبها بجدية منطقية. ويمكن القول إن من يتبنى عادة سيئة يشبه من يسرق مبلغاً من المال؛ فالذي يضرّ المجتمع ليس فقط انتقال مبلغ من شخص إلى آخر، بل ما يضرّ هو أن تنتشر العادة والفساد ويصبح نصف المجتمع لصوصاً. وعلى نفس المنوال إذا احتضن أشخاص عادات خرافية واتبعوا أساليب سلوك فوضوية؛ فقد لا يكون الخطر على المجتمع من هذه الشرذمة الجاهلة، لكن الخطر الحقيقي عليه هو أن يصبح مجتمعاً ساذجاً ضالاً في متاهات المعتقدات الفاسدة.

ولعله من المفيد في ختام هذا الموضوع حول «الظن... واليقين»، الإشارة إلى كلمة للشاعر الإنكليزي العظيم ملتون حيث قال: قد يكون الرجل هرطقياً⁽¹⁾ ولكن إذا كان رجل آخر يؤمن بأشياء لمجرد أن الكاهن قالها، أو صدرت عن الاجتماع، من غير أن يطلع على المصدر والدلائل والأسباب، فإنه يعتبر هرطقياً هو الآخر».

وقال الشاعر الإنكليزي كولريديج في هذا الصدد: من يحب المسيحية أكثر من «الحق» سيظل يحب طائفته وكنيسته أكثر من المسيحية، وينتهي بأن يحب نفسه أكثر من الجميع».

(1) الهرطقي أو المهرطق هو من ينشق عن عقيدة ما.

على هامش الحضارة



جاء في الموسوعة البريطانية أن «الحضارة هي أن يتحقق مستوى من ثقافة شاملة قادرة على أن تمتدَّ بأسباب البقاء مجموعات متنوعة من الناس، وتمكنهم من التجديد والابتكار، ومن نقل أساليب حياتهم وقيمهم وتقاليدهم إلى الأجيال التالية. وتشمل ميادين الحضارة مجموعات العلوم، والمعارف، والمعتقدات، والفنون، والتقاليد، والقوانين، وأنواع السلوك البشري.

وجاء في الموسوعة العربية العالمية أن «الحضارة تشمل الفن، والعادات، والتقنية، وشكل السلطة، وكل شيء يدخل في حياة المجتمع؛ ومن هذا المنظور فإن الحضارة مماثلة للثقافة؛ ولكن الثقافة تشير إلى وسيلة ما من وسائل الحياة، وتشمل أسلوب الحياة البسيطة والمعقدة؛ أما كلمة الحضارة فتشير فقط إلى أساليب الحياة التي تتصف بنظم اقتصادية، وحكومية، واجتماعية معقدة؛ ولذا فبالرغم من أن كل إنسان يعيش في إطار ثقافة ما، إلا أنه لا يعيش كل فرد في إطار حضارة معينة».

ويقول ابن خلدون في المقدمة:

«الحضارة أحوال عادية زائدة عن الضروري من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه، وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر.. إن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة، وعلى نسبة عمران الأمصار في الكثرة والقلة والحضارة والترف، تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة لأنه أمر زائد عن المعاش؛ فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصة الإنسان وهي العلوم والصنائع».

ويتناول المؤرخ فرانسوا غيزو، في مقدمة كتابه عن تاريخ الحضارة في أوروبا، الحديث عن الحضارة بصفة عامة فيتساءل: ما هي المعايير التي يعتمد عليها المؤرخ لتحديد ما إذا كان شعب ما متحضراً؟ وما هي المميزات التي ينبغي أن تتوفر في الثقافة لتنتج الحضارة؟ ويحاول هذا المؤرخ أن يصل إلى تعريف شامل للحضارة.

يقول غيزو: إن أهم عنصر في حضارة ما هو أن تسعى نحو تقدم البشر وتطورهم اجتماعياً وفردياً وإنسانياً. والتطور الاجتماعي عنده هو تطوير وسائل الإنتاج التي تحقق قوة المجتمع وسعادته؛ وتحقيق توزيعاً عادلاً لوسائل الإنتاج وأسباب السعادة بين الأفراد. والتطور الفردي عنده هو إصلاح ظروف حياة الفرد الذاتية الداخلية، وتطوير قدراته ومواهبه ومشاعره وأفكاره ومبادئه. ويرى هذا المؤرخ أن جميع

ما حدث من تطورات إيجابية في حياة الفرد كانت في النهاية في صالح المجتمع؛ والعكس صحيح، كل ما حصل من تطورات إيجابية في حياة المجتمع كانت في نهاية المطاف لصالح الفرد المواطن.

ويتفق أهل المعرفة على أن التاريخ في سجلاته المتنوعة ينبغي أن يركز على سرد الحقائق. غير أن الحقائق منابع وأنهاراً تختلف طبيعتها، فمنها الحقائق المادية، والأخلاقية، والمرئية، والعقائدية، الفردية، والاجتماعية، علاقات عامة ودولية، وحقائق نسميها فلسفية تتعاقب فيها الحوادث والأسباب والنتائج، وليس من السهل على المؤرخ أن يستجلي جميع هذه الحقائق بسلبياتها وإيجابياتها، ويكسوها لباس الحياة بألوانها الأصلية كما كانت في عهدها الأولى.

والحضارة نتاج هذه الحقائق الشاملة والمعقدة، تنتقل آثارها ومعالها بين الأجيال، وتشكل في نهاية المطاف الحضارة العالمية المشتركة لسكان الأرض. وإذا أخذنا جميع الحقائق التي تشكل تاريخ دولة ما: نسيج حياتها، أسباب وجودها، منابع تطورها، مؤسستها، تجارتها، صناعاتها، ظروف سلمها وحروبها، مكونات سكانها، قوانينها، تقاليدها ومعتقداتها... ودرسنا هذه العناصر والعوامل، وحللنا علاقاتها ومؤثراتها، لاكتشفنا أنها كانت مثل الجداول والأنهار التي تصب مياهها في المحيط الواسع، محيط الحضارة الإنسانية الذي يتجمع فيه جميع ما ينتجه البشر من ثروات مادية وفكرية صالحها وفسادها، خيرها وشرها.

فالحضارة كما تقدم تشمل جميع العلوم والمعارف والنظم

الاجتماعية والاقتصادية والقانونية وأنواع السلوك البشري، وجميع ما ينتجه الإنسان في مسيرة تطوره الطويلة، وهي بهذا المعنى حضارة بناء وهدم، تكون أحياناً بغيضة، لأخلاقية، استبدادية مهلكة. ولكن حتى خلال الظروف القاسية التي تسودها الفوضى والحروب قد ينتج الإنسان ثقافة تساعد على تمهيد الطريق للتقدم خطوات على درب الحضارة الصحيح، وعندئذ يحاول الإنسان، بعد مرور الزمن، أن يتغاضى عن خطايا أولئك الذين طغوا في الأرض، لأنه يعرف أن إرساء حضارة مستديمة شامخة قد تكلف كثيراً من التضحيات.

ويتحدث المؤرخ غيزو عن حقائق اجتماعية وأخرى يعتبرها حقائق فردية لأنها في رأيه تتعلق بروح الإنسان، لا بالحياة الاجتماعية، ومنها المعتقدات الدينية، والآراء الفلسفية، والعلوم، والآداب والفنون، وهي حقائق تهدف أساساً إلى ترقية فكر الإنسان، ومشاعره، ومتعته النفسية، ومميزاته الأخلاقية، ولا تقتصر على ظروفه الاجتماعية وعلاقاته العامة، ولكنها حقائق مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمسلسل الحضارة.

ويلاحظ أن الديانات في جميع البلدان والأزمان تدعى، بحق أو بغير حق، أنها ساهمت في بناء صرح الحضارة، وتنسب إلى نفسها فضل المساعدة على نشر العلوم والفنون والمبادئ الأخلاقية والمتع الثقافية والعادات السليمة، وهكذا يصح القول بأن الحقائق العقائدية السامية مرتبطة بفكر الإنسان وبروحه، وتحدث آثاراً عميقة على الحضارة البشرية. وقد يسمو هذا التأثير العقائدي حتى يبلغ درجة تجعله معياراً لمدى قيمة تلك العقائد وصحتها.

وينتقل المؤرخ غيزو إلى التساؤل عن مميزات الدولة التي يعيش شعبها في حضارة سليمة، ويستطيع أن يسهم في تطويرها، فيقول:

- لنفرض وجود دولة يعيش شعبها في ظروف مادية مريحة، ينعم أفرادها بالعدالة، وتوفر لهم الدولة الغذاء والمتعة مثل قطعان الأنعام، فهم سعداء ولكن هل نقول أنه شعب يعيش في حضارة سليمة، أو أنه قادر على أن يبني حضارة راقية للأجيال القادمة؟

- فرضية أخرى: شعب وسائل معيشتة المادية متواضعة، وظروفه الأخلاقية والعقائدية متطورة، تمدّه الدولة بالأفكار والحقائق والمبادئ التي تراها مناسبة، وتحرص على تحديد المجالات الثقافية، وتوفر للمواطنين القدر الضروري من حرية التفكير في نطاق سياسات مبرمجة. فهل نقول أنه شعب سعيد، يعيش في حضارة سليمة، ويستطيع أن يؤسس حضارة راقية للأجيال القادمة؟

- فرضية أخرى: مجتمع يتمتع أفراده بحريتهم، وتتساوى فيه الفرص، ينشط فيه كل مواطن بما يلائم ظروفه، لا توجد فيه اختلافات كبيرة بين طبقاته في الثروة والمركز، غير أنه تندر فيه الاهتمامات الاجتماعية والمشروعات العامة، والأفكار والمبادرات فردية ومنعزلة لا تؤثر على الحياة العامة؛ ويبقى النشاط الاجتماعي محدوداً؛ ويمر جيل وراء جيل دون أن يبني مؤسسات مستديمة أو يترك وراءه حضارة تفتخر بها البشرية.

لا يجد المؤرخ غيزو في هذه المجتمعات ما يمثل تعريفاً صحيحاً وكاملاً للحضارة ولا لشعب متحضر، فيقول: يبدو لي أن الحقيقة الأولى التي تشير إليها عبارة «الحضارة» هي التقدم والتطور، يعني أن المجتمع يسير قدماً ليصلح ظروف حياته، لينهض ويرتقي، ليخلق ثقافة تحسن وسائل عيشه المادية والفكرية. فالحضارة عنده تعني أن تسعى الدولة والمجتمع متضامنين نحو تحقيق الأهداف التي ترفع مستويات الإنتاج الثقافي والمادي، وتدعم العلاقات بين الطبقات، وتنظم الخدمات الأساسية، وتسهر على توزيع خيرات البلاد ومقومات الحياة بين الجماعات والأفراد، وتؤمن للمواطنين الحرية والعدالة والأمن والثقة بالمستقبل.

وهكذا يتناول فرانسوا غيزو الحديث عن موضوع الحضارة من جانبين متكاملين، يتعلق الجانب الأول بتطوير الحياة الاجتماعية، والجانب الآخر بترقية قدرات الفرد ورفع مستوى معارفه ونشاطاته، ويؤكد أنه لا يكفي الاهتمام بجانب واحد لبناء الحضارة. يقول غيزو إذا تفحصنا تاريخ العالم نجد أن جميع ما حصل من تطورات مادية وأخلاقية وفكرية أثرت تأثيراً إيجابياً أو سلبياً على حياة المجتمع، وانعكست على حياة الفرد إذ أنه اللبنة الأساسية والحافز الأول الذي يحرك المجتمع ويدفعه نحو الارتقاء والازدهار.

ونلاحظ في واقع الحياة أنه عندما يكتسب المواطن فكرة جديدة ويشعر في نفسه بتغيير أدبي كأنه اكتسب قدرات جديدة عندئذ يرغب في إخراج هذه الأفكار والقدرات إلى الحيّز العملي؛ وربما بادر

بإيصال هذه العزيمة إلى محيطه لطلب المشورة والدعم. وشبيهه بهذا ما يحصل لدى كبار العلماء والمصلحين، ومن أمثال هؤلاء تتطلق حركات التجديد والاصلاح، وتصبح أعمال المواطن منشطة ومكملة لأهداف المجتمع ومشروعاته، وتضطلع الدولة بدورها في توجيه الجميع ومساندتهم.

ويورد المؤرخ غيزو، في سياق تعريفه للحضارة، عبارة لأديب مفادها: «إن المجتمعات البشرية تولد، تحيا، وتموت. غير أنها لا تحتوي الإنسان كله. فبعد أن يكون هذا الفرد قد اندمج كلياً في المجتمع يبقى له شيء ذاتي هو أنبل ما في نفسه، وهذا الشيء هو تلك المواهب والقدرات والملكات السامية التي رفعتة إلى معرفة الله، إلى حياة الخلود، إلى السعادة المنتظرة في العالم الآخر. فنحن البشر كأفراد مخلوقات لنا ميزات ذاتية تخصنا بالخلود، لذلك يختلف مصيرنا عن مصير الدول».

ملاحظات حول التربية والتعليم



التربية كما يقول أفلاطون تنتج رجالاً صالحين، ينجزون أعمالاً نبيلة. ويقول بيكون ينبغي للناس أن يقبلوا على التعليم ليصلحوا مواهبهم وينموا أفكارهم لصالح البشرية. ويؤكد وليام جيمز، وغيره من العلماء عبر العصور، على ضرورة أن تحقق التربية والتعليم والثقافة تنمية متكاملة صالحة لشخصية المواطن، وأن تهدف إلى تحفيز مواهبه الفكرية وقدراته البدنية لتحقيق سعادته وراحته، ومن ثم ازدهار الدولة والمجتمع.

ومن بين أهداف التربية والتعليم والأنشطة الثقافية، بصورة عامة، إثراء الفكر وترقية مستوياته المعرفية؛ وتحسين الكفاءة البدنية؛ تحسين الثقافة الأخلاقية وتقويم السلوك؛ تعليم المهارات التقنية والمهنية؛ وغير ذلك.

وتختلف أهداف التربية والتعليم بناء على ما إذا كانت تعطى الأولوية لتحقيق سعادة الفرد، أو لخدمة مصالح الدولة. فإذا كانت الأولوية للهدف الأخير يتجه التركيز إلى تدريب المواطنين على القيام بأدوار لخدمة النظام الاجتماعي الواسع. يقول أرسطو في هذا الصدد إن من بين الأعمال التي تساعد على استمرارية الدساتير والقوانين، التركيز على تكييف التربية والتعليم والثقافة الاجتماعية لخدمة نظام الدولة.

ويتخذ روسو موقفاً مماثلاً فيدعو إلى اتباع نظام للتربية والتعليم تتبناه الدولة يكون هدفه تربية المواطنين في سن مبكر على اعتبار فرديتهم جزءاً من نظام الدولة، وأن لا يشعروا بوجودهم إلا كجزء من المجتمع الوطني الكبير.

ونلاحظ أن القديس أوغستين يتبنى وجهة نظر عقائدية عندما يقول ما مفاده: إذا كان من المتعذر على الإنسان أن يحقق السعادة الحقيقية في هذه الحياة، فإنه ينبغي أن يكون هدف التعليم والتربية العمل على خلاص الإنسان بترقية مشاعره وتوجيهه إلى خدمة الإله. يقول هذا القديس: ماذا استفدت من جميع العلوم التي درستها، عندما كان النور وراء ظهري، ووجهي متجهماً نحو الظلام، عبداً للمغريات والمشاعر السيئة. ولكن أوغستين يعترف بأن التربية والتعليم والثقافة ينبغي أن تقود المجتمع إلى الخير والصلاح.

ويرى علماء آخرون أن التعليم الديني هو في الوقت نفسه تعليم فكري وأخلاقي، كما يعتبر علم اللاهوت علماً جدلياً وعملياً. ويقول القديس توما الأكويني إن التربية والتعليم لا ينبغي أن تهتم بأعمال البشر وسلوكهم الدنيوي فحسب، بل كذلك بعلوم الديانات والعقائد المختلفة.

ومهما اختلفت الآراء، فإن الاتفاق باق على أن التربية والتعليم ينبغي أن يركزا على إعداد الإنسان فكرياً وعملياً لتحقيق نفسه، وإدراك أهدافه، والقيام بدور إيجابي في الحياة الاجتماعية. ويقول آدم سميث في هذا الصدد، إنه لا بد أن يتحصّل المواطن على أدنى حد من الثقافة (على الأقل)، لأن الفرد الذي لا يستطيع أن يستغل قدرًا

من مواهبه الفكرية يصبح كأنه مشوه ينقصه شيء أساسي من مميزات الطبيعة البشرية. ويضيف آدم سميث بأن هذا هو حال معظم المواطنين الذين يدفعهم تقسيم العمل إلى القيام بأعمال آلية رتيبة بسيطة لا يمكنهم من استغلال ذكائهم ومواهبهم.

وهكذا نلاحظ أن الهدف من التعليم هو الذي يحدد موضوع التعليم ومواده ومنهاجه ، ويختلف منهاج التعليم الموجه إلى إثراء الفكر وتنمية مواهبه وقدراته، عن التعليم الذي يهدف إلى تدريب المواطنين على مهن أو حرف لكسب العيش. وحتى الفنون، في رأي أرسطو، قد تصبح مملة أو وضيعة، إذا كان الهدف منها مجرد خدمة الآخرين أو إرضائهم. وعنده أن الثقافة لا تكون فكرية حرة إلا إذا كان المواطن يتعلم ويعمل لما يرضيه ويسعده، أو لإسعاد أهله وأصدقائه، أو لتحقيق أهداف سامية ترفع من شأنه.

ومعنى هذا أنه ليكون التعليم حراً ينبغي أن يهدف لخدمة الفرد، وأن يساعده على استغلال أوقات فراغه لتحقيق مزيد من الثقافة والتفوق. وبعبارة أخرى ينبغي للمجتمع أن يوجه التعليم ليوفر للمواطن حياة مريحة مرضية، تسمو بها فكراً وجسداً، وأن يعتبر الفرد كهدف، وليس مجرد وسيلة يعمل ويجدّ طوال حياته لكسب لقمة العيش له ولأسرته.

وتختلف الآراء حول علاقة الثقافة الفكرية بالثقافة الأخلاقية؛ وهل يمكن التفريق بين دور التعليم في إثراء الفكر بالمعرفة، ودوره في تقويم السلوك. فنجد الأديب الفرنسي مونتيني ينتقد التعليم في عهده؛ لأنه يحشو الرأس بالمعلومات بدلاً من أن يؤثته بحوافز التفكير والاجتهاد، ويدربه على حسن السلوك وفضائل الأخلاق.

ونجد سقراط من جهة أخرى يقول بأنه لا يمكن للتعليم أن يجعل الرجل شجاعاً، معتدلاً، منضبطاً... بنفس الطريقة التي يعلمه بها الكيمياء أو الهندسة.

وهكذا يطرح السؤال: هل من الممكن أن نعلم الناس السلوك الأخلاقي الحميد؟ وهل يمكن أن نعلم المواطن الشجاعة، والكرم، والصدق، والوفاء.. مثلما نعلمه السباحة وركوب الخيل؟ وهل من السهل أن ندرب الإرادة بنفس الأسلوب الذي يفيد في تحسين مستوى التفكير؟ ولعل الجواب يتعلق بوجهة النظر التي يتبناها المرء بشأن العلاقة بين المعرفة والسلوك. فهل الذين يعرفون مبادئ القانون والأخلاق الفاضلة يتصرفون وفقاً لمعرفتهم؟ ألا نرى أن الإنسان يتجاهل ما هو خير وحق ويفعل عكس ذلك؟

والحديث عن التربية والتعليم يشمل بالضرورة عناصر متنوعة وعوامل ومؤثرات مختلفة، منها دور الأسرة، والمدرسة، والدولة، والمناهج الدراسية، ووسائل الثقافة والإعلام المجتمعية، وكذلك دور المساجد (والكنائس)، ومؤسسات القطاع العام والخاص الأخرى. وإذا كانت الدولة هي التي تتولى مهمة التعليم العظيمة، فما هي الأهداف التي يوجه إليها التعليم؟

تعتبر الدولة (وخاصة الدولة المتقدمة) التعليم عملية اقتصادية ضرورية وصناعة مربحة جديرة بأن تستثمر فيها نحو سبعة إلى عشرة في المائة من الناتج القومي الاجمالي. ذلك أن المواطنين يمثلون رأس مال عظيم، وتعليم المواطن وتدريبه على استغلال العلوم والتقنيات

يعتبر أفضل استثمار لتنمية اقتصاد البلاد. ولا ننسى أن التعليم يستهلك جزءاً هاماً من حياة المواطن، أي نحو ثلث حياته. ثم بعد ذلك عليه أن يتابع دورات تدريبية، من حين لآخر، ليظل مواكباً لتطورات العلم والتكنولوجيا. وإلى جانب ما ذكر تعلم الدولة وتدريب فئات أخرى تسهر على أمن الدولة والنظام الاجتماعي وعلى راحة المواطنين.

ويرى الفيلسوف ميل، على سبيل المثال لا الحصر، أنه على الدولة أن تقرّر التعليم الإجباري فقط إلى مستوى محدد، وينتقد فكرة أن تتولى مهمة التعليم كلياً، لأنه يرى في ذلك محاولة الدولة أن تضع المواطنين في قوالب صالحة لخدمة استمراريتها. ويقترح أن يترك لأولياء الأطفال أن يختاروا نوع التعليم دون تدخل، وأن تكتفي الدولة بالإنفاق على تعليم الفئات الفقيرة. وتشجع هذه الفكرة انتشار مؤسسات التعليم في القطاع الخاص.

وسواء كانت الجهة التي ترعى مهمة التربية والتعليم هي الدولة، أو المؤسسات الخاصة يظل دور المعلم يحتل الأهمية الأساسية. المعلم واسطة بين التلاميذ، وبين المواد التي يراد إيصالها إلى أفكارهم؛ ومساعدتهم على تفهمها ومناقشتها، وتطبيقها، وربما على إنتاج ما هو أحسن منها. يقول القديس أوغستين: إن مهنة التعليم هي من أعظم أعمال الخير والإحسان. وبالمودة بين المعلم والتلميذ يسهل التعلم؛ وهو يرى أنه من أهم ما يساعد على التعليم والتعلم الطاعة والانقياد من طرف التلميذ، واحترام شخصية التلميذ من طرف المعلم⁽¹⁾.

(1) المرجع: هذا الموضوع ملخص من موسوعة:

Great Books of the Western world, the great ideas (Syntopicon - vol. 2 - Chapter 20).

حوار

فيما يلي ملخص لحوار كتبه الأديب الفيلسوف فولتير عام 1761 بين مواطن فرنسي مثقف ومواطن من غويانا⁽¹⁾، وهو حوار أراد فولتير أن يدور بين صوت الثقافة وصوت الطبيعة، وي طرح فيه عددًا من مشاكل الحياة.

الفرنسي - يبدو لي أنك ممن يقضون معظم أوقاتهم في عزلة؛ وقد قيل إن تلك هي الحياة السليمة، لأن المجتمع يؤدي إلى انحلال الأخلاق.

الزائر - الواقع أن الإنسان كائن اجتماعي مثل كثير من الأجناس الحيوانية؛ فكل جنس يتبع غريزته، ونحن نعيش مثل بقية البشر ضمن مجتمعاتنا.

الفرنسي - أتقول في المجتمع؟ وهل عندكم مدن، وملك، ومدارس، ومكاتب، ومقاهي، واحتفالات...؟

الزائر - ألا يوجد في قارتكم أجناس أخرى من الشرق، مثل العرب، وهم يشكلون أممًا عظيمة، فنحن نعيش مثل هؤلاء. مناخ بلادنا حار، ونحن نحصل على غذائنا بسهولة، ونتزوج، وننجب الأولاد، ويتعاون الناس فيما بينهم، ونشيخ، ونموت مثلكم.

(1) كانت آنئذ مستعمرة فرنسية.

الفرنسي - إذا أيها الرجل فأنتم لستم سذجاً، ولا متوحشين.
الزائر - لا أفهم ماذا تعني بهذه الكلمة الأخيرة.
الفرنسي - ولا أنا! قد تعني إنساناً سيئ الطبع، أو شخصاً يرفض
أن يعيش وسط الجماعة؛ والواقع أن كلمة «سوفاج»
تعني الحيوان غير الأليف... لا عليك، قل لي من
فضلك هل تفكرون أحياناً؟
الزائر - لا شك، لا بد أن تفكر عند الضرورة.
الفرنسي - اغفر فضولي، فما هي أفكارك حول الإنسان؟
الزائر - أرى أنه حيوان ذو رجلين، يحسن استخدام يديه أفضل
من القرد، يتكلم ويضحك ويفكر. والبشر متشابهون
وإن اختلفت مظاهرهم وألوان بشرتهم.
الفرنسي - ولكن أخبرني أيها السيد عن الروح: ماذا تعرف عنها؟
ما مهمتها؟ ماذا تفعل؟ وأين تذهب؟
الزائر - لا أعرف عنها شيئاً، لم أرها أبداً.
الفرنسي - هل تعتقد أن الحيوانات عبارة عن آلات؟
الزائر - يبدو لي أنها تشبه الآلات الهادفة، ولكن لها حواس،
وذاكرة، ومشاعر.
الفرنسي - وأنت، أيها الضيف الزائر، بماذا تتمتع أكثر مما تتمتع
به الحيوانات.
الزائر - ذاكرتي أقوى من ذاكرة الحيوانات، ولغتي أرقى من
لغتها، ويدي أسمى مهارة، ولي قدرات كبيرة منها
العقل والتفكير.

الفرنسي - قولي لي من فضلك؟ من أيك لك كل ما ذكرت؟ وكيف تبعث روحك الحياة في جسمك؟ وهل لك إرادة حرة؟
الزائر - يا لها من أسئلة! تسألني كيف أملك أشياء وهبها الله للإنسان، كأنك تسألني كيف خلقت؟ لقد ولدت إنساناً، وأتمتع بالموهب التي يتمتع بها الإنسان، كما للشجرة جذور وأغصان ولحاء وأوراق. وتسألني كيف تحيي الروح الجسد؟ لا علم لي بذلك. ألا ينبغي أن تعرف نوابض الساعة قبل أن تعرف كيف تتحرك. طرحت أسئلة أرجو أن تشرحها لي إن كنت تعرفها.

الفرنسي - لقد درست جميع هذه الأشياء، ويمكنني أن أحدثك عنها طويلاً. قل لي هل تعرف شيئاً عن الخير والشر، والعدل والظلم؟ هل تعرفها هي أفضل الديانات، وأفضل أشكال الحكومات، وعن حقوق الإنسان والحقوق العامة؟ ولماذا تنزل الأمطار على البحار؟ ولماذا لا ينبت الشعر في وجهك؟

الزائر - على رسلك، لقد أكثرت من أسئلتك. تسأل عن الخير والشر، والعدل والظلم، يبدو لي أن كل ما يوفر لنا المتعة، من غير أن يسبب الأذى لأحد، هو خير وعدل؛ وأن كل ما يضر بالناس من غير أن يوفر لنا أية متعة فهو منكر بغيض؛ وأن ما يوفر لنا المتعة ويضر بغيرنا فهو مفيد لنا مؤقتاً، ولكنه خطر علينا وعلى غيرنا في الأمد الطويل.

الفرنسي - وبهذه المبادئ تعيشون في مجتمعكم؟
الزائر - أجل، ومع أقاربنا، وجيراننا، بدون متاعب ولا مشاكل
ولا أحقاد، وتطول أعمارنا حتى تبلغ المائة سنة، ويعيش
بعضنا مائة وعشرين عاماً، بعد ذلك تصبح جثتنا
سماداً للأرض التي كانت تغذيها.

الفرنسي - يبدو لي أنك تتمتع بعقل سليم، لكن أود أن أشوشه قليلاً؛
لنذهب لتناول العشاء معاً، ونواصل الحديث بعد ذلك.

الزائر - تناولت أغذية يبدو أنها غير مناسبة لي، مع أن معدتي
جيدة. لقد جعلتني أواسل الأكل والشراب بعد أن
شبعت ورويت، أشعر بارتخاء في ساقبي، وبثقل غير
عادي في رأسي؛ حتى أفكارني لم تعد واضحة كما
كانت؛ قل لي من فضلك ما سبب هذا؟

الفرنسي - بالنسبة لما يجري في ساقبك لا أعرف السبب؛ أما
بالنسبة لما يجري في رأسك فأقول لك: بما أن الروح
ليس لها مكان محدد، فقد استقرت في الغدة
السنوبرية، أو الجسم الجاسي⁽¹⁾ وسط الرأس. وتصعد
الأطياف الحيوانية التي تنشط في المعدة نحو الروح
فتلقى انطباعات سيئة وتشعر بالثقل والخمول، وهذا
ما يحصل عندما يتناول المرء كثيراً من الطعام.

(1) كتلة من الألياف العصبية تصل بين الجسمين نصف كرويين للمخ. وهي فرضية
وضعها الفيلسوف ديكارت.

الزائر - هذا شرح بارع ، أرجوك أن تزيدني من معارفك.
الفرنسي - هل تعلم أن عالمنا هذا هو أفضل العوالم الممكنة؟
الزائر - كيف ذلك؟ أليس في قدرة الخالق العظيم أن يخلق
عالمًا أفضل من عالمنا هذا؟

الفرنسي - لا شك أنه قادر، ولكن ما نُشاهدُه هو أفضل العوالم
الممكنة. صحيح أن الناس يفسدون في الأرض،
يعتدون؛ وينهبون، ويسفكون الدماء. وقد قتل
الأوروبيون نحو اثني عشر مليوناً من سكان قارتكم،
ولكن يزعمون أنهم فعلوا ذلك ليجعلوا من بقي من
سكان شعبيكم يسيرون في طريق الخير والصواب. وقد
قام أحد المختصين بإجراء بحوث شملت الفترة منذ
«حرب طرّوادة» إلى عهدنا هذا فوجد أنه هلك في
المعارك بين البشر نحو خمسمائة وخمسة وخمسين
مليون نسمة، هذا بالإضافة إلى عشرات أو مئات
الملايين من النساء والأطفال الذين هلكوا في المدن
التي دمرتها الحروب البشرية. ولكن لنسِرّ ببطء، ما
رأيك في قضايا مثل العدل، والجمال، وفي القوانين
التي يضعها الإنسان؟

الزائر - المعيار فيها هو خدمة المصلحة العامة.
الفرنسي - هذه عبارة تعني الكثير، فكيف تفسرها؟
الزائر - أعني أن الذين يملكون مزارع الذرة وجوز الهند..
يمنعون غيرهم من غلاتها؛ والذين لا يملكون شيئاً
يضطرون للعمل لكسب قوتهم؛ لذلك ينبغي للقوانين أن
تخدم المصلحة العامة.

الفرنسي - حدثني قليلاً عن النساء في بلادكم.
الزائر - آه ، النساء ! ماذا أقول؟ إنني أعجب بالنساء الطيبات
الجميلات؛ وأفضلهن على أشجار جوز الهند. المرأة
عندنا غلة عزيزة لا نريد أن يلمسها غيرنا .

الفرنسي - وما هي أحسن القوانين في نظرك؟
الزائر - هي التي يشارك المواطنون في صنعها، وتخدم مصالح
الجميع.

الفرنسي - قل لي، هل تدري من أين أتى أول البشر الذين عمروا
بلادكم؟

الزائر - أنتم الأوروبيون تزعمون أننا لا نستطيع أن نكسب شيئاً
بدونكم؛ ومن حقنا أن ندعي أن أجدادكم هاجروا من أرضنا
إلى بلادكم، كما تزعمون أن أجدادنا جاءوا من قارتكم.

الطبيعة والقوانين⁽¹⁾



1 - الطبيعة هي مجموع المخلوقات والأشياء التي تعمر الكون الفسيح، وتخضع لنظام وقوانين محددة؛ وتعني كلمة «الطبيعة» كذلك مجموع الخصائص التي تحدد جوهر الأشياء ومكوناتها؛ وتعني مجموع المميزات الفطرية الذاتية، المادية والمعنوية، الخاصة بالإنسان، وذلك مقارنة بالصفات السلوكية المكتسبة.

وتستعمل عبارة «على الطبيعة» للإشارة إلى حالة الإنسان البدائي الأولى، قبل أن يتدخل في حياته أي نوع من الحضارة، وقبل مرحلة الحياة الاجتماعية. ومن ناحية أخرى تفيد كلمة «الطبيعة» الضمير الأخلاقي، والعقل بصفته منبع القوانين، ومنطلق السلوك الأخلاقي قبل أية عقيدة أو إيديولوجية؛ ويقصد بلفظة «طبيعي» كل ما هو عفوي، تلقائي، فطري، مألوف، سوي، ليس فيه تكلف، وكل ما هو مستمد من الطبيعة.

2 - الطبيعة تراقب بروح عادلة أبناءها وهم يلعبون على مسرح الحياة؛ تراقب الإنسان وهو يتحكم في الريح، وتراقب الريح، وهي تعصف بالإنسان؛ إنها لا تفعل شيئاً بدون هدف، ولا تفعل شيئاً

(1) ملخص من مقال للفيلسوف James S. Mill عنوانه: «الطبيعة».

عديم الجدوى؛ لا شيء يحدث لأيّ إنسان، إلا وقد أعدته الطبيعة لمواجهته؛ وأيّ شيء تقدمه لأيّ إنسان، في أيّ وقت، هو في صالح ذلك الإنسان، في ذلك الوقت. ولكن الطبيعة لا ترحم، فإذا اعتدى عليها الإنسان، تعرف كيف ومتى تأخذ حقها منه، عاجلاً أم آجلاً. وبينما ينتعش الإنسان بالقلق والخوف، تنتعش الطبيعة بالصبر والمثابرة. إنها لا تضطرب ولا تتبلبل؛ وإذا قررت أن تجعل إنساناً أبله أو أحمق.. فإنها تفعل دون تردد؛ إنها تبدو أحياناً تكرر نفسها، ولكنها لا تملّ الرتابة، فكل يوم تطلع فيه شمسها هو يوم جديد، وكل عودة للربيع تبشر بعام جديد. وينصح الإنسان بأن يطيع الطبيعة، ويقفو خطاها، إذا أراد أن يسيطر عليها؛ ولعل الطبيعة لن تحزن، بل لعلها ستبتهج يوماً إذا اختفى الإنسان عن صعيدها.

القانون الطبيعي:

تقول الموسوعة البريطانية ما مفاده أن القانون الطبيعي عبارة يستعملها الفلاسفة ورجال القانون، ويقصدون بها نظم العدالة والحقوق التي تعتبر مشتركة بين جميع البشر.

وعندما يعبر القانون الطبيعي عن مجموعة من مبادئ السلوك، يقارن عادة بالقانون «الوضعي»، وهو مجموعة القواعد والمواد القانونية التي تسنها الدولة، وتحرص على تنفيذها بفرض العقوبات. ويلاحظ أنه منذ عهود اليونان القديمة سادت خلافات بين العلماء حول معنى القانون الطبيعي، وحول علاقاته بالقانون الوضعي.

الطبيعة⁽¹⁾

كلمة الطبيعة، والطبيعي، ومشتقاتها، وما ينبع منها من معاني، شغلت حيزاً هاماً من أفكار الناس، وتحكمت في مشاعرهم وسلوكهم. ولعله من المؤسف أن مجموعة من العبارات التي تلعب دوراً هاماً في المناقشات الأخلاقية والميتافيزيقية أصبح لها مدلولات متشعبة، مختلفة عن معناها الأصلي لدرجة تؤدي إلى البلبلة. فقد أصبحت كلمة الطبيعة ومشتقاتها متداخلة مع معاني غريبة لا علاقة لها بمعناها الأصلي، ومصدراً غزيراً للأذواق الزائفة، والفلسفات المضللة، وللأخلاق المصطنعة الخاطئة، والقوانين السيئة.

وللتأكد من المعنى المجرد لكلمة الطبيعة، من المفيد أن نتساءل: ماذا يقصد من قولنا «طبيعة النار مثلاً، وطبيعة الماء، وطبيعة هذا الحيوان، أو ذلك النبات؟». ويكون الجواب أن المقصود هو مجموع خصائصها وصلاتها، وكيف تؤثر في الأشياء، وتتأثر بها.. وبهذا المعنى نقول إن الطبيعة، بمعناها التجريدي، هي مجموع الخصائص والفعاليات التي تتميز بها الأشياء، ومجموع الأسباب والظواهر التي تخلقها. ونقول، على سبيل المثال، إن الهواء والغذاء ضروريان لحياة الحيوان، فيكون هذا من قوانين الطبيعة.

وهكذا تكون الطبيعة، في مدلولها البسيط، كلمة ترمز إلى جميع الحقائق الكائنة والممكنة، أو بمعنى آخر لفظاً يرمز إلى الطريقة التي تنشأ بها الأشياء. غير أن هذا التعريف ينطبق فقط على واحد من

(1) ملخص من مقال للفيلسوف جيمز س. ملّ عنوانه: «الطبيعة».

معاني هذه الكلمة الغامضة. فنحن نجد، على سبيل المثال، أن هذا التعريف يتناقض مع قولنا، في أحاديثنا العادية، «إن الطبيعة لا تشمل الإبداعات الفنية، وإن ما هو صناعي يتعارض مع ما هو طبيعي».

والواقع أن التعريف المذكور لكلمة «الطبيعة» يشمل الفن كما يشمل غيره، لأن كل ما هو صناعي فهو طبيعي؛ وما الفن إلا استخدام لقوى الطبيعة لغرض ما، لأن ما ينتجه الإنسان هو في واقع الأمر مثل الظواهر التلقائية، يعتمد على المواد الأولية ومكوناتها وخصائصها، ولا يستطيع أن يخلق خاصية جديدة للمادة من لا شيء. بل يستطيع فقط أن يستغل خاصيات المواد الموجودة لأغراضه الخاصة. فالمركب يطفو على سطح الماء وفقاً لقوانين الجاذبية والتوازن، وهذان القانونان هما اللذان يؤثران على شجرة اقتلعتها الرياح ورمتها في البحر؛ والقمح ينمو وينتج الحب طبقاً لنفس القوانين التي تؤثر على زهرة البراري أو نبتة الفراولة في الهضاب؛ والمنزل يشدّ بعضه البعض نتيجة خاصيات المواد، والوزن، والتماسك. وفي مثل هذه العمليات الصناعية نجد دور الإنسان محدوداً، يتلخص في كونه يجلب المواد إلى الأماكن المحددة، ويفرق الأشياء الملتصقة ببعضها، ويشد المواد المنفصلة ببعضها؛ ثم تتدخل القوى الطبيعية الساكنة، وتتفاعل لتحقيق الهدف المنشود. بل نلاحظ أن الفكر الذي يخطط، ويعد التصميم، والعضلات التي تنفذ، هي نفسها من صنع الطبيعة.

وهكذا يبدو أن لكلمة «الطبيعة» معنيين على الأقل. المعنى الأول هو أنها تعني جميع القوى الموجودة في العالم الخارجي والداخلي،

وجميع ما يحدث بواسطة تدخل هذه القوى. والمعنى الثاني هو أن «الطبيعة» لا تشمل جميع ما يحدث، ولكن فقط ما يحدث دون تدخل الإنسان عن وعي وإرادة.

هذان إذا هما المعنيان الرئيسيان لكلمة الطبيعة (ومشتقاتها)؛ ومنهما (أو من أحدهما) تنطلق أفكار الشجب أو التحبيذ، والإدانة أو الموافقة على أفعال الإنسان وسلوكه.

ونلاحظ أن مبدأ «اتباع الطبيعة» يسود في كثير من المدارس الفلسفية؛ وظل هذا المبدأ يعتبر معياراً للموازن الأخلاقية خلال عهود طويلة. وقد كانت مدرستا الرواقيين⁽¹⁾، والأبيقوريين⁽²⁾، تعتبران السلوك نابغاً من قوانين الطبيعة. ويلاحظ أن الرومان عندما بدأوا يدونون نظام قوانينهم، جعلوا في مقدمة تفسيراتهم المبادئ التي فرضتها الطبيعة. وكذلك اتخذ علماء العهود الحديثة في المجالات الفلسفية، والأخلاقية، والقانونية، رجال القانون الروماني نماذج لهم، وانتشرت مبادئ ما يعرف «بقانون الطبيعة». أما في الزمن الحاضر فلا يمكن القول بأن «الطبيعة»، أو أي معيار آخر، يعتمد بمفرده لاستنتاج قواعد سلوكية في إطار التشريعات التي تطبق على جميع المستويات البشرية.

(1) الرواقيون (Stoics) المذهب الذي أنشأه الفيلسوف زينون حوالي 300 ق.م، والذي يقول بأن الرجل الحكيم ينبغي أن يتحرر من الانفعال، لا يتأثر بما يفرح، ولا يتذمر مما يحزن، وأن يخضع بصبر لحكم الضرورات.

(2) المذهب الأبيقوري (EPICUREANISM) الذي يقول بأن المتعة هي الخير الأسمى، وأن الفضيلة وحدها هي مصدر المتعة.

ويجدر التذكير بأن البحث في هذا الموضوع يتعلق إما بموضوع ما هو كائن، أو بما ينبغي أن يكون. فالعلم والتاريخ، مثلاً، يقعان في مجال البحث الأول، ما هو كائن؛ والأخلاق والفنون والسياسة، تقع في مجالات ما ينبغي أن يكون.

غير أن المعنيين السابقين لكلمة «الطبيعة» يتعلقان فقط بموضوع ما هو كائن، إذ أن المعنى الأول يقول بأن لفظ الطبيعة تشمل جميع ما هو كائن؛ والمعنى الثاني يشمل جميع ما يحدث دون تدخل إرادة الإنسان.

ويبدو أن استعمال كلمة «الطبيعة» في مجال الأخلاقيات والسلوك يكشف لنا معنى ثالثاً يشير إلى أن الطبيعة تتعلق كذلك بما ينبغي أن يكون، أي بالمعايير والمبادئ الأخلاقية. غير أننا إذا أمعنا النظر يتبين أن الأمر في هذه الحالة لا يتعلق بمعنى ثالث للكلمة، لأن من يعتبرون الطبيعة معياراً للسلوك لا يعنون أنه ينبغي أن يسمى «معياراً طبيعياً»، لأنهم في سعيهم لإيجاد تفسير لما هو كائن، يجعلون منه قاعدة ومعياراً لتفسير ما ينبغي أن يكون عليه السلوك.

ثم ينتقل المؤلف من هذا التحليل إلى التساؤل عن مدى صحة المذهب الذي يجعل الطبيعة اختباراً ومعياراً لتحديد ما هو الخطأ، وما هو الصواب، وما هو الخير، وما هو الشر. ويتناول بهذا الصدد الحديث عن العلاقة بين الطبيعة والقانون فيقول بأن كلمة «قانون» مرتبطة عادة بكلمة الطبيعة، وأن الأولى تحمل معنيين متباينين، أي ما هو كائن، وما ينبغي أن يكون. فعندما نتحدث مثلاً عن قانون الجاذبية،

أو قوانين الحركة، أو قوانين النسب في التركيبات الكيماوية، أو قوانين مجموعات الكائنات التي تنظم حياتها... نجد أن جميع القوانين تدخل في نطاق ما هو كائن. ثم يشير المؤلف إلى النوع الآخر من القوانين التي تشمل قانون الجنايات، والقانون المدني، وقانون الشرف، وقانون العدالة.. وجميعها تدخل في نطاق ما ينبغي أن يكون، وفي ما تتعلق به مشاعر الناس، وأوامرهم وافتراضاتهم بشأن ما ينبغي أن تكون عليه الأمور.

ويخلص المؤلف إلى القول بأن النوع الأول من القوانين (مثل قوانين الجاذبية والحركة..) هي ما نقول عنها إنها قوانين الطبيعة؛ والنوع الآخر هو ما يعرف بقوانين البلاد ومبادئ السلوك. ثم يشير إلى قول الفيلسوف مونتسكيو الذي يرى أن للعالم المادي قوانينه، ولعالم الحيوانات الدنيا قوانينه، وللبشر قوانينهم، وأن مجموعتي القوانين الأوليين أشد صرامة من قوانين المجتمعات البشرية، فيلاحظ المؤلف بأن في هذا القول شيئاً من الغموض، وكأنه يوجد نوع من التناقض بين قوانين ما هو كائن ومستديم، وبين قوانين ما ينبغي أن يكون، أي قوانين المجتمعات البشرية.

ويشير المؤلف كذلك إلى أن بعض الغموض يتخلل كتابات السيد جورج كومب حول هذا الموضوع، ومنها انتشر إلى عدد من المؤلفات الشعبية، وأصبح الناس يقرأون نصائح كثيرة تدعوهم إلى إطاعة قوانين الطبيعة مثلما يطيعون القوانين الأخلاقية. ويوضح ذلك الغموض فيقول: عندما أتناول الطعام، فإن فعلي هذا وما ينجم عنه يتم في إطار قانون الطبيعة؛ ولكن إذا تناولت سما فإنه يتم كذلك وفقاً لقانون الطبيعة، غير أن نتيجته تختلف.

ولذلك ينبغي أن يعرف الناس أي نوع من قوانين الطبيعة يمكنهم أن يطبقوه في كل ظرف وحالة. وعلى سبيل المثال عندما يعبر المرء جسراً ليس له حاجز، ينبغي أن يتم عبوره وفقاً لقانون توازن «توازن الأجسام»، بدلاً من أن يعتمد على قانون الجاذبية فقط، ويسقط في النهر. وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً إلا في إطار القوانين الطبيعية، فإنه بوسعنا أن نستغل قانوناً لتخلص من قانون آخر؛ وكما يقول فرانسيس بيكون في هذا السياق: بوسع الإنسان أن يطبع الطبيعة بطريقة تمكنه من التحكم فيها». وكلما تغيرت الظروف، تغيرت إلى حد ما قوانين الطبيعة التي نتصرف في إطارها؛ وكلما غيرنا اختياراتنا للوسائل والأهداف، نضع أنفسنا تحت مجموعة مختلفة من هذه القوانين. فإذا غيرنا المبدأ الذي يقول «اتبع الطبيعة»، إلى المبدأ القائل «أدرس الطبيعة»، وذلك بأن نتعرف على خصائص الأشياء التي نتعامل معها، فإننا نصل إلى مبدأ السلوك الذكي.

وبعد شرح طويل لعلاقة الطبيعة بالعقائد، وبفكرة الخير والشر، يلخص المؤلف رأيه فيقول ما مفاده :

لكلمة «الطبيعة» معنيان رئيسيان : فهي تعني :

- نظام جميع الأشياء بكامله، مع خاصياتها وفعاليتها.

- الأشياء كما ينبغي أن تكون، بصرف النظر عن تدخل الإنسان.

ففي إطار المعنى الأول، يكون المذهب القائل بأنه ينبغي للإنسان أن يطبع الطبيعة لا معنى له، لأنه من تحصيل الحاصل، إذ أن مضمون

المعنى لا يسمح للإنسان بأيّ قوة سوى أن يطيع الطبيعة، حيث أن جميع أفعاله تتم ضمن إطار قوانين الطبيعة المادية والمعنوية.

وفي إطار المعنى الثاني لكلمة «الطبيعة»، يكون نفس المذهب القائل بأنه على الإنسان أن يطيع الطبيعة، كذلك غير أخلاقي ولا منطقي. هو غير منطقي، لأن جميع أفعال الإنسان تهدف إلى تغيير مجرى الطبيعة التلقائي، وتهدف أعماله المفيدة إلى تحسين هذا المجرى. وهو غير أخلاقي، لأن مجرى الظواهر الطبيعية طافح بالأشياء التي إذا تدخل الإنسان في مسيرتها قد يشوهها ويفسدها.

وهكذا يبدو أن مخطط الطبيعة، عندما ينظر إليه في أوسع مداه وأهدافه، لم يخلق ليكون هدفه الوحيد أو الرئيسي خير البشر أو أيّ مخلوقات ذات حس ووعي؛ وأيّ خير ينالونه من الطبيعة يكون، في معظمه، نتيجة جهودهم. فمن واجب البشرية إذا أن تتعاون مع القوى الخيرية النافعة في الطبيعة، ليس بتقليدها، بل بالسعي الدؤوب لإصلاح مجراها، ليخرجوا منها تلك العناصر التي يستطيعون أن يتحكموا فيها، وأن يجعلوها متوافقة مع معايير العدل، والخير، والفضيلة.

أحلام الشباب.. وسنن الحياة

وليام هازلت



ولد هذا الأديب في مدينة مِدَسْتُون، بانكلترا، سنة 1778. وكانت أفكاره متعلقة بالثورة الفرنسية، وكان معجباً بنابليون. حاول في بداية حياته أن يتعاطى مهنة الرسم، ثم التفت إلى الكتابة والصحافة. كتب عن حياة نابليون، واشتهر بمؤلفه «روح العصر» وهو دراسة عن عظماء عصره.

يتناول هازلت في المقال التالي الحديث عن «أحلام الشباب في ظلال مراحل العمر التالية. ويبدأ بالقول بأن الفتى الشاب لا يفكر في أنه سيموت يوماً ما، على الرغم من أنه يشاهد ويسمع عن أشخاص يفارقون الحياة. ويضيف: إننا في عهد الشباب نُهدِّدُ في مهد رغباتنا، وننعم بأمان خيالي وسط ضجيج الحياة من حولنا، لذلك نجد أنفسنا في غفلة عن التفكير في الموت، وتبدو لنا الشيخوخة، والعجز، والموت أضغاث أحلام، فنسخر من السنين، ونفكر في الخلود.

يواصل الشباب حياته في بداية الرحلة وهو ينظر إلى الأفق البعيد حيث تتوفر فرص وأهداف ورغبات يسعى إلى تحقيقها. في هذه المرحلة ينظر حوله فيجد نفسه في عالم جديد مفعم بالحيوية والنشاط والتطور، ويشعر في عهد الشباب أنه يملك من القوة والحماس ما يمكنه من مسابرة موكب الحياة. إن بساطة حياته وقلة تجاربه تجعله يتحد مع الطبيعة، ويتخيل نفسه مثلها خلق للخلود.

«وهكذا يعيش الشاب، عادة، مشدوها بروعة حياة الشباب اللامعة الجديدة التي تغمر خياله فلا يرى بوضوح أشباح المستقبل التي تبدو له بعيدة سرايبية».

حقاً إن الحياة هبة غريبة، وامتيازاتها أسرار ساحرة. ويتابع المؤلف: لذلك عندما يتلقى الإنسان هذه الهبة يعجب بنفسه، وتسحره روعة الشباب وحماسه؛ فينشغل عن التفكير في ما هو محتمل وبعيد مثل الشيخوخة والموت. إنه يعزف عن التفكير في النهاية، أو على الأقل يؤجل ذلك لأنه ما زال في بداية الرحلة.

يقول هازل: تصور فلاحاً ساذجاً يجد نفسه فجأة في مهرجان ضخم وسط العاصمة. إنه يندمج في جوّ البهجة والزخرفة والنشاط والحركة والأضواء.. فلا يستعجل العودة إلى قريته، ولا يفكر في إقبال الليل لأنه لا يرى إلا الأنوار الملونة. وكذلك يندمج الشاب في مهرجان الحياة، ويأبى مفارقة المسرحية حتى تتطفى الأضواء».

يولد الإنسان ويترععرع، وينمو، وكم يشاهد في حياته من أشعة الشمس الذهبية، وعجائب السماوات، والمحيطات الواسعة؛ ويمشي على المروج الخضراء والغابات التي تزخر بالآلاف الأحياء؛ ويصعد إلى قمم الجبال ويرسل بصره على الوهاد والوديان؛ وكم يشاهد من نجوم ومخلوقات صغيرة وكبيرة؛ ويطالع أثناء حياته التاريخ فيقرأ عن حياة الأمم الماضية، وعن الإمبراطوريات، وأمجاد العواصم التي ازدهرت ثم اندثرت؛ ويطالع الكتب السماوية فيتعلم شيئاً قليلاً أو كثيراً عن الأنبياء والأديان. ويقول لنفسه: ها أنذا موجود في مكان محدود، وزمن معلوم لأرى من حولي مشاهد حية متقلبة متتالية، منها

اختلاف الليل والنهار، والصيف والشتاء، والربيع والخريف، والمطر والجفاف...، وأشعر بين أحضان الطبيعة بالحرّ والبرد، وباللذة والألم، وبالجمال والحب والخير والشر.

«وكم طربت لهديل الحمام وشدو الطيور، وكم استمعتُ إلى جوقات المرتلين في الكنائس في منتصف الليل؛ وكم زرت من أروقة مضاعة، وجلست في كنائس كئيبة؛ وكم أعجبت بعالم الحواس، وعالم السمع، والبصر، وبالمشاعر الإنسانية اللطيفة. وكم جلست في مسارح مكتظة مدوية بمشاهد مأسوية وأخرى هزلية جميعها تسخر من غفلة الإنسان وغروره؛ وكم حدّقت في لوحات فنية نقلت إلى خيالي مشاهد الجمال والحب والحرب؛ وكم لقيت أشخاصاً يعبدون الشهرة ويحلمون بالمجد والخلود».

قرأت لفحول الشعراء والأدباء، وجمعت من حكم القدماء، وزرت أماكن مقدسة، واستمعت إلى أبواق الحروب وهتافات النصر؛ وبحثت في كتب التاريخ عن نبضات القلوب ومشاعر الإنسان، وعن الحقيقة والعدل.. وحاولت أن أدرك مبدأ الإنسان ومنتهاه.

وهكذا يعيش الإنسان كل هذه الحياة، والتجارب، والمشاهد، والملذات والآلام والأحلام.. ثم في لحظة واحدة تتطفئ شمعته، فيصبح لا شيء، وينزع منه كل شيء، كأنه كان تحت تأثير ساحر عبقرى. في هذه الصدمة المرعبة، هذا التحول من شيء إلا لا شيء، صدمة عارمة تثبط حماس الشباب المنغمش في ملذات الحياة وأحلامها، لهذا يحاول أن يبعد مشهد النهاية المزعجة عن تفكيره، فيتجه إلى المستقبل بآماله،

مستبشراً بما يسمع ويقرأ عن شخصيات عظيمة ملأت شهرتها الدنيا، فيعقد العزم على رسم مشاريعه وإنجاز أهدافه.

ويتابع هازلت حديثه عن الشباب والأحلام والحياة فيقول: أما فيما يخصني شخصياً، فقد بدأت حياتي باندلاع الثورة الفرنسية، غير أنني لم أتوقع نتائجها السلبية. بزغت شمس حياتي مع انبثاق أول بشائر الحرية والحماس الذي بعثته هذه الثورة في النفوس. ولكن لم أحلم بأن أنوار هذه الحرية ستنتطفئ قبل أن تغرب شمس حياتي؛ وتتحول الثورة إلى سفك الدماء والحكم الاستبدادي. وأعترف أنه منذ حدوث ذلك التحول المؤسف لم أعد أشعر بشبابي، وانطفأت شموع حماسي وأحلامي.

شعر الأديب الانكليزي بخيبة آماله، وراح يجمع أوراقه ومشاهد ذكرياته، وينظمها في شكل يسهل عليه الرجوع إليها من حين لآخر عله يجد بين صفحاتها ما يبعث في نفسه ما يعزیه على ما فات، ويشجعه على استئناف المسيرة. ويضف هازلت: يبدو أنه عندما تغيب عنا معالم شخصيتنا الأساسية، ويخبو شعاع أحلامنا ومطامحنا، نحاول أن نستعيد بديلاً عنها في أفكارنا ومخيلتنا. فالمرء لا يحب أن يمحي شخصه من الوجود نهائياً؛ فيحاول أن يترك آثاراً من حياته للأجيال القادمة، ويسعى لأن يخلد ذكره في ذاكرة الآخرين. فإذا استطاع أن يحقق شيئاً من ذلك بفضل تفوقه الفكري، أو بفضائه وتضحياته وكل ما يخدم المجتمع ويثير اهتمام الناس، فإنه يشعر بأن حياته لم تضيع سدى.

يتقدم الإنسان في سلم العمر، ويزداد شعوره بقيمة الزمن؛ ولكنه لا يكاد يصدق أن ما كان له وتعود عليه سيدوى، ويبلو، ويزول.

ويلاحظ حوله أن أشياء كثيرة، المنازل، الأحياء، الحداثق والأشجار.. وبدلاً من مشاعر عهود الشباب الوردية الحماسية، ومذاقها المنعش المتفائل، أصبح يخالط الحياة الآن شيء من الركود والكساد، ويتساءل: أين ذهبت نشوة الشباب وأحلامه وثقته بالتوقعات المستقبلية.

ويصل المرء إلى مرحلة من يصبح فيها كل أمله أن يواصل مسيرته بدون أضرار ومتاعب، وعندما تحل به مرحلة يواجه فيها سنن الطبيعة وقوانينها، مرحلة قد يعاني فيها أثناءها من أمراض وعوائق، يصبح أمله أن يحتفظ بفكر سليم، وأن يعيش بهدوء واحترام إلى أن يسلم الأمانة لخالقها.

إننا في معظم الحالات لا نموت فجأة، دفعة واحدة، بل يلاحظ أن الإنسان يظل فترة من عمره يبلى ويذبل تدريجياً. إنه يفقد بمرور الزمن بعض الوظائف والقدرات والاهتمامات، حاسة بعد حاسة، وعلاقة بعد علاقة مع الناس والحياة. إننا نشاهد أنفسنا والحياة تسلب منا جزءاً بعد جزء، سنة بعد سنة؛ ونشعر أننا لم نعد كما كنا.. ونتساءل: أين ذلك الحماس، والبهجة، والنشوة، والأحلام اللذيذة؟ أين ذهبت تلك الرغبات، والمغامرات، والمشاهد التي تمتعنا بها، والكتب والروايات والسهرات وكل ما لقينا من مشاكل وأثرنا من غبار على دروب عهد الشباب؟ كم لعبنا في الشوارع، تحت المطر وشمس الصيف الحارقة، كم فرحنا بالأعياد، ولبسنا لها الجديد، وجمعنا أثناءها الهدايا والقروش. أين ذهب ربيع العمر، ريعان الشباب، وتلك التجارب الرائعة والمشاعر العارمة التي عشناها ببهجة ونشوة وحماس. ها نحن قد اقتربنا من نهاية المطاف، وها هي سنة الحياة تطلب منا أن نستعد لنسلم الأمانة، راجين أن ننعم بالرحمة والرضى في عالم أفضل.

الاعتماد على النفس

R. W. Emerson (1803 - 1882)



قال شكسبير «لا تسأل النجوم عن حظك، بل ابحث عنه داخل نفسك».

وجاء في كتاب «حظ الإنسان»⁽¹⁾ ما مفاده «الإنسان نجم نفسه؛ والروح التي تصنع الإنسان الكامل، هي التي تتحكم في نوره، وآثاره، ومصيره؛ فلا شيء يخصه يحدث في غير مواعده؛ فأفعاله هي ملائكته، حسنة كانت أو سيئة؛ وهي ظلاله التي لا تفارق حركته وسكونه».

يرى الحكماء أن الثقة بالنفس، والاعتماد على الذات هو ما يؤهل الإنسان الطموح للأعمال الجليلة. فالرجل (أو المرأة) الذي يرغب في أن يصنع اسمًا لنفسه، ينبغي له أن يسعى لتحقيق ذاته بجهوده؛ فاحترام الذات هو أساس النجاح والانضباط.

يرى الكاتب إمرسون أن الثبات على تقاليد الماضي الخرقاء، والتمسك بمبادئ فارغة حمقاء من طبع النفوس الصغيرة. أما ذوو

(1) Beaumont & Fletcher.

الهمم العظيمة فيرفضون الخضوع لما يعرقل مسيرتهم؛ ولكن لماذا يسحب المرء وراءه جثثا ظلت عالقة بذاكرة المجتمع من الماضي البعيد؟ لعله يفعل ذلك لأنه لا يريد أن يخيب رأي الناس فيه؛ أو لا يجرأ على مخالفة أفكار كان قد تبناها في الماضي.

«قد يحدث الاعتماد على النفس «ثورة» في العلاقات بين الناس، في سلوكهم، وحوارهم، وثقافتهم، وأساليب معيشتهم. والملاحظ أنك عندما ترفض الأعراف والمعايير الشائعة، تبدو لبعض العقول الضيقة كأنك ترفض المبادئ الأخلاقية السليمة.

يقول إمرسون: «لقد علا شأن موسى (عليه السلام)، وأفلاطون، وملتون، ولكن تظل الحقيقة البارزة هي أنهم، وأمثالهم، تكلموا وكتبوا ما كان يخلج في نفوسهم، ولم ينقلوا لنا ما كان يفكر فيه أناس آخرون. لذلك ينبغي للمرء أن يكتشف موجات النور التي تشع من داخل نفسه؛ لا أن يهتم بالبريق الذي يرسله الحكماء والشعراء عبر الآفاق. ألا تلاحظون أننا نجد في كل عمل إبداعي نطلع عليه جزءاً من أفكارنا الخفية؛ وكأن تلك الأعمال العظيمة تقول لنا: تمسكوا بمواهبكم البديهية بشدة؛ غدوها وطوروها وعبروا عنها مهما ارتفعت الأصوات المناوئة».

إذا لا بد أن يبلغ المرء مرحلة من حياته يقتنع فيها بأن التقليد نوع من الانتحار؛ وأن عليه أن يتقبل نفسه، ويعتمد عليها، وأن العالم مضعم بالخيرات، وكذلك فكره، غير أن الخيرات لا تأتيه مطيعة إلا بقدر ما يبذل من جهود، وبقدر كده وعمله الجدي. إن «حقلك لا يُنبت

لك القمح والذرة... ما لم تهتم بحرثه ، وزرعه، ورعايته». ثق بنفسك! إ عقلٌ ناقتك! تقبل حظك الذي خصصه الإله لك، والمجتمع الذي تعيش فيه، ولكن لا تخضع لمسيرة الحوادث التي تحيط بحياتك. وهكذا كان عظماء الرجال، لا يخضعون لحادثة إلا وهم يفكرون في التغلب عليها؛ ولا ينحنون لعاصفة إلا ليرفعوا رؤوسهم بعد مرورها.

ويواصل الكاتب حديثه عن الرجل العصامي فيقول ما مفاده :
«من يرغب في أن يكون رجلاً ذا شأن، عليه أن ينبذ العادات والتقاليد البالية؛ ومن يطمح إلى إحراز قصب السبق، ينبغي أن لا يتوقف عند «مظاهر الخير والصلاح» طويلاً؛ ففي نهاية المطاف لا شيء يعتبر مقدساً سوى سلامة فكرك، وآرائك، ونجاح جهودك.

«أذكر، وأنا شاب، أن رجلاً صالحاً حدثني عن المبادئ الكنسية العتيقة، فقلت له:

- وماذا أفعل بمقدسات التقاليد... إذا كنت أعيش حياة كاملة

مطمئنة داخل نفسي؟

- يا صديقي الصغير، هذه نزوات تتبع من الطبقات السفلى، ليس من السماء.

- لا تبدو لي كذلك، وعلى أيِّ حال، إذا كنتُ ابن الشيطان، فسأعيش على طريقة الشيطان.

ويقول إمرسون في مقاله هذا: «إنه لا يوجد بالنسبة لي قانون مقدس إلا قانون الطبيعة، وما الخير والشر إلا اسمان نطلقهما على هذا الحدث أو ذلك؛ والحقيقة التي أؤمن بها هي ما يلائم بنيتي وتكويني؛ والباطل هو ما يخالف ذلك. وعلى المرء أن يتصرف وكأن جميع ما حوله من معارضة إنما هي مظاهر وألقاب وسلوكات معرّضة للزوال. وإنني لأخجل أحياناً عندما أرى الناس يخضعون وينحنون أمام الرموز والشعارات والخطابات الرنانة. إن أيّ شخص مؤدّب لطيف يترك فس نفسي آثاراً طيبة تهز مشاعري أكثر ممن يزعم أنه يملك الحقيقة بمفرده. وكم من الحقائق أصبحت مزيفة، تلجأ إلى المكر والاحتيال لتظهر في لباس الخير والإحسان والفضيلة، غير أن أمرها لا يلبث أن ينكشف.

ويسترسل الكاتب في حديثه عن الثقة بالنفس، والاعتماد على الذات، فيخاطب القاري بقوله: إنك إذا استسلمت لعادات أخني عليها الزمن، فإنك تبدد جهودك، وتضيع وقتك، وتبلى أفكارك، وتتهك نفسك. ويضرب أمثلة عديدة على هذا النوع من السلوك منها أن المرء الذي يبذل ماله لأحياء كنيسة قديمة، أو جماعة من جماعات الأنجيل الغابرة التي أكل الدهر عليها وشرب، أو إذا ركّزت جهودك لدعم فئة أو حزب لمجرد الظهور في المعارضة، أو فتحت أبواب منزلك، ونشرت موائدك لتظهر مدى كرمك... فإنك في هذه الحالات لا تحدّد معالم شخصيتك وأهدافك، رغم أنك تبذل وقتاً وجهوداً كبيرة. ولكن هناك سبباً أخرى لاستغلال مواهبك: إعمل، أنجز، ما ينمي شخصيتك، ويخلد ذكرك، ويفيد الناس، فبمثل هذا أعرف أيّ رجل أنت.

إن الثبات على مبادئ وتقاليد خرقاء بالية من عادة صغار النفوس؛ أما عظماء الهمم فيرفضون الخضوع لما يبدد جهودهم ويعرقل مسيرتهم. تكلم اليوم بصراحة بما يعتل في نفسك؛ وأفصح غدا بقوة وشجاعة عما يجول في فكرك، حتى لو كان كلام الغد لا يوافق كلام أمس، ولا ينسجم معه؛ فهل تخشى أن ينتقدك الناس؟ وماذا في أن ينتقدوك؟ لعلهم يسيئون تقدير همتك وعزمك وقوة إرادتك. ألم يفعل الناس مثل ذلك عندما أساءوا تقدير شخص سقراط، وفيثاغور، والمسيح، وكوبرنيك، وغاليلي، ونيوتن...؟

«كل رجل قوي، صادق عبارة عن بلد، وعصر، وقضية، وفكرة، وهو يحتاج إلى المكان، والزمان، والأرقام، والمثابرة، لتحقيق أهدافه؛ وقد يصبح للأجيال مثالا يحتذى. لقد عاش يوليوس قيصر وأنجز أعمالاً عظيمة؛ وها نحن، والأجيال، نتذكر دوره في الامبراطورية الرومانية. وجاء المسيح (عليه السلام) واختفى، وظلت مئات ملايين البشر تتذكر أقواله، وتسير على خطاه، حتى أصبح اسمه مرادفاً للفضيلة.

ليست المؤسسات سوى ظلال الإنسان العظيم؛ ولنتذكر مثلاً، النظام الرهباني الذي أنشأه الراهب أنطوني؛ وحركة الإصلاح الديني التي نهض بها لوثر؛ وحركة الكنيسة الميثودية التي قام بها ويزلي؛ وحركة إلغاء الاسترقاق لكلاركسون؛ وما زالت الأجيال تتذكر القائد شيببوتون؛ والأديب ملتون؛ وغيرهم من العظماء الذين مَجَّد التاريخ أعمالهم، وخلد سيرهم.

إذا فليعرف كل رجل قيمته، وليجعل الصعوبات تحت قدميه،

وليبتعد بشخصه عن التوافه، وليحترم حياته، فلا يمكر، ولا يختلس، ولا يخادع، وليرفع رأسه، فلا يتسلل خلسة كأنه طفل يتسول.

ويلاحظ أن الخجل يسيطر على كثير من الناس، فيسارعون إلى الاعتذار لتبرير تصرفاتهم، فلا يجراً أحدهم على القول: أنا أعتقد؛ أنا رأيي كذا؛ أنا على يقين...». ولكن لماذا علينا أن نتحمل أخطاء أصدقائنا، زوجاتنا، أبنائنا (البالغين)، آبائنا؟ المُجَرَّد أننا نجلس حول طاولة واحدة، أو موقد واحد، أو ننتمي إلى نفس الأجداد والقبيلة؟ كل! جميع الناس لهم دماء قد تتشابه أو تختلف؛ وليس هذا سبباً كافياً لكي أتحمّل حماقتهم وفضاظلتهم. وقد يبدو لك أحياناً أن الظروف تتعاون لإزعاجك: الأصدقاء، الزبائن، الأطفال، الخوف، المرض، الفقر... ولكن عليك أن تلتزم بالصبر، أن لا تتحني للفوضى، وأن ترفع راية الثقة بالنفس والاعتماد عليها.

ويرى الكاتب أن مشاعر السخط والندم والاكتئاب، ليست سوى نوع من ضعف الثقة بالنفس، وضعف إرادة الحياة. فبوسعك أن تتأسف، وتبتهل، وتتوح ما استطعت على ما يصيبك، أو ينزل بغيرك من المصائب والآلام، إذا كان ذلك يساعدك أو يساعد المصابين والمتألمين. ولكن الأفضل هو أن تنهض وتركز على عملك، وعمّا قريب سيفعل الزمن ما ليس في استطاعتك لمعالجة الأحران، وإصلاح الأوضاع.

اعتمد على نفسك، لا تقلد! استجمع قوتك، وثقافتك، تعلم كيف

تستغل مواهبك وتجاريك واستعداداتك المادية والمعنوية في إنجاز المهنة التي اخترتها لنفسك، وثابر على عملك بعزم وإتقان يدفعك الأمل والثقة والطموح، وستبلغ مرحلة الشروق، وينبثق نور من داخل نفسك يبشرك بالرضى والنجاح والإطمئنان. اسأل نفسك: من الذي علم شكسبير، وبيكون، ونيوتن، وواشنطن، وفرانكلين؟ وهل استعار القائدان حنبل وشبيون مهارتهما من معلم؟ وهل يستطيع طالب أن يصبح «شكسبيراً» بتقليده؟ إذا ثق بمواهبك، أخلص لأفكارك! وازرع إمكانياتك في أرض خصبة، وافعل ما تشعر في داخل نفسك أنك خلقت له.

لعل في نفسك الآن روحاً قوية، طموحة، لا تقل قوتها عن إزميل فيدياس⁽¹⁾، ولا عن المالج⁽²⁾ في يد قدماء المصريين، ولا عن قلم موسى (عليه السلام)، أو قلم دانتي، أو ملتون... إن الروح عنصر ثري، بليغ، له ألف نبع ولسان، فاثبت في رحاب نفسك، كن وفياً لها، واستلهم قواك الداخلية، وسيسطع نجمك يوماً.

إن الاعتماد على الثروة، والجاه، وعلى الناس لنيل الرعاية والحماية يعني أن المرء قليل الثقة بنفسه. وقد أصبح الناس يركضون وراء المغريات من مال وسلطة وبنين... لدرجة أنهم نسوا أنفسهم، وأصبحوا يلجأون إلى المؤسسات المختلفة لتوجيههم ورعاية مصالحهم؛ وأصبح بعضهم يقدر قيمة البعض الآخر بما يملك، وليس بقدر ما هو إنسان مؤمن، صادق، ومخلوق مقدس في حد ذاته.

(1) Phidias (490 - 430 ق.م) نحات أثيني، يعتبر من أعظم النحاتين في التاريخ.

(2) المالج: أداة تُطَيَّنُ بها الجدران.

أما الإنسان المثقف والمتحضر حقاً فإنه لا يبتهج كثيراً بتراكم ثروته، بل يخجل مما يكتز، خاصة إذا حصل عليها بطريقة الميراث، أو الهبة، أو الغش والابتزاز، أو بطريق الصدفة والحظ.

أما من يملك نفسه، ويكرم طبيعته، ويعتز بإنسانيته، فإنه لا يخشى أن يسلبها منه حاكم أو قطاع الطرق، ولا تحطمها ثورة أو حريق أو عواصف أو إفلاس. ويروى عن الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إن حظك في الحياة هو نفسك الحقيقية، فابحث عنها، واسعد برفقتها».

إن اعتمادنا على العناصر الخارجية يجعلنا نعتمد على الحساب والأرقام والكم بدل الكيف. أنظر إلى الأحزاب، والطوائف، والفرق، مثلاً، إنها ترى قوتها في عدد أنصارها؛ فالحزب الديمقراطي يحسب أعضاء وفوده من ولاية كذا وكذا؛ والحزب الجمهوري يجمع وفوده مقابل الأول، ويسعد بكثرتهم... والواقع أن كل هذه الحسابات، والاجتماعات، والصراخ والتصفيق، لا يجلب لنا الرعاية السماوية، بل قد ينتهي بالفشل وخيبة الأمل. ويبقى السبيل الأمل هو ألا يثق المرء بالدعم الخارجي وحده، وأن يركز على نفسه فيخرج أحسن ما فيها، لأن عناصر الراحة والرضى والاطمئنان تتبع منها.

ويتناول الكاتب إمرسون الحديث عن المجتمع، فيشير إلى أن الفرد سلّم، منذ زمن بعيد، جزءاً من حرّيته إلى المجتمع من أجل أن يضمن أمنه وعيشه، غير أن هذا المجتمع يلجأ من حين لآخر إلى خطط تآمرية تعرقل حرية الفرد.

ويرى إمرسون أن المجتمع، في مسيرته الطويلة، يكتسب فنوناً وأساليب جديدة للحياة، ولكنه يفقد براءته ومواهبه الأصيلة، ويقول: قارن بين الأمريكي الذي يرتدي بدلة أنيقة، ويتقن القراءة، ويحمل ساعة ثمينة، وقلماً، وكمبيالة في محفظته... وبين الرجل النيوزيلاندي الذي تتلخص ممتلكاته في عصا، ورمح، وحصير ينام عليه؛ ثم قارن بين صحة الرجلين، وستجد أن الأمريكي فقد كثيراً من لياقته البدنية الأصيلة، وفقد قوة عضلاته أو يكاد؛ إنه يملك ساعة جميلة، ولكنه فقد قدرته على التنبؤ بالوقت بمشاهدة الشمس؛ يملك رزنامة التقويم، ولكنه لا يعرف نجماً واحداً في السماء؛ لا يكاد يفقه شيئاً عن الانقلاب الصيفي والشتوي للشمس؛ ولا يعرف كثيراً عن اعتدال الليل والنهار السنوي؛ ومذكرته اليومية تعرقل ذاكرته؛ وكتبه ومجلاته تثقل أفكاره وتبلبلها؛ ووكالات التأمينات تسجل كل سنة مزيداً من الحوادث المؤلمة.

وهكذا فقد الإنسان كثيراً من حيويته وبراءته وطاقاته وعفويته الطبيعية نتيجة اندماجه في خضم حضارة المدن المكتظة، وفقد كثيراً من شجاعته وفضائله الأصيلة، دون أن يصبح مسيحياً صادقاً، ولا رواقياً⁽¹⁾ شجاعاً صامداً.

وهل تستطيع علوم القرن التاسع عشر، وفلسفته، وفنونه، ومعتقداته أن تنشئ رجالاً أعظم من الأبطال الذين حدثنا عنهم بلوتارخ⁽²⁾، والذين عاشوا قبل أربعة وعشرين قرناً من عهدنا هذا؟ إن

(1) رواقى (Stoic) أحد أتباع المذهب الرواقى الذى أنشأه الفيلسوف زينون حوالى عام 300 ق.م؛ الذى يقول بأن الرجل الحكيم يجب أن يتحرر من الإنفعالات، وأن يخضع لحكم الضرورات دون تدمر.

(2) بلوتارخ (46 - 119م). الحديث فى كتابه: «تراجم قواد وزعماء يونانيين ورومان».

رجالاً مثل فوسيون، وسقراط، وأفلاطون، وأرسطو، كانوا نسيج جيلهم؛ ومن يرغب في اللحاق بركبهم، فما عليه إلا أن يصعد إلى القمة، وينسج على منوالهم، ويبعد كما أبدعوا.

إن فنون أيّ عصر ومخترعاته إنما هي رداؤه، ولا تخلق بالضرورة رجالاً عظماء. ألا تلاحظون أن العالم غاليلى، بمنظاره المتواضع، اكتشف ظواهر سماوية رائعة؟؛ وأن كوليبوس اكتشف العالم الجديد ببواخر متواضعة عادية؛ ألا تلاحظون في عهدنا أن ما تحدثه الآلات الجديدة والتجهيزات الضخمة من أذى للطبيعة قد يتجاوز فوائدها؟ وإنه لما يلفت الاهتمام ما نشاهده يومياً من تدمير للتجهيزات التي تم اختراعها بالأمس، واستقبلناها بكثير من البهجة والافتخار.

إننا نعد ما يحدث من آلات الدمار في فنون الحرب من الانجازات الكبيرة؛ ولكن هل هي ضرورية حقاً؟ لا ننسى أن نابليون احتل أوروبا بمعسكراته التقليدية المتقلة في العراق. وكان يقول: لا يقول القائد إن عنده جيشاً قوياً إلا إذا قلّد عادات الرومان بأن يوفر لكل جندي مؤنثته من القمح ليطحنه ويعد خبزه بيديه.

إن المجتمع مثل الأمواج، فهي تتقدم إلى الأمام، ولكن المياه التي تكونها تظل في مكانها؛ وكذلك فإن ذرات الرمل لا تصعد من أعماق الوادي إلى ضفتيه؛ والأشخاص الذين يشكلون الدولة، سينقرضون عما قريب؛ وقد تبقى آثارهم وتجاربهم أو تندثر بفنائهم؛ ولكن المجتمع يواصل مسيرته.

آراء من الغرب حول الدين



فيما يلي نبذة موجزة من آراء علماء وفلاسفة غربيين حول عدد من المسائل العقائدية مثل مفهوم الدين ، وهل هو طبيعي أو فوق طبيعي، وهل الكتب الدينية مثل التوراة والإنجيل مقدسة، وحي من الله، أم هي من وضع البشر؛ وي طرح هؤلاء الفلاسفة تساؤلات حول تفسير الكتب الدينية وما تحويه من أفكار سماوية وعلمانية؛ وحول أساس الدين هل منبعه الإيمان أم العقل؛ وحول العلاقة بين الدين والدولة أي بين السلطة الروحية والسلطة الدنيوية الزمنية.

لا يجدي الحوار في المسائل العقائدية الهامة، إذا لم يكن بين المتحاورين خلفيات وأفكار متقاربة. فبين من ينفي قدرة العقل⁽¹⁾ وكفاءته في الحكم على المبادئ الدينية، وبين الفيلسوف والعالم الذي يدعو إلى التفكير لتفسير الظواهر العقائدية وإدراك مغزاها، لا توجد أرضية مشتركة، وهذا يجعل التفاهم عسيراً، ويظل موضوع الحوار راكداً، ويستحيل التوصل إلى نتائج إيجابية، لأن آراء كل من الطرفين تلغي آراء الطرف الآخر.

ونلاحظ أن أرضية الحوار والجدال مفتوحة في الموضوعات

(1) مثل مذهب الشكوكية الذي يقول بأن المعرفة الحقيقية غير مؤكدة ولا محققة.

العلمية والفلسفية؛ وأن الأبواب سرعان ما تتسد، وأن سماء الحوار سرعان ما تكفهر عندما يتعلق الأمر بمناقشة القضايا العقائدية. إن الخلافات بين من يؤمنون ومن يكفرون، بين اليهود وغير اليهود، وبين المسيحيين والملحدين، كانت ولا تزال عبئاً خطيراً كثيراً ما يدفع المتعصبين إلى العنف والإرهاب.

ويلاحظ أن الخلافات الأساسية تتعلق بمنبع الدين نفسه، وبمعناه وتعريفه، بين من يقول بأن الدين ينبع من وحي الإله، من حكمته وعلمه وقدرته، ومعنى هذا أنه فوق الطبيعة؛ وبين من يرون أن الدين ينبع من الطبيعة، من ميل الإنسان إلى التفكير في الكون وفي كل ما يحيط به، وهذا يجعل الدين شبيهاً بالفلسفة وبالعلوم الثقافية. ويقول هؤلاء إنه من التوهم الاعتقاد بأن الدين هبة من الله للإنسان، وهو في واقع الحال ينبع من حاجة الإنسان إلى الإيمان بشيء ما، ومن رغبته في التمسك بظاهرة يلجأ إليها تطمئنه وتخفف عنه أعباء الحياة. ويرى المؤمنون بوحي السماء أن من يقفون عند حدود الطبيعة تنقصهم هبة الإيمان والرغبة في الاتجاه نحو الله واللجوء إلى هدايته.

إن الدين يعني أكثر من مجرد الإيمان بالقلب والاعتراف بقواعده، بل يعني كذلك أداء الفرائض والعبادات، واحترام الشعائر، والمشاركة في القربان المقدس والطقوس المختلفة؛ والدين يعني أن تعطي ما لله لله، وأن تخضع لأحكامه وأن تسعى لنيل عنايته ورضاه وتوفيقه لكي تحظى بحياة راضية في الدنيا والآخرة. فإذا خلت العقيدة من الورع والإخلاص الداخلي، ومن الممارسات الخارجية التي تبرهن على صدق الإيمان فهي نوع من النفاق والتحايل على العباد.

وبناء على مفهوم الدين بين كونه فوق طبيعي، أي وحي من السماء، وكونه طبيعياً، من صنع الإنسان، يتبنى الناس آراء متباينة ووجهات نظر مختلفة حول الوحي، والإيمان، والنبوة، والمعجزات... فمنهم من يعتقد جازماً أن الدين نابع من سلطة ربانية سماوية هي التي تنزل الوحي على العباد؛ غير أن هؤلاء أنفسهم لا يتبعون ديناً واحداً، ولا يتعبدون لله بطريقة واحدة، ولا يؤدون الشعائر نفسها. ونلاحظ أن العلاقات بين الطوائف والمذاهب التي تتبنى معتقدات مختلفة قد تكون عسيرة ومعقدة لدرجة لا تقل خطورة عن الخلافات بين من يؤمنون بدين سماوي ومن لا دين لهم.

ويلاحظ أن تعدد الطوائف في الغرب واختلاف طقوسها وتعاليمها، تطرح قضية خطيرة هي: من على صواب ومن على خطأ، من الضالّ ومن المهتدي؛ ويجد الناس أنفسهم أمام كنائس ورجال دين يرفض فريق منهم الاعتراف بمعتقدات الكنائس الأخرى التي قد لا تقل مصداقيتها وشعائرها عن مصداقية الطوائف الأخرى، وربما يستغل رجال الدين موضوعات مثل الانشقاق العقائدي، والهرطقة، والإلحاد، والوثنية، فيجعلون منها مرتعاً خصباً لينعشوا مجادلاتهم مع من يخالفون آراءهم. يقول المؤرخ غيبون: إن عبارة «الوثنية» تعني عبادة الآلهة الزائفة، ويشير إلى أن المسيحيين يتهمون المسلمين بأنهم كذلك. وتنتشر مثل هذه الاتهامات بالهرطقة، والوثنية، وأتباع البدع وغيرها كذلك بين المسيحيين واليهود، والكاثوليك والبروتستانت.

ومع أن موضوع الدين ومضمونه يطرح فكرة التسامح في أعماق

وأوسع مدلولها، فإن التسامح يصطدم بجدار الرفض لأن موضوع الدين يتعلق بمن هو على حق ومن على باطل في معتقداته. والخطورة تكمن في كون أتباع عقيدة ما يعتبرون أنفسهم هم المؤمنون بما أوحى الله، وأن ممارساتهم العقائدية نابعة من القانون الإلهي المقدس، فكيف يعقل في هذه الحال أن يطلب منهم أن يتخلوا عن دينهم وينتقلوا إلى دين آخر لا يؤمنون بمصداقيته. ولهذا نجد أنه من شبه المستحيل الحديث عن التسامح بين طائفة تؤمن بوحى السماء، وأخرى تعتبر دين الأولى مجرد آراء وأحكام مسبقة، دينا قريبا من الخيال وبعيدا عن الحقيقة والعقل، قد لا يجدي معه الحوار والجدال والمحاضرات.

ومع أن الإنجيل والتوراة هما الكتابان المقدسان لدى الغربيين، فليس كل من يقرأهما أو يكتب عنهما يعتبرهما كتابين مقدسين. وكثيراً ما نجد أن الفيلسوف، والمؤرخ، والمسيحي، والعبري، يعترف بمضمون الكتابين، ويوجه فكره إلى معتقدات أخرى. وما أكثر الناس الذين يقرأون الإنجيل باعتباره مجموعة من الكتابات التي دونها البشر، وتركت تأثيراً بالغاً في الحضارة الغربية. ومهما كان تأثير هذه الكتابات في ميادين الحكمة، والتاريخ، والأخلاق، والشعر... فإنها لا تقتضي اهتماماً خاصاً إلا إذا حصل تمييزها عن الكتب الأخرى بصفتها «كلمة الله». ومن هنا يبدأ الحوار بطرح السؤال الرئيسي: هل الإنجيل كتاب الله المقدس؟ أم إنه لا يختلف كثيراً عن المؤلفات الأخرى مثل أشعار هوميروس، ومقالات حكماء اليونان؟

فإذا نظر المفكر الغربي إلى الإنجيل على أنه ليس كتاباً مقدساً،

يصبح بإمكان القارئ أن يكتشف فيه تناقضات غير منطقية، وأفكارًا وحكايات معرضة للشك والنقد. ولكن إذا اعتقد المرء أن الإنجيل والتوراة هما من الكتب المقدسة التي أوحاها الله إلى المسيح عيسى وموسى (عليهما السلام) ، عندئذ تكون لهما سلطة وقدسية تجعلهما فوق أي شك أو تساؤل.

يقول الفيلسوف هوبز: إن الإيمان هبة من الله لا يستطيع أي إنسان أن يعطيها أو يأخذها بواسطة المكافأة أو التهديد. ويرى أن الإيمان يعتمد على براهين نابغة من العقل، أو من أفكار وحوادث اعتاد المرء أن يثق بها؛ وأنه لا ينبع من ظواهر فوق طبيعية، بل من التربية والثقافة والانضباط والتأديب ومن غيرها من الأساليب الطبيعية التي يركبها الله في صفوة عباده الذين اختارهم ليعلمونا كيف نصبح مؤمنين؛ وبالنتيجة يقول هوبز: إننا عندما نؤمن بأن الإنجيل هو كلمة الله، ولم ينزل على أحدنا وحي أو إلهام مباشرة، فإن موضوع ثقتنا وإيماننا هي الكنيسة التي نستمع إلى كلامها ونثق به.

ويتناول الفيلسوف لوك الحديث عن صحة تفسير المسيحيين لكلام الإنجيل فيقول: على الرغم من أن كل ما ورد في نصوص الإنجيل صحيح، فإن القاري قد يخطئ في فهمه وإدراك مغزاه. والواقع أن الإرادة الربانية عندما تبلغ بواسطة لغة الإنسان يمكن أن تتعرض للغموض فتلتبس مقاصدها. وبما أن مبادئ وحقائق «الدين الطبيعي» واضحة لا غبار عليها، مفهومة لدى جميع الناس، وأن

الحقائق والتعاليم الدينية التي تبليغ إلينا بواسطة اللغات والكتب (يعني الوحي) معرضة لما يحدث في الكتابة والكلام من غموض ومن خطأ في النقل والتفسير، فإنني أرى أنه من واجبنا أن نتوخى الحزم والعناية في التعامل مع الحقائق الطبيعية ومبادئها؛ وأن نكون أقل حزمًا وإلحاحًا واستبدادًا عند التعامل مع التعاليم والحقائق التي تبليغ إلينا بواسطة الوحي.

ويعترف القديس أوغستين بأن تفسير حقائق الإنجيل وتعاليمه ليست مهمة سهلة، وقد تعرض هذا الكتاب المقدس لتفسيرات مختلفة، ويقول: عندما يقول لي رجل «كان موسى يعني ما أقول»؛ ويردّ شخص آخر قائلاً «كلا، كان يعني ها أقول أنا»، يبدو لي أن الجواب الصحيح هو: لماذا لم يكن موسى يعني ما قاله كلاهما؟ إذا كان قول كل منكما سليمًا. وكان القديس أوغستين يعتقد بأن ما جاء به الكتاب المقدس حق لأنه وحي من الله، ولكنه كان يفسح المجال واسعًا للتفسير من أجل تحديد ما هو ذلك الحق بالاعتماد على المعايير العادية لما هو حق في التفكير السليم.

ويرى الفيلسوف باسكال أن الدين المسيحي يتضمن بيانات خاصة تبرهن على أنه دين العقيدة الصحيحة. ويقول: كل دين لا تتضمن عقيدته عبادة إله واحد هو أصل كل شيء، هو دين مزيف، هذا هو الحق والصواب، ويضيف «لا توجد عقيدة جاءت بهذا الحق (عبادة إله واحد) إلا عقيدتنا». (فما أعظم جهله بالإسلام)!

ويقول باسكال ما مفاده أنه ينبغي للعقيدة أن تهتم كذلك برغبات

الإنسان ونقاط ضعفه؛ وهذا ما فعلته عقيدتنا إذ قدمت أنواعاً من العلاج لذلك، منه «الصلاة». ولا توجد ديانة أخرى غير المسيحية طلبت من الرب الأعلى أن يمنحها القوة لتحبه وتسير على دربه. وعندما يقرأ باسكال قول المسيح عليه السلام: «إذا كنتم لا تصدقوني صدقوا على الأقل معجزاتي»، يعلق قائلاً: إن المعجزات هي أقوى دليل على صحة العقيدة لأنها تقدم البرهان لمن يداخله الشك من اليهود والوثنيين والملحدين وغيرهم.

ومن المسائل الهامة التي اختلف فيها الفلاسفة وعلماء اللاهوت السؤال: هل الدين مبني على الإيمان أو على العقل؟ يقول الفيلسوف هيوم إن الدين مبني على الإيمان وليس على العقل، وهذا «يعني ضمناً أن المؤمن المسيحي يتخلى عن العقل والتفكير». أما القديس أوغستين، وتوما الأكويني فيريان أنه لا يوجد تعارض بين العقل والإيمان، على الرغم من أن الإيمان يتبنى أشياء لا يستطيع العقل أن يثبتها بالدلائل. والواقع أن ما يقدمه العقل من دعم للإيمان لا يقلل من أهمية هذا الأخير.

ويقول الفيلسوف هوبز: إن الدين الذي يعتمد على قوى فوق طبيعية، ويلجأ إلى الاعتقاد بالمتناقضات والمستحيلات يفقد شيئاً من مصداقيته. ولهذا فمن الأفضل أن لا يتضمن الوحي ظواهر يرفضها العقل. ولكن الدين الذي ينبع من القوى الطبيعية يعتبر نوعاً من الفلسفة، ولا يستطيع أن يرفعنا إلى أعلى من مستوى التجارب العادية، ولا أن يوفر لنا أساليب سلوك تختلف عن تلك التي نبلغها بالتأمل والتفكير في الحياة العادية.

ومن العلماء من يرى أن الدين ليس أكثر من استجابة الإنسان لاحتياجاته العصبية، أو أنه مجرد تدجيل وخداع اجتماعي. ومنهم، مثل فرويد وكارل ماركس، من يعتبرون الأديان السماوية حكايات زائفة، ويرفضون كذلك فكرة الدين الذي ينبع من الطبيعة، ويؤكدون على أن العلم وحده هو الذى يكشف الحقائق ويوجه البشرية نحو حياة الرقي والازدهار.

قرأ العالم فرويد البيتين التاليتين للشاعر غوته :

«من يملك العلم والفن، يملك الدين كذلك،

ومن لا علم له ولا فن، فليجأ إلى الدين».

فقال معلقاً: هذه الكلمات من جهة تقارن الدين بأعلى إنجازين حققهما الإنسان، العلم والفن؛ ومن جهة أخرى تعلن هذه الكلمات أنه نظراً لأهمية العلم والفن والدين في الحياة، يمكن أن يحل بعضها محل البعض الآخر؛ وبهذا يبرر فرويد ديانة الرجل البسيط، إذ يرى أن من ليس له علم ولا فن يساعده على الحياة، عليه أن يلجأ إلى الدين، لأن الحياة قاسية علينا ولا نستطيع أن نتحملها بدون أدوية ومسكنات تلطف من قلقنا ومعاناتنا.

ويوجه فرويد انتقاداته إلى ما يسميه ديانة الفلاسفة وديانة اللاهوتيين، فينتقد الفلاسفة؛ لأنهم يحاولون أن يصونوا إله الديانة بأن يضعوا في مكانه مبدأ مبهماً، مجرداً، لا شخصياً؛ وينتقد رجال اللاهوت عندما يقولون بأنه ليس للعلم حق في أن يتدخل في بحث

المعتقدات الدينية، وينكرون بأنه كفاء ليكون حكمًا في قضايا اللاهوت. يقول فرويد «بأي حق يدعي الدين لنفسه مكانة استثنائية بين اهتمامات الإنسان؟ ويجيب: لعل السبب هو أن الدين لا يمكن قياسه والحكم عليه بمعايير بشرية، إذ أنه ينزل من مصادر سماوية مقدسة لا يستطيع فكر الإنسان أن يدركها؛ ولكن ما أسهل أن يرفض المرء هذه المبررات (حسب رأيه).

يقول فرويد: «المسلة التي يدور حولها تساؤل بعض الفلاسفة في هذا المجال هي هل توجد روح قدسية ووحى سماوي؟ ومن الواضح أن الجواب لا يكون مرضيًا ولا نهائيًا إذا توقف عند القول بأن هذا السؤال لا يطرح، لأن قضية الألوهية لا يمكن أن تكون محل تساؤل».

ويشبه كارل ماركس آراء رجال اللاهوت بآراء النظرية الاقتصادية الكلاسيكية التي تنبذ المؤسسات الإقطاعية وتتبنى نظرية المؤسسات البرجوازية وترى أنها طبيعية؛ فكذلك يفعل علماء اللاهوت عندما يؤكدون بأنه لا يوجد سوى نوعين من الديانات، وأن كل ديانة تخالف ديانتهم فهي زائفة وباطلة لأنها من صنع الإنسان، أما ديانتهم فهي من وحي السماء.

ويشجب أفلاطون آراء العلماء الذين يقولون بأن جميع أنواع الديانات ليست سوى عبارات ملفقة وحكايات خيالية. وكأنه كان يتحدث إلى فرويد وماركس عندما كتب في «القوانين» ما مفاده بأنه عندما يتحدث عن الدين يفرق بين الطبيعة والفن؛ وأن الذين يقولون بأن الآلهة لا توجد بالطبيعة، بل بالفن وبقوانين الدول التي تختلف من

دولة لأخرى، فهؤلاء هم الذين يقولون بأن مبادئ العدالة لا وجود لها في الطبيعة، وأن المخلوق النبيل في الطبيعة هو غير المخلوق النبيل الذي تحدده القوانين، وأن مبادئ العدالة لا وجود لها في الطبيعة».

ويرى أفلاطون أن عدالة الدولة وقوانينها ينبغي أن تؤسس ليس على الطبيعة وحدها، بل كذلك على الدين والاعتقاد بالآلهة. وقد ردّ على من يقولون بأنه أمر مروع أن نشرع القوانين على افتراض وجود آلهة فقال: ليس من السهل التدليل على وجود الآلهة، وعلى أنها آلهة خيرة تفكر في العدالة أكثر مما يفكر فيها الإنسان، ويضيف: إن الشخص الذي يطيع القوانين، ويؤمن بوجود الآلهة لا يرتكب أعمالاً شريرة، وينطق بعبارات مبتذلة خارجة عن القانون؛ ومن يفعل ذلك فهو لا يؤمن بوجود الآلهة، أو يعتقد بأنها موجودة ولكنها لا تهتم بشؤون الإنسان، أو أنها تخلت عن مهامها منشغلة بما يقدم لها من قرابين وضحايا وصلوات. وعلى هذا الأساس «فإن السعي للبرهنة على وجود آلهة خيرة هو أفضل مقدمة لجميع ما نضع من قوانين».

واهتم الفيلسوف روسو بالدور الذي يضطلع به الدين في تأسيس الدولة واستمراريتها؛ ويطرح السؤال: أيّ دين هو الذي يعالج طبيعة الآلهة وطبيعة الدولة بصفة متعادلة في عالم الفيلسوف السياسي؟ ويضيف، وهو متأثر بالحضارة المسيحية، «إن الفيلسوف السياسي لا يمكنه أن يعالج موضوع الدين دون أن يوجهه علماء اللاهوت». ولهذا يرى أنه من الضروري التمييز بين مصادر العقائد السماوية وهو الوحي، وبين دين ينبع من الطبيعة ومن القوانين المدنية.

ويرى روسو أن ما تحتاجه الدولة هو «الإيمان المدني الصريح» الذي يحدّد الملك بنوده ليس بدقة العقيدة اللاهوتية، بل كمشاعر اجتماعية لا يستطيع المواطن بدونها أن يكون مواطناً صالحاً وفيّاً ومخلصاً. ثم يوضح روسو ما يعتبره بنود العقيدة الدينية المدنية فيقول: ينبغي أن تكون هذه البنود قليلة وبسيطة، دقيقة وواضحة، دون شروح وتعليقات وتعقيدات ومستثنيات مثل وجود إله قادر، عليم، رحيم وحكيم؛ الدار الآخرة؛ السعادة لأهل الخير والعدل؛ العقاب للأشرار، وقداسة العقد الاجتماعي والقوانين.

ويقول الفيلسوف مونتسكيو: «أما فيما يتعلق بالدين الصحيح فإنني لم أرغب أبداً أن أجعل مصالحه خاضعة لمصالح سياسية، بل كان هدفي أن أوحّد بينهما، ذلك أن الدين المسيحي الذي يدعو الناس ليعب بعضهم البعض الآخر، فإنه إلى أن يجعل الأمة تتعم بأفضل القوانين المدنية والسياسية؛ وبقدر ما يزداد إيمان الناس بأنهم مدينون لدينهم يزداد إيمانهم ببلادهم، لأنه إذا كانت مبادئ المسيحية متمكنة من قلوب الناس، يزداد شعورهم بقوة أعظم وأسمى من شرف الممالك الزائف، ومن فضائل الجمهوريات البشرية، ومن جور الدول المستبدة.

وفيما يتعلق بالعلاقة بين الكنيسة والدولة، توجد ثلاثة مواقف رئيسية: يدعو أحدها إلى الاندماج بينهما؛ ويدعو الرأي الثاني إلى تبعية الكنيسة للدولة، أو الدولة للكنيسة؛ ويقول الموقف الثالث باستقلال كل منهما عن الأخرى.

يقول الفيلسوف هوبز عن الدولة المسيحية بأنها مجموعة من الناس يؤمنون بالدين المسيحي، ويوحدتهم شخص الملك، وأنه لا توجد على الأرض كنيسة عالمية واحدة يخضع لها جميع المسحيين؛ لأنه لا توجد قوة واحدة تحكم جميع المسحيين في العالم، ولا توجد دولة مدنية فقط، وأخرى مسيحية فقط، بل هناك دولة مدنية زمنية سكانها مسيحيون.

ويوافق علماء كثيرون، منهم القديس أوغستين وروجر بيكون، هوبز على قوله بوجود دولة واحدة واندماج الحكومة والكنيسة، ولكنهما يجعلان الملك في خدمة رجال الدين، ويجعلان السلطات العليا الروحية والزمنية في يد الحبر الأعظم، لأن الكنيسة في نظرهما تتمتع بسلطة روحية عالمية تشمل الدولة.

ويرى العالم توما الأكويني أنه لا يمكن لقانون مدني أن يكون سليماً وناجحاً إذا كان مضمونه مخالفاً للقانون الإلهي؛ فالمجتمع يهدف إلى بلوغ حياة الفضيلة والخير الأسمى، وهو لا يدركها إلا بقوة الوحي السماوي، لذلك فإن الدولة اللاهوتية وليست المدنية هي التي توجه الناس إلى الهدف المذكور.

ويعارض مارسيلوس من بادوفا آراء توما الأكويني، إذ يفصل الأول الكنيسة عن الدولة، غير أنه يجعل رجال الدين تابعين للملك. ويرى دانتى أن للإنسان هدفين جوهريين: فالإنسان من بين المخلوقات يتصف بالصالح والفساد، فهو وحده بين المخلوقات يعيش على مستويين، فهو مخلوق صالح، ومخلوق فاسد. وبالنتيجة يسعى الإنسان

لنيل نوعين من السعادة، إحداهما دنيوية عندما تحقق البشرية قواها الفكرية عبر الزمن؛ والأخرى عندما تبلغ البشرية كمالها الروحي وتتمكن من مشاهدة وجه الله. ويرى دانتي أنه على الإنسان أن يسعى لبلوغ هاتين الحالتين من السعادة العظمى بطرق مختلفة، السعادة الأولى عندما يتبع التعاليم الفلسفية ويطبقها على قدراته الأخلاقية والفكرية؛ والسعادة الثانية عندما يتبع التعاليم الروحية التي تتجاوز مستوى العقل البشري وفقاً للقوانين اللاهوتية الروحية، والإيمان، والأمل، والإحسان.

يؤسس دانتي نظريته الخاصة باستقلال الدولة عن الكنيسة انطلاقاً من آرائه حول فلسفة القانون المدني من جهة، وحول الدين والوحي والقانون الإلهي من جهة أخرى، أي بين العقل والإيمان. يقول دانتي للإنسان عنانان يمسك بكل عنان فارس؛ ويوجهه كل فارس نحو أحد الهدفين (أو إحدى السعادتين) المذكورين. أحد الفارسيين هو الحبر الأعظم الذي يقود البشر بواسطة الوحي والإيمان إلى الحياة الخالدة؛ والفارس الآخر هو الملك الذي يقود الناس بواسطة التعاليم الفلسفية إلى السعادة الدنيوية. ويمكن أن ينظر المرء إلى الكنيسة والدولة مثل الشمس والقمر، فالدولة تتلقى بعض النور من الكنيسة حتى فيما يتعلق بقوانينها المدنية. غير أن للدولة منابعا الخاصة من النور الذي ينبعث من العقل. فالسلطة المدنية (الزمنية) لا تتلقى من السلطة الروحية قوتها ونفوذها، ولا مبررات وجودها، وإنما تتلقى منها نور النعمة الإلهية ومباركة الحبر الأعظم لكي تؤدي مهامها على أكمل وجه.

والواقع أن جميع النظريات السابقة التي ترجع في معظمها إلى القرون الوسطى، تعتبر أن الدين ظاهرة فوق طبيعية، وأن للكنيسة كذلك أسساً فوق طبيعية، وأن الدين والكنيسة يهدفان إلى قيادة الإنسان نحو هدف فوق طبيعي. وتختلف تلك النظريات فيما بينها بحسب موقفها من طيبات الدنيا، ومتع الحياة، ومن قدرات الإنسان العقلية، ومن سلطات الإنسان القضائية.

ويرى غيلسون أن اختلاف النظريات المشار إليها تؤكد المبدأ القائل بأن «الطريقة التي يتصور المرء بها العلاقة بين الدولة والكنيسة، والطريقة التي ينظر بها إلى العلاقة بين الفلسفة واللاهوت؛ والتي يتصور بها العلاقة بين الطبيعة والعناية الإلهية، جميعها مرتبطة بالضرورة. وما زالت النظريات الخاصة بالعلاقة بين الدولة والكنيسة متبعة، مع بعض التغييرات، في العهود الحديثة.

ومن مميزات الآراء الجديدة حول موضوع الدين أنها تتبنى أفكاراً أكثر واقعية وتسامحاً، فنجد الفلسفة تدافع عن الدين باعتباره يدعم السلام في المجتمع؛ وفي الدولة العلمانية تعتبر الكنيسة مؤسسة بشرية مدنية؛ وأصبح مبدأ التسامح الديني لا يعني التسامح ضمن المجتمع الواحد فقط، بل يشمل كذلك التسامح بين الأديان المختلفة. يقول الفيلسوف لوك Locke: «يبدو لي أن الدولة عبارة عن تجمعات من الناس تهدف إلى توفير مصالحهم واحتياجاتهم المدنية، وإلى حماية السكان وتحسين ظروف حياتهم؛ وأن الكنيسة مجموعة متطوعة من السكان توجه الناس إلى عبادة الله، وتعلمهم الشعائر الدينية، وتقودهم إلى سبيل الرحمة والخلاص.

ويهاجم الفيلسوف ميل Mill القوانين التي تقيد حرية الإنسان العقائدية، ويعتبرها تدخلاً غير مشروع في حقوق الفرد، ويقول ما مفاده: إن الفكرة القائلة بأنه من واجب شخص ما أن يأمر شخصاً آخر بأن يلتزم بالشعائر الدينية هي سبب جميع الاضطهادات التي أنصبت على الأبرياء».

ويرى هيفل أنه يجب على الدولة أن تطلب من المواطنين أن ينضموا إلى الكنيسة، ولكن ليس لها أن تتجاوز هذا لحد، لأن إيمان الرجل يتوقف على أفكاره ومشاعره، ولا تستطيع الدولة أن تتدخل فيها.

وهكذا يبدو أن المواقف التي يتبناها الناس حول موضوع العلاقة بين الدولة والكنيسة يتوقف على مفاهيمهم المختلفة لموضوع الدين. وينطبق هذا كذلك على وجهات النظر المختلفة حول الحرية العقائدية، والانشقاق عن الكنيسة، والهرطقة، ونبذ العقيدة، ومهنة التبشير والسعي لهداية الملحد، وغير ذلك من الموضوعات العقائدية الحساسة⁽¹⁾⁽²⁾.

(1) المرجع : هذا الموضوع ملخص من موسوعة :

Great Books of the Western World, Decline & fall of the Roman empire, vol. II - Chapter XV (E. Gibbon).

(2) المرجع : هذا الموضوع ملخص من موسوعة :

Great books of the Western world, The great Ideas (Syntopicon - vol. 3-Chapter 79).

طاقات الإنسان الكامنة



الإنسان مستودع تكمن في أعماق نفسه طاقات هائلة لا يستغل إلا جزءاً قليلاً منها، مع أنها جاهزة للاستعمال لكل من يعرف كيف يستدعيها عند الحاجة؛ غير أن معظم الناس يعيشون على ما يلتقطون من فتاة طاقاتهم وقدراتهم القريبة من السطح دون الغوص في الأعماق.

ويلاحظ أن القليل من الأشخاص الذين يستطيعون أن يستفيدوا من مواردهم النفسية الراكدة يقدرّون على مواصلة نشاطاتهم الفكرية والجسدية، ورفع مستواها، دون أن يشعروا بأيّ ردود فعل سلبية، إذا حافظوا على الشروط الصحية المطلوبة؛ ذلك أن النفس والجسد (الروح والمادة) وحدة متكاملة تتكيف مع الظروف الجديدة، وبمقدار ما يحدث من تلف، يقابله ارتفاع معدل مناسب من الإصلاح والتجديد.

فإذا جمعنا بين المفهوم القائل بأن قليلاً من الناس يستغلون جميع طاقاتهم النفسية والفكرية والجسدية، والمفهوم القائل بأن أيّ شخص يمكن أن يعيش في توازن حيوي حتى عندما ينفق طاقات كبيرة من مخزونه، تفتح أمامنا مجالات أخلاقية بالنسبة للفرد تشجعه على الانطلاق من قيود الحياة الضعيفة؛ ومجالات أخرى عملية هامة تعمل على تطوير الاقتصاد الوطني، خاصة إذا وفرت

الدولة للمواطن الطموح الوسائل المادية والمعنوية التي تحفزه على استغلال مخزوناته الراكدة لصالحه ولصالح المجتمع.

ويطرح عندئذ السؤال الهام: ما هي الحوافز التي تجعل المرء يستنهض قدراته الكامنة ويستتفر إمكانياته الروحية الخاملة وينطلق إلى فعل المعجزات؟ وما هي الوسائل التي ينبغي توفيرها لتدريب الناس على شحذ همهم ليطلقوا عنان طاقاتهم ويرتفعوا بنشاطاتهم إلى قمة الفعالية؟ ولعله من الممكن أن تجعل الجهات المسؤولة هذا الهدف أحد مقاصد التربية العامة.

عندما نقيس طاقات الإنسان نأخذ في الاعتبار نوعية النشاط وكميته. فالكتابة مثلاً تتطلب نوعاً من النشاط، الداخلي أعلى مستوى من المشي؛ والتفكير يتطلب مستوى أعلى مما تتطلبه الكتابة؛ واتخاذ القرارات أكثر من مجرد التفكير؛ واتخاذ قرارات الرفض يتطلب مستوى أعلى من قرارات الإيجاب. والأعمال التي يقوم بها الرجال والنساء أنواع وأشكال، وكل نوع يحتاج إنجازَه إلى قدرات متخصصة، وعلى هذا يمكن أن يكون موضوع التساؤل على قسمين:

- ما هي حدود القدرات البشرية في الاتجاهات المختلفة؟

- ما هي الوسائل المتنوعة التي تحفز قدرات الناس من أجل تحقيق أفضل النتائج؟

لا شك أن كل فرد قد جرب ظاهرة الشعور بالنشاط والحيوية، وبفقدان هذه الحيوية أحياناً أو انخفاض مستواها أحياناً، يستولى

على المرء الشعور بركود همته، فلا شيء حوله يستفزّه، ولا يستطيع تركيز اهتمامه على شيء، وهو في ذلك اليوم، وفي تلك الظروف لا يستغل إلا جزءاً ضئيلاً من طاقته. والواقع أن الإنسان، بصفة عامة، ينشط ويتعلم ويعمل ويحيا ضمن حدود ضيقة، ويبقى نشاطه الفكري والبدني أقل بكثير مما يمكنه أن يحققه؛ وهذا التقصير في استغلال إمكانياته يقلص في مجال حيويته، ويخفض مستوى طموحاته، ويضيق آفاق حياته.

ومن المفيد أن نتساءل: ما هي العوامل التي تجعل بعض الناس فقط قادرين على استغلال قدراتهم إلى حدودها القصوى؟ وما هي الوسائل التي يمكن أن تساعد المقصرين وتحفز المتخاذلين على تحسين نشاطهم وتحقيق طموحاتهم؟

يمكن القول بصورة عامة أن جزءاً من الجواب يكمن في الأفكار والمشاعر والرموز التي توظف اهتمام المرء بشيء ما، وتدخل إلى نفسه قدرًا من الحماس يحرك مشاعره ويدفعه إلى بذل جهد أكبر، ويولد فيه مزيداً من الإرادة والثقة فينهض بما كان بالأمس يظن أنه صعب المنال.

ولعل نظرة سريعة إلى ظروف حياة أهل البادية وسكان المدينة توضح إلى أيّ درجة يمكن للمرء أن يستجد بطاقاته الكامنة عندما تدفعه الظروف والحوافز إلى ذلك. من المعروف كم هي حياة المدينة الكبيرة متسارعة الوتيرة، متعددة العوامل التي ينبغي للمرء أن ينجزها، وكثيرة القرارات والمهام التي عليه أن ينجزها، وتنوع العلاقات مع مختلف الإدارات والتي تتطلب التنقل في ظروف مزعجة أحياناً نفسياً ومعنوياً

وجسدياً بسبب التلوث والاكتظاظ والتوتر. كل هذه التعقيدات في حياة أهل المدينة تبدو للبدوي في قريته متاعب لا تحتمل، مزعجة ومخيفة.

ولنفرض أن ذلك الفلاح انتقل إلى المدينة، فما أن تمرّ سنة أو سنتان حتى يجد نفسه قد اندمج في ظروف الحياة الجديدة، وألف إيقاعها وحيويتها وضجيجها، وانسجم مع توتراتها وتمتع بما فيها من نشاط ومباهج؛ هذا بطبيعة الحال إذا كان له مصدر رزق يكفيه. فما الذي أمدّ هذا الفلاح الهادئ في قريته بتلك الطاقة التي ساعدته على تحمل أعباء حياة المدينة بعزم ونشاط؟ هل هي الضرورة، الطموح والرغبة في تغيير نمط حياته، عدوى الجماهير، ضغوط المدينة وكثافة سكانها... والمهم أن جميع هذه العوامل وكثير مثلها تدخل في نطاق الدوافع والمحفزات التي تتجد المرء بمزيد من طاقته الكامنة كلما توفرت لديه الرغبة والإرادة والحماس من أجل تغيير ظروف حياته نحو الأفضل.

وهناك أمثلة عديدة على ما يحدثه الشعور بالواجب والتضامن الأسري والارتباطات العائلية من التفاني والتضحية في سبيل حماية الأقربين وإسعادهم. وكثيراً ما تتفوق المرأة على الرجل، عندما تصبح زوجة وأمّاً، في استغلال طاقاتها الكامنة من أجل رعاية زوجها وأطفالهما. وأكثر ما تجده من دلائل التحمل والإخلاص والتضحية يتمثل في جهود ملايين الأسر الفقيرة حيث ترعى المرأة جميع أفراد أسرتها، وتعمل على تماسكها، وتبذل جهوداً مضيئة في أعمال الطبخ، والتنظيف، والعلاج، والتعليم، والخياطة، وجمع الغذاء، والاقتصاد وغير ذلك. وجميع هذه الجهود تحقق بفضل استثمار المرأة لطاقاتها التي كانت كامنة قبل إن تخرجها إلى حيز العمل مشاعر الحب والمسؤولية والتضحية.

وهكذا نلاحظ أن المشاعر القوية، الإيجابية منها والسلبية، مثل الحب والغضب، واليأس والأمل، والغيرة، والتنافس، (ورغم ما في اليأس من مواقف سلبية) قد تدفع الناس إلى يقظة حياتية، ومحاولة ناجحة؛ وكم من ظروف يأسه كحصار خانق، ومركب معرض للغرق، ورحلة استكشافية خطيرة إلى القطبين أو إلى أقصى البحار والقارات، برز بين رجالها أبطال حولوا اليأس والخطر إلى انتصار. وقد حدث مرة انفجار مدمر في منجم فحم كبير أخرج رجال الإسعاف من أعماقه مائتي جثة. وبعد عشرين يوماً على الانفجار سمع عامل صوتاً تحت الأنقاض ينادي «أنا هنا». كان صوت أحد عمال المنجم تولى قيادة سبعة عشر من رفاقه في ظلام الخنادق، فنظم سلوكهم، وزرع في نفوسهم قوة الإيمان والأمل والنجاة وقادهم نحو الحياة. وكم ظهرت في معترك البقاء من طاقات وبطولات رائعة كانت قبل ذلك ساكنة راكدة، ولم تتفجر إلى في أوقات الخطر والأزمات. وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

يبدو أن مفتاح الطاقة الكامنة في أعماق النفس هي الإرادة، ولكن الصعوبة في طريقة استخراجها واستغلالها، وهذا يرجع إلى شخص الإنسان وكذلك إلى الظروف المحيطة به، وردود أفعاله. وقد يكفي أحياناً أن يبذل جهداً صغيراً كأن يقول «لا» لشيء يفره؛ أو أن يتبنى موقفاً شجاعاً فينجز عملاً ناجحاً يرفع نفسه إلى درجة أعلى مستوى الطاقة المعنوية.

ومن الملاحظ أن المشاعر والحوافز التي تحدث في الظروف العادية قد تضعف أو تختفي أحياناً، وأثناء اختفائها تعود النشاطات إلى مستويات سطحية؛ ويلجأ خبراء النفس الإنسانية إلى ما يعرف

بنظام الزهد المنهجي للمحافظة على منابع الطاقة في مستوى الاستغلال. ويرى أحد الخبراء أنه إذا واطب المرء على تدريباته بانتظام على حياة الزهد والتقشف، وبصورة تدريجية، فإن سلوكه سيرتفع يوماً بعد يوم إلى درجات عالية من القوة والإرادة.

الأفكار، وما أدرك ما الأفكار! فكما سبق أن مشاعر الحب، والغضب، والشجاعة، والوفاء، والظلم، والطغيان.. تثير في نفس الإنسان طاقات جبارة كانت خامدة في أعماق النفس، نجد كذلك رموزاً أخرى مثل فكرة الوطن، والعلم، والحرية، والشرف، والدفاع عن الضعيف، والنهي عن المنكر، وما شابه ذلك تخلق في الشخص حماساً وثورة أخلاقية تترك آثاراً عميقة في حياة المجتمع.

ومن العوامل التي تطلق العنان لقدرات الشخص الكامنة عملية التحول من عقيدة إلى أخرى، أو من حزب إلى آخر، أو من مذهب إلى آخر، فإن هذا التحول يدفع إلى بذل جهد أكبر للاندماج في الطائفة الجديدة، فيستتجد المرء بطاقة من مخزونه يستغلها لإبراز دوره في مواقفه الجديدة. وكم شاهدنا من عزم وحماس وقدرات جديدة تتدفق من نفوس الأشخاص الذين اعتنقوا عقائد سماوية بعد أن كانوا ملحدين، وكذلك أو ما يقاربه من أشخاص تحولوا من الماركسية إلى الرأسمالية، أو من الوظيفة إلى العمل الحرّ وكأنهم انتقلوا من الضيق إلى الحرية، ومن حالات الركود إلى الانفتاح والمنافسة والتحدي. وأعمق من ذلك أثراً ما خلقتة الديانات الكبرى من طاقات جبارة غيرت وجه العالم، وما زالت آثارها وتعاليمها منبعاً للتجدد والتطور⁽¹⁾.

(1) هذا الموضوع مقتبس من بحث للفيلسوف وليام جيمز (1842 - 1910).

من أنباء اليهود



اليهود (بنو إسرائيل) من الشعوب السامية القديمة، ويزعمون أنهم من نسل إبراهيم عليه السلام. ويدعون أن الله باركهم واصطفاهم ليكونوا شعبه المفضل جزاء لهم على طاعتهم لأوامره منذ عهد إسحاق ويعقوب عليهما السلام. وبما أن يعقوب عرف كذلك باسم «إسرائيل» فقد أصبحوا من بعده يعرفون كذلك ببني إسرائيل.

ثم جاء نبي الله موسى عليه السلام، فأوحى الله إليه بالوصايا العشر، وبالتوراة وبعض الأسفار لتنظيم حياة بني إسرائيل؛ ولكنهم خالفوا تعاليم موسى عليه السلام بما ارتكبوا من معاصي وخطايا فعاقبهم الله. واليهودية مجموعة من العقائد والتعاليم والشعائر والتقاليد، يعتبرها بنو إسرائيل ديناً، وثقافة وتاريخاً وحضارة، وموطناً، و«ميثاقاً من الله»، وهذا منبع الخطر.

اليهودية عقيدة ضيقة محصورة وغير اجتماعية. وبنو إسرائيل يعتبرون أنفسهم وحدهم الوارثين «للعهد» والميثاق الذي منحهم الله على لسان موسى عليه السلام، وهم لذلك لا يرغبون في إنقاص قيمة ميراثهم الروحي بالسماح للأجانب بمشاركتهم فيه؛ خاصة وأن رسالة موسى في نظرهم لا تأمر بدعوة الناس للدخول في دينهم.

ولا شك أن سلوك التكبر والتعصب الذي يحيط بمجتمعهم وبشعائرتهم الغريبة، ورفضهم الاندماج (عقائدياً) في المعاملات

البشرية أصبح يضيف عليهم صفة التعالي، وطابع النفور من القبائل والأجناس الأخرى؛ ومن ذلك مثلاً أنهم يمنعون استقبال غيرهم في تجمعاتهم الشعائرية، ويرفضون التزاوج مع غيرهم.

ويقول أحد المؤرخين: إن اليهود كانوا دوماً يثيرون مشاعر العداء ويلجؤون إلى الشغب بسبب جشعهم، وتشدهم، ومكرهم، وعزلتهم، وحرصهم على جمع المال، وقد تسبب هذا السلوك أحياناً في تدبير المذابح ضدهم، وغالباً ما كانت شعائرتهم مادية ودموية بعيدة عن تعاليم موسى عليه السلام. كانت تتمثل في تقديم أضاحي وذبائح في مشاهد تثير الازدراء. وكان الجزاء والعقاب الذي ينتظرونه كله من طبيعة مادية دنيوية. بل الأسوأ من ذلك أنه من جملة ما حصل من تحريف في كتبهم أنهم كانوا يصفون الله بصفات البشر، ويجيزون الخطأ للأنبياء. وما أبعد هذا عن شريعة موسى عليه السلام. ولهذه الأسباب، وكثير غيرها، نشأت العداوة والبغضاء بين اليهود وغير اليهود عبر العصور، مما جعل بني إسرائيل يعيشون في نزاعات عنصرية عبر العصور، ويستثنى من ذلك العهد التي نعموا خلالها بالحرية والسلام أثناء انتشار الامبراطورية الإسلامية.

اليهود في عهد السبي والشتات :

عندما زحف الملك نبوخذ نصر بجيشه على فلسطين عام 587 قبل الميلاد، استولى على مدينة أورشليم (القدس) ورجع إلى عاصمته بابل بعشرة آلاف من اليهود، ثم رجع الملك إلى أورشليم عازماً على أن ينهي المشكلة اليهودية نهائياً، فأحرق المدينة، ودمر هيكل سليمان، وساق أمامه جميع سكان المدينة من اليهود إلى بابل، وهو ما يعرف بالسبي البابلي.

عندما تولى القائد فسباسيان عرش روما، أوكل إلى ابنه تيتوس، سنة 70 ميلادية، حكم ولاية فلسطين. فقام تيتوس بالقضاء على ثورة اليهود بشدة، ودمّر مدينة أورشليم تدميراً كاملاً، وقضى بعد ذلك على ثورة اليهود في منطقة مَسْعَدَة سنة 73.

ويروى المؤرخ اليهودي يوسفوس المعاصر لهذه الحوادث، أن الجنود الرومان أضرموا النيران في هيكل اليهود فاحترق بكامله، وأسروا سبعة وتسعين ألفاً من اليهود بيعوا في أسواق الرقيق. ويقدر يوسفوس عدد الذين هلكوا من اليهود في هذا الهجوم الروماني بنحو مليون ومائة وسبعين ألفاً.

قرّر الإمبراطور الروماني هَدْرِيَان، سنة 130 ميلادية، أن يقضي على ما في اليهودية من عنصرية وشعائر كان يعتبرها معادية، فمَنع إقامة الطقوس علناً، ومنع الأعياد اليهودية، وحظر عليهم دخول بيت المقدس إلا في يوم واحد في الأسبوع، ومنع شعائر الإسْبَات والختان، وفرض على اليهود ضريبة جديدة، وشردهم في كثير من ولايات الامبراطورية الرومانية، وضربت عليهم الذلة والمسكنة فلم يجدوا لهم نصيراً.

ويروى أحد المؤرخين أنه يصعب على المرء أن يجد في العالم مدينة خالية من اليهود؛ وأنه في سنة 70 ميلادية كان يوجد منهم عدد كبير في بلاد العرب، وفي الحبشة، وفي آسيا الصغرى، وفنيقية، وبلاد اليونان، وقرطاجنة، وروما، وبومبي، وكان عددهم نحو سبعة ملايين في الإمبراطورية الرومانية وحدها.

فولتير وتاريخ اليهود :

من المعلوم والمشهور أن بني إسرائيل يعتزون كثيراً بتاريخهم، ويزعمون أن الله هو الذي دوّنه. ويردّ عليهم فولتير، الفيلسوف الفرنسي الشهير، مؤكداً بأن تاريخ ملوك اليهود كتبه بشر، وهو مثل تاريخ أيّ شعب آخر، ويقول: إن الله لا يهتم بأن يملي تاريخ شعب رفض أن يمتثل لتعاليمه. وإذا افترضنا أن الله هو الذي كتب تاريخ اليهود، كما يزعمون، فلماذا توقف عن كتابته، إذا كان يعتبرهم شعبه المختار كما يدعون. ومن يكون عندئذ الشخص الذي كتب تاريخ سبيهم وشتاتهم، وكتب عليهم الذلّ والمسكنة والهوان؟!)

ويضيف فولتير ما مفاده : «إذا كان الربّ جلّ شأنه هو كاتب تاريخهم طوال عهود مديدة، فما علينا إلا أن ننحني أمام قداستهم، لأنه عندئذ يكون أدنى حذاء يهودي أعلى منزلة من يوليوس قيصر أو الإسكندر المقدوني العظيم».

ويشير فولتير إلى أن تاريخ ملوك اليهود، مثل غيرهم ممن شعوب الأرض، ليس كله مقدساً، ويورد أسماء كثيرة لملوك وأنبياء من بني إسرائيل قتل بعضهم البعض الآخر. ويختم ساخراً: علينا أن نعترف بأنه إذا كان روح القدس هو الذي سجل تاريخ اليهود فإنه لم يختر موضوعاً مثالياً.

من سجلات التاريخ



قصة قابيل وهاويل :

عرض آدم عليه السلام على ولديه قابيل وهاويل أن يتزوج كل منهما توأم أخيه، فرفض قابيل أمر أبيه، وأصر على أن يتزوج توأمه. أوحى إلى آدم أن يقدم كل واحد من ابنيه قرباناً لله للفصل في الموضوع. وتبين الآيات التالية قصة الأخوين هاويل المؤمن الطائع، وقابيل المتمرد المذنب الذي قتل أخاه هاويل.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين (٢٨) إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين (٢٩) فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين (٣٠) فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين (٣١)﴾

(سورة المائدة)

وبما أن قصة آدم عليه السلام وابنيه مفصلة في كتب التفسير، رأيت أنه من المفيد أن يطلع القارئ على ما ورد في كتاب اليهود (المقدس) حول هذه القصة: مع ما ينبغي من الاحتياط لما يكون حصل من تحريف مخالف لنص القرآن الكريم.

قصة قايين وهابيل⁽¹⁾

«وعرف الإنسان حواءً امرأته فحملت وولدت قايين، فقالت: «قد اقتنيتُ رجلاً من عند الربِّ». ثم عادت فولدت أخاه هابيل. فكان هابيل راعي غنم، وكان قايين يحراث الأرض. وكان بعد أيام قدّم قايين من ثمر الأرض تقدمةً للربِّ. وقدّم هابيل أيضاً شيئاً من أبقار غنمه ومن دهنها. فنظر الربُّ إلى هابيل وتقدمته، وإلى قايين وتقدمته لم ينظر، فغضب قايين وأطرق رأسه. فقال الربُّ لقايين: «لِمَ غضبت ولمَ أطرقت رأسك؟ فإنك إن أحسنت أفلا ترفع الرأس؟ وإن لم تحسن أفلا تكون الخطيئة رابضة عند الباب؟ إليك تتقاد أشواقها، فعليك أن تسودها». وقال قايين لهابيل أخيه: «لنخرج إلى الحقل». فلما كانا في الحقل، وثب قايين على هابيل أخيه فقتله».

«فقال الربُّ لقايين: «أين هابيل أخوك؟» قال: «لا أعلم. أحارس لأخي أنا؟» فقال: «ماذا صنعت؟» إن دماء أخيك صارخ إليّ من الأرض. والآن فملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دماء أخيك من يدك. وإذا حرثت الأرض، فلا تعود تعطيك ثمرها. تائهاً شاردًا تكون في الأرض».

«فقال قايين للربِّ: «عقابي أشد من أن يطاق . ها قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أستتر، وأكون تائهاً شاردًا في

(1) المرجع : العهد القديم (الكتاب المقدس لدى اليهود)، سفر التكوين (نشأة العالم والبشرية): قايين وهابيل وزلّة الإنسان - الصفحة 74 و75.
ملاحظة : قايين هو قاييل.

الأرض، فيكون أن كل من يجдени يقتلني». فقال له الرب: «لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف يؤخذ بثأره منه». وجعل الرب لقايين علامة لئلا يضربه كل من يجده. وخرج قايين من أمام الرب فأقام بأرض نود شرقي عدن».

موسى عليه السلام والرجل الصالح:

التقى موسى عليه السلام بالرجل الصالح الخضر في مجمع البحرين، وقال له هل تأذن لي أن أرافقك لتعلمني مما علمك الله. فقال له الخضر: إنك لن تستطيع معي صبراً. واشترط العبد الصالح على موسى أن لا يسأله أثناء الرحلة عن فعل يفعله.

وبينما هما مسافرين في سفينة اقتلع الخضر لوحين من ألواح السفينة على حين غفلة من أهلها. ففزع موسى عليه السلام من هذا الفعل، وسأله لماذا؟ «لقد جئت شيئاً إمرأاً». غير أن موسى تذكر الشرط واعتذر لصاحبه؛ وواصل الرجلان رحلتهم. غادر الرفيقان السفينة، فوجدا غلاماً يلعب مع أقرانه، فأخذ العبد الصالح بعيداً عن أقرانه وقتله.

ما أشد ما كانت دهشة موسى عليه السلام لهذا الفعل، قتل صبي بريء، وقال لرفيقه: «أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً». فلم يزد الخضر عى أن ذكره بشرطه قائلاً: «ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً».

انطلق الرجلان حتى بلغا قرية وقد نال منهما الجوع والتعب، ولم

يقدم لهما أهل القرية طعاماً ولا مأوى. وشاهد الخضر جداراً يتداعى للسقوط، فحرص على إعادة بنائه. فقال له موسى أتفعل هذا لأهل قرية بخلوا عنا بالطعام، لو شئت لاتخذت أجراً على عملك.

فأجاب الخضر موسى عليه السلام قائلاً: هذا فراق بيني وبينك، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً. وشرح له الأسباب التي جعلته يخرق السفينة، ويقتل الطفل، ويصلح الجدار المتداعي، حسبما ورد في الآيات من 79 إلى 82 من سورة الكهف.

معجزة البحر:

ضربت الذلة والمسكنة على بني إسرائيل في مصر، فاجئوا إلى موسى عليه السلام يلتمسون منه أن يخرجهم من مصر؛ فسار بهم حتى بلغوا البحر، فاستولى عليهم الخوف خشية أن يلحق بهم فرعون وجنوده. أوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه، فانحصرت المياه، ودخل بنو إسرائيل يمشون على اليابسة، والمياه لهم سور عن يمينهم وشمالهم. وبينما هم يعبرون أبصروا فرعون وجنوده يلاحقونهم، فتملكهم الرعب؛ وأوحى الله إلى موسى أن يمدّ يده على البحر ثانية، فترتدّ المياه وتغرق فرعون وجيشه.

وشاهد بنو إسرائيل هذه المعجزة الكبرى فآمنوا بالله، ولكن إلى حين، ثم عاودهم باطلهم الذي تمكن من نفوسهم.

كليوباترا ويوليوس قيصر :

كليوباترا، المرأة التي لا تقاوم، هي ابنة بطليموس 12، وهي من أصل يوناني مقدوني. أوصى والدها قبل وفاته بأن يتزوج ابنه بطليموس 13 بأخته كليوباترا كشرط لوراثة لهما للملك معاً. كانت كليوباترا غزيرة الثقافة، ذكية، بليغة الكلام، حسنة الصوت، رشيقة القوام، تتحدث عدة لغات، جمعت إلى ذلك فتنة الجمال. وكانت شديدة الطموح، تحلم بتأسيس دولة قوية.

قامت الحرب بينها وبين أخيها حول العرش؛ وعندما دخل يوليوس قيصر مصر سنة 48 قبل الميلاد، أعجب بها أيما إعجاب، وساعدها في حربها ضد أخيها، فجلست على العرش، وجعلت أختها الصغرى شريكاً لها على عرش مصر، وأصبحت هي الحاكمة الفعلية.

مكث القيصر في مصر، إلى جانب كليوباترا تسعة شهور، وأنجب منها ولداً سماه قيصريون. وليس بعيداً أن يكون قد فكر أن يتزوجها ليجمع بين ملك مصر وروما.

كليوباترا وأنطونيوس :

كان القائد الروماني أنطونيوس يحكم المنطقة الشرقية من الإمبراطورية الرومانية، وفيها مصر واليونان وما بينهما. أرسل أنطونيوس إلى كليوباترا بالمثل أمامه ليحاسبها على مساعدات كانت قدمتها إلى أعدائه في حرب سابقة.

وجاءت كليوباترا من الاسكندرية إلى مدينة طرسوس في سفينة مزخرفة بالفضة والذهب، والألوان الأرجوانية الزاهية. وكانت وصيفاتها في أزياء حور البحر، أما هي فقد تزيّنت فكانت تبدو كزهرة وردية بسحر جمالها، وزخرف أثوابها، تحت سرادق مركبها الموشي بالذهب.

دعت أنطونيوس إلى حفلة عشاء، وقدمت له أشهى أصناف الطعام وألذّ الشراب، وأغوت حاشيته وقواده بما أغدقت عليهم من هدايا. كانت كليوباترا في سنّ الثلاثين من عمرها وقد اكتملت مفاتها، ونضجت أسرار جمالها. وبعد أحاديث الولاء والحب.. انتهت السهرة بأن أهدى لها أنطونيوس بلاداً واسعة في سوريا وقلبية وغيرها. ودعته هي لزيارتها في مصر، فلبى الدعوة، وقضى إلى جانبها في الاسكندرية شتاء عامي 40 - 41 (قبل الميلاد) ينعم بدفء الملكة ورعايتها، بعيداً عن متاعب الإمبراطورية.

عاد أنطونيوس بجيشه إلى روما، وكادت الحرب تندلع بينه وبين أكتفيان، غير أن الحكمة تغلبت على الأنانية وتصالح القائدان، وتزوج أنطونيوس أخت أكتفيان، واسمها أكتافيا. وذهب أنطونيوس إلى اليونان (الداخلية ضمن منطقة حكمه). ولكنه وجد نفسه بعد فترة في حاجة إلى الجند والمال لمحاربة ملك بارثيا، فأرسل زوجته إلى روما، وبعث إلى كليوباترا، فقَدِمَتْ إليه بقليل من السفن والمال.

وعاد أنطونيوس إلى مصر، ومنها بعث برسالة الطلاق إلى زوجه أكتافيا، وتزوج كليوباترا، وثبتها هي وقيصريون حاكمين على مصر وقبرص، وخلع الولايات الشرقية من الإمبراطورية على ابنه وابنته من

كليوباترا، فأدى تصرفه هذا إلى غضب مجلس الشيوخ في روما، فشجع هذا أكتفيان على إعلان الحرب على أنطونيوس وكليوباترا.

وفي النهاية انهزم أنطونيوس وكليوباترا في معركة بحرية حاسمة؛ وأدرك أنطونيوس أنه خسر كل شيء، فعاد إلى الإسكندرية وذات يوم بلغه أن كليوباترا انتحرت، فطعن نفسه طعنة قاتلة. ثم علم من أعيانه أن كليوباترا لم تنتحر، فحملوه إليها ومات بين ذراعيها. وعندما علمت كليوباترا أن القائد المنتصر أكتفيان وصل إلى الإسكندرية بجيشه، وأنه عازم على أن يأخذها أسيرة ليعرضها في موكب انتصاره في روما، استلقت على فراشها، ووضعت على صدرها أفعى سامة، فكانت نهايتها ولم تتجاوز التاسعة والثلاثين من العمر؛ ودفنت إلى جوار أنطونيوس.

من معجزات المسيح عليه السلام :

كان الشخص المتوفي يدعى لعازر، أخو مريم، المرأة التي سبق أن مسحت قدمي المسيح بشعر رأسها، وكان يحبها ويعطف عليها. فلما وصل المسيح إلى قبر المتوفي علم أنه دفن قبل أربعة أيام. وشاهد مريم تبكي ويبكي معها اليهود الذين حضروا ليعزوها. وتكلم بعضهم فقالوا: أليس بإمكان الذي فتح عيني الأعمى (يعنون المسيح) أن يردّ الموت عن لعازر؟

توجه المسيح إلى القبر وقال: ارفعوا عنه الحجر، ورفع المسيح

عينيه إلى السماء وقال: شكرًا لك يا إلهي، إنك تستجيب لي دائمًا. ثم صاح بأعلى صوته: «يالعازر، هلمّ فاخرج»، فخرج الميت مشدود اليدين والرجلين بالعصائب، ملفوف الوجه في منديل. فقال لهم المسيح: «حلوه ودعوه يذهب». فأمن به كثير من اليهود الذين شاهدوا المعجزة.

(مختصر من الإنجيل)

أهل الكهف :

استيقظ أهل الكهف من سباتهم الطويل، وأرسلوا أحدهم إلى المدينة ليشتري لهم بعض الطعام. غير أن بائع الطعام رفض النقود التي جاء بها صاحب الكهف، لأنها قديمة، وقد مرّ عليها أكثر من 300 سنة. واجتمع الناس حول محل الطعام، وكثر القيل والقال، فاكتشفوا خبر الفتية الذين فروا بدينهم قبل زمن طويل خشية عقاب الملك.

أبلغوا أصحاب الكهف أن الزمن قد تغير، وأن البلاد يحكمها ملك عادل يؤمن بالله. وعرف الفتيان ما حدث من تغيير بعد غيابهم الطويل، وشعروا أنهم أصبحوا غرباء بعد أن ذهب الأهل والأصدقاء، فتوجهوا بدعائهم إلى الله، وسألوه أن يختارهم لجواره. وما هو إلا وقت قصير حتى فارقوا الحياة. وكرمهم أهل المدينة ﴿فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ (٢١) (سورة الكهف ، الآية 21).

كريستوفر كولبوس⁽¹⁾ :

انطلق أمير البحر كولبوس من ميناء بالوس بأسبانيا في 3 أغسطس (أوت) بثلاث سفن، وكان هو على رأس السفينة سانتاماريا، يرافقه قبطان على رأس السفينة نيّيا، وآخر على رأس السفينة بنتّا؛ واصطحبوا معهم 88 رجلاً للقيام بمختلف المهام. يقول كولبوس:

شاهدنا الأرض على الساعة الثانية بعد منتصف الليل بعد رحلة شاقة حقاً، ساورنا أثناءها اليأس والأمل. وكان هذا الحدث العظيم في يوم الجمعة 12 أكتوبر (عام 1492). أعددنا السفن لانتظار ضوء الصباح. ثم تقدمنا فوصلنا إلى جزيرة صغيرة، وشاهدنا سكاناً عراة. أخذت الراية الملكية وركبت قارباً برفقة زملائي وبعض الرجال المسلحين واتجهنا إلى الشاطئ. شاهدنا أشجاراً كثيرة ومياهاً وفواكه. جمعت قائدي السفينتين والرجال المرافقين وقلت: لتشهدوا جميعاً بأنني أستولى على هذه الأرض باسم الملك فردناد واسم الملكة إيزابيلا، واسم المسيح، واسمها «سان سلفادور».

حضر إلينا جمع من سكان الجزيرة، كانوا جميعهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم. أعطيت لبعضهم قلانس حمراء، وخرزاً مما يوضع حول العنق، وأجراساً صغيرة وأشياء أخرى متواضعة، وكان سرورهم بذلك عظيماً. وفي فترات تالية كان سكان الجزيرة يأتون إلينا سباحة أو في قوارب صغيرة، جميعهم من الشباب، ولم نشاهد إلا فتاة واحدة

(1) هذه نبذة من مذكرات كولبوس، أمير البحر، سجلها أثناء رحلته الأولى إلى «العالم الجديد».

عن بعد . كانوا يقدمون لنا ببغاوات، وأحزمة قطنية، وسهاماً . كانت تبدو عليهم علامات الرضى . كان بعضهم يلونون أجسامهم باللون الأحمر، وآخرون باللون الأسود . أما لون بشرتهم الطبيعي فكان يميل إلى السمرة .

واستتج كولمبوس أن سكان الجزيرة لا يحسنون استخدام السلاح، لأنه عرض عليهم سيوفاً فأمسكوها من نصلها وجرحوا أصابعهم . كما أن سهامهم كانت خالية من معدن الحديد . كان هؤلاء الشباب جميعهم ذوي قامات معتدلة وجوه وسيمة . وأدرك كولمبوس من جروح على أجسادهم أن رجالاً من البرّ الرئيسي المجاور يفزونهم أحياناً ويأخذون منهم أسرى، وأن سكان هذه الجزيرة كانوا يدافعون عن أنفسهم .

ولكن كولمبوس (ككل المستعمرين) يكتب في مذكراته «أنه من الممكن إخضاع هؤلاء السكان بسهولة، لأنهم لا يحسنون استعمال السلاح، وكذلك يمكن هدايتهم إلى «عقيدتنا المقدسة بسهولة وجعلهم مسيحيين مطيعين» . وهو في الوقت نفسه يظهر انزعاجه لأنه لم يجد في هذه الجزيرة الذهب، ذلك المعدن الثمين الذي ركب أهوال البحر من أجله .

واصل أمير البحر رحلته، فوصل إلى كوبا، وحاول أن يعرف من أهلها إذا كان يوجد ذهب في بلادهم، فلم يسعفه الحظ كذلك . وفي الخامس من ديسمبر وصل إلى جزيرة هايتي، وهنا عثر على شيء من الذهب . وحدث أن اصطدمت سفينته بصخور فتحطمت، وسارعت

سفينة نينيا وبعض السكان المحليين إلى إنقاذ البحارة والبضائع. وقدّم زعيم الجزيرة شيئاً من الذهب لكولبوس الذي قرر العودة إلى أسبانيا ليقدّم تقريره إلى الملك والملكة عما حقق في رحلته المشؤومة التي فتحت عهداً تكالب فيه الاستعمار الأوروبي لاستعباد سكان قارة كانت آمنة مسالمة، واستغلالهم وتدمير حضارتهم.

نهاية غرناطة :

عندما ضعفت دولة بني أمية في الأندلس ساد النزاع بين زعماء البلاد وقبائلها، فأدى ذلك إلى نشوء دويلات عديدة في المدن الهامة أصبح حكامها يعرفون بملوك الطوائف، ومن هذه الدويلات دولة بني الأحمر في غرناطة.

أنشأ المسلمون مدينة غرناطة سنة 133 هجرية، وتطورت هذه المدينة حتى أصبحت على مرّ القرون مركزاً هاماً للثقافة والحضارة الإسلامية. ومرّ الزمن وجاء عهد بني الأحمر، فكانت غرناطة، مثل غيرها من الدويلات تدفع الجزية لملك قشتالة الأسباني.

وإزداد تنازع ملوك الطوائف، فشجع ذلك حكام أسبانيا على السيطرة عليهم واحداً تلو الآخر. وحدث أن رفض أمير غرناطة أن يدفع الجزية لملك الأسبان، وزاد في سوء الأوضاع أن حدث نزاع بين أمير غرناطة أبي الحسن وأخيه وابنه حول من يحكم البلاد. وفي نهاية المطاف زحف ملك الأسبان فرديناند والملكة إيزابيلا بجيشهما،

فاكتسحوا حقول غرناطة سنة 897 هجرية، وحاصروا المدينة، وحاول الأمير أبو عبدالله (الابن) أن يدافع عن غرناطة دفاع المستميت، ولكن دون جدوى. وطلب المساعدة من العالم الإسلامي فلم يحصل على شيء.

وفي تاريخ الثاني من شهر يناير (جانفي) سنة 1492 ميلادية اضطر لتسليم مفاتيح غرناطة لفرديناند. ويروى أنه بعد خروجه من المدينة وقف على ربوة ليلقي نظرة أخيرة على غرناطة الخالدة، وأن أمه قالت له عندئذ: أتبكي كالنساء على ملك لم تحافظ عليه كالرجال».

شكسبير في شبابه :

درس شكسبير في المدرسة الابتدائية في مسقط رأسه حيث تعلم شيئاً من اللغة اللاتينية والتاريخ والأدب. وتروى أخبار غير مؤكدة أنه، في شبابه، سرق أرانب وغزلاناً مما أوقعه في مشاكل مع صاحب الأرض.

تزوج وليام شكسبير في سن 18 من فتاة أكبر منه سناً، وأنجب طفلة اسمها سوزانا عام 1583، وتوأمين ولداً وبناتاً سنة 1585، وتوفي الولد بعد 11 عاماً. كان شكسبير يكسب قوته بالتعليم في مدرسة القرية، ولا يعرف شيء كثير عن الثماني سنوات التي قضاها بعد ذلك في مسقط رأسه.

يروى أنه قضى بعض الوقت في الجنديّة؛ وأنه كان يذهب إلى لندن من حين لآخر ليكون علاقات مع بعض الأصدقاء، وأنه بدأ عمله

في لندن كحارس للخيل أمام المسرح؛ وأنه كتب قصيدة أهداها لأحد النبلاء؛ وكان يستقبل داخل المسرح أحياناً في دور وضيع.

وابتداء من سنة 1594 بدأ نجمه يسطع عندما أصبح عضواً في شركة ممثلين هامة تحت إشراف أحد النبلاء، وكانت تملك أفضل مسرح يدعى «غلوب». ومن ثم انطلق شكسبير في الإنتاج المسرحي الذي رفعه إلى قمة المؤلفين، وأصبح اسمه كنار على علم، واشتهر بأنه الكاتب المسرحي لكل الأجيال.

وتجدر الإشارة إلى أنه سنة 1592، قبل أن يسطع نجم شكسبير، كتب أحد الممثلين إلى زملائه يقول (وكان يعني شكسبير): إن هناك غراباً يرتدي جلد الممثلين، ويفتخر بريشه المزخرف، ويظن أنه قادر على أن يطنطن بالشعر كأحسن فرد فيكم». ولكن سرعان ما أصبح «الغراب...»، و«سارق الغزلان» ممثلاً وكاتباً مسرحياً ليس في مسرح «الغلوب» في لندن فحسب، بل في معظم مسارح العالم على مرّ الزمان.

نهاية نابليون :

في مارس 1814 عقدت النمسا، وروسيا، وبروسيا، وبريطانيا حلفاً، وقررت أن تواصل الحرب ضدّ نابليون دون هوادة. وعندما وصلت جيوش الحلفاء إلى أبواب باريس، كان نابليون يهاجم مؤخرتها بجيش ضعيف. وقرر الزعماء في باريس أن يتفاوضوا مع الحلفاء، وأعلن رئيس الحكومة المؤقتة خلع نابليون عن عرش فرنسا، وبدأ

يتفاوض مع لويس الثامن عشر، وهو أخ لويس السادس عشر الذي قتلته الثورة الفرنسية.

استطاع كبار قواد نابليون أن يقنعوه بأنه لا جدوى من مواصلة الحرب ضد أربع دول متحالفة، فأعلن تنازله عن العرش في السادس من أبريل 1814. وبموجب معاهدة فونتانبلو منحه الحلفاء جزيرة إلبا (قرب إيطاليا)، وميزانية سنوية، وحرسا عدد رجاله أربعمائة، وسمحوا له بأن يحتفظ بلقب إمبراطور.

غير أن قائداً في عزم نابليون وطموحه، لم يتجاوز سنه 45 عاماً، لا يقنع بالقليل. استطاع العودة إلى فرنسا، وأن يجمع جيشاً، فدخل بلجيكا وهزم جيش بروسيا، بينما كانت جيوش الحلفاء لا تزال رابضة على حدود فرنسا.

بعد ذلك واجه نابليون الجيش البريطاني في معركة حاسمة في مكان يدعى «واترلو». وبينما كان جيش نابليون على وشك الانتصار تدخل جيش بروسيا وهاجم الجيش الفرنسي بقوة، فدارت دائرة المعركة على نابليون؛ فاضطر للتخلي عن العرش، وقرر الحلفاء هذه المرة أن يبعده عن أوروبا، فأرسلته بريطانيا إلى جزيرة سانت هيلينا في جنوب المحيط الأطلسي.

وصل نابليون منفياً إلى هذه الجزيرة يوم 15 أكتوبر 1815. وكان يرافقه عدد من مساعديه وخدمه. وكان يسمح له بالتجول في جميع أنحاء الجزيرة شريطة أن يرافقه ضابط إنكليزي. وبعد حين ضاق

نابليون ذرعاً بهذه الحراسة ففضل أن يبقى في منزله. كان يملي مذكراته على كاتبه؛ وكان يفضل قراءة المؤلفات الكلاسيكية، ويلعب الورق، وينام منتصف الليل؛ كما اهتم بتعلم اللغة الإنكليزية.

كان مناخ الجزيرة طيباً، وكان نابليون يحصل على أنواع الطعام التي يطلبها. غير أن قلة نشاطه بدأ يسبب له متاعب صحية. وانقطعت زوجه عن مراسلته، وكذلك لم تصله أنباء من ابنه الذي كان يعيش في فيينا؛ كما أن زوجه تزوجت من ضابط نمسوي سرّاً قبل وفاة نابليون.

بدأت تظهر على نابليون علامات المرض في أواخر عام 1817، ويبدو أنه كان يعاني من قرحة أو سرطان في المعدة (أو في الكبد). وساءت حالته الصحية في مطلع عام 1821. وفي أبريل من السنة نفسها أملى وصيته. ومما جاء فيها: أرغب في أن يرمي رماد جثتي على ضفاف نهر السين، وسط الشعب الفرنسي الذي أحببته... ها أنا أموت قبل الأوان، قتلتني الأوليغاركية⁽¹⁾ الانكليزية ومرتزقتها السفّاحون».

توفي القائد الذي سار بجيوشه عبر أوروبا شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، ولعب دوراً عظيماً على المسرح الأوروبي. بتاريخ 5 مايو من عام 1821، ولم يتجاوز الثاني والخمسين من عمره.

(1) الأوليغاركية : حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة همها الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية.

مصطفى كمال، أتاتورك :

يدعى أبوه علي رضا، جاء من جبال ألبانيا إلى مدينة سالونيك (في اليونان) حيث اشتغل في تجارة الخشب. تدعى أم مصطفى زبيدة، وهي ابنة فلاح ألباني وسيدة من مقدونيا، وكان لمصطفى أخت تدعى مقبولة. ولد مصطفى في مدينة سالونيك سنة 1881. التحق بمدرسة دينية، غير أنه تركها بعد عام واحد. ثم التحق بمدرسة تدرس العلوم الحديثة، وغادرها بعد حين. توفى الأب وترك الأسرة في ضيق مادي فانتقلت الأم لتعيش مع أخيها. واشتغل مصطفى بعض الوقت في مزرعة يرعى الحيوانات.

ونجح خاله في إرساله إلى مدرسة عسكرية في سالونيك ممولة من طرف السلطان، وفيها أظهر الفتى جديته في الدرس واهتمامه بالفنون العسكرية؛ فأعجب به أحد الضباط وأوكل إليه تدريب فرقة من الطلاب. وبعد نجاحه في الامتحان أرسل إلى مدرسة عسكرية في موناستير (بمقدونيا). وأثناء هذه الفترة كان مصطفى وصديق له يدعى فتحي يطالعان بشغف كتب روسو وفولتير وغيرهما، ويتحدثان عن كيفية إنقاذ البلاد (تركيا) من حكومة السلطان الفاسدة، ومن برائن القوات الأجنبية المتهالكة على تفتيت ما بقي من الإمبراطورية العثمانية.

نجح مصطفى في امتحاناته وتخرج من مدرسة موناستير برتبة ملازم، فأرسل إلى كلية الأركان العامة في أسطنبول، ومنها تخرج برتبة نقيب سنة 1905. وبدأ يهتم بالجمعيات السرية التي كانت توجه نشاطها للقضاء على الخلافة العثمانية. وأنشأ جمعية أسماها

«الوطن»، وهي جمعية ثورية كانت توزع المنشورات، وتهاجم الجمعيات الإسلامية والمسيحية الرجعية، وتدعو إلى إنشاء حكومة دستورية. وفي عام 1908 انضم مصطفى كمال إلى جمعية الاتحاد والترقي التي عملت على تقويض أركان الخلافة العثمانية.

وتوالى الأحداث، وقويت عناصر الثورة واتسعت مجالات عملها، وفي نهاية المطاف، نجحت جمعية الاتحاد والترقي في الاستيلاء على الحكم. وإبعاد السلطان عبدالحميد عن العرش، وحل محله السلطان عبد المجيد إلى حين، ومصطفى كمال أثناء ذلك قد أظهر قدراته كقائد عسكري واشتهر بما حقق من انتصارات على جيش الحلفاء مما منعهم من الاستيلاء على الأراضي التركية في آسيا الصغرى، وانتهت المفاوضات باعتراف الحلفاء باستقلال تركيا في معاهدة لوزان سنة 1923. وانتخب مصطفى كمال أتاتورك رئيساً للجمهورية حتى وفاته عام 1938.

قرر أتاتورك أن يحدث تغييرات جذرية في جميع مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية والاقتصادية، ومن بين هذه التغييرات:

- فصل الدين عن الدولة، وتبنى مبادئ علمانية غربية كان لها تأثير عميق على الحياة في تركيا، إذ أصبحت دولة علمانية.
- استقدم وفوداً من الحقوقيين الغربيين، وعلى إثر ذلك قرر أن تتبنى تركيا القانون التجاري الألماني؛ والقانون الجنائي الإيطالي؛ والقانون المدني السويسري.

- قرر أن يغلق جميع المدارس الدينية الإسلامية والمسيحية، وأنشأ بدلها مدارس حديثة على غرار التعليم في أوروبا.
 - تبنى نظام التقويم الأوروبي (الغريغوري) بدلاً من الهجري، وجعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد بدلاً من الجمعة، وألغى شعيرة الحج، وجميع الأعياد الدينية.
 - قرر أن تكتب اللغة التركية بالحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية. وقرر تطبيق النظام المترى.
 - بذل جهوداً جبارة لإصلاح الأراضي الزراعية، وتطوير آلات الإنتاج، ووسائل النقل، وفتح الطرق، وإنشاء التعاونيات الزراعية والمساكن القروية، والأسواق.
 - أنشأ مصرفاً لمساعدة الفلاحين بالقروض التسهيلية.
 - وضع برامج ضخمة لتصنيع البلاد واستغلال المواد الأولية الهامة في تركيا.
 - أصدر قانوناً، بموافقة البرلمان، يدعو النساء إلى خلع الحجاب ومنع لبس البرنوس والعباءة والطربوش. وفي سنة 1934 حصلت المرأة على حق الانتخاب.
 - جعل أنقرة عاصمة الجمهورية.
- وغير ذلك من التغييرات والإصلاحات التي رحّب بها البعض وانتقدتها آخرون. وهكذا انتهت الإمبراطورية العثمانية التي دامت نحو خمسة قرون، نشرت أثناءها رسالة الإسلام في العديد من البلدان الأوروبية، ولولاها لما كانت اليوم البوسنة، وألبانيا، وكوسفو، وإسطنبول نفسها.

الوقاية خير من العلاج



يسود الرأي لدى الحكماء أن الضمير يشغل، في بعض الأحيان، «مساحة كبيرة» من نفس الإنسان. والواقع أن أفكار المرء عن ما هو «حق» قد تتراكم إلى درجة المغالاة. وفي مثل هذه الحالات يلاحظ أن بعض الأشخاص يسمحون لحوادث ومواقف وأشياء غير ذات أهمية أن تزعجهم باستمرار إلى أن يفقدوا طعم الهدوء والطمأنينة، وحلاوة السكينة والاسترخاء.

وينصح الحكماء وأصحاب التجارب الإنسان بأن يربي ضميره ويؤدبه، وأن يتبنى معايير متوازنة سليمة لتقود حياته. ويقترحون عددًا من المبادئ قد تساعد على تحسين أسلوب الحياة.

- أن يعترف المرء بأخطائه وبفشله، وأن لا يبحث عن الكمال؛ أن يعترف بأنه قد يفعل أشياء ليس من حقه أن يفعلها؛ وقد لا يفعل أشياء من واجبه أن ينجزها. وإذا وضع المرء تقييمًا واقعيًا وصريحًا لمواقفه وعاداته، فإنه يكتشف بعض مواطن ضعفه. ولكن ليس من السهل أن يعترف الإنسان بنقائصه، ويلوم نفسه على خطاياها؛ وما أسهل أن يركز على مزاياه وطيبة قلبه... ألا نلاحظ في الحياة اليومية أن ردود الأفعال الطبيعية لدى الناس هي الدفاع عن النفس وتوجيه اللوم للآخرين. وعندما يملك المرء قدرًا من الشجاعة والثقة بالنفس، فإنه لا يتردد في الاعتراف بخطئه، وفي

هذه الحالة يجد نفسه في وضع يسهل عليه أن يفكر ويعمل على إصلاح الخطأ.

- ثق بنفسك وبأنك قادر على اكتساب المواصفات والخصال الضرورية لتكوين شخصية خلقية قوية. فمن المؤكد أنه بإمكانك أن تتخلص من الصفات السلبية، إذا عازمت على ذلك، لأنك تملك قدرة عظيمة بوسعك أن تستغلها لتحسين شخصيتك.

قال أحد الحكماء: «المرء هو مجموع ما يفكر فيه طوال يومه». وعليك أن تطرد الأفكار السلبية المزعجة التي تتسرب إلى نفسك، وأن تضع محلها أفكاراً بناءة إيجابية. قال حكيم: المرء يزرع أفكاره ويحصد أفعاله؛ ويزرع أفعاله فيحصد عاداته؛ ويزرع عاداته فيحصد مجمل سلوكه؛ ويزرع سلوكه فيحصد مصيره». فتعلم أن تتحكم في أفكارك، ستصبح سيد تصرفاتك.

- احذر الأفعال التي تسيئ إلى سمعتك، ركز على الأشياء التي ترفع من مستوى احترامك. حاول أن تسمو بنفسك، وأن تظن بها خيراً. إنك تعني الشيء الكثير لوالديك وأقربائك. فكر في ما بوسعك أن تفعله لتسعد زوجك وأولادك. فكر في ما تتمتع به من نعم: صحتك، منزلك، مواهبك، ثقافتك، مهنتك، أصدقائك، مظهرك، سمعتك، عقيدتك، أحلامك وآمالك، مثلك العليا... وستكسب مزيداً من التقدير لما أنت فيه، ولما ستكون عليه. وبذلك ستقدر حياتك حق قدرها، وتشعر بأنه من واجبك أن تحميها وتثريها.

- أحسن الظن بالآخرين، ولا تعاملهم إلا بما يلائم سلوكهم، ويزيدهم تقديراً واطمئناناً. أعلم أن النفع أو الضرر الذي تسببه أقوالك وأفعالك للآخرين هو معيار التصرف السليم أو السلوك البغيض.

يركز هذا المبدأ على الاهتمام بالآخرين ومراعاة مشاعرهم، وهو قاعدة أساسية لتحسين العلاقات مع الجميع. ويلاحظ أن جميع الأديان العظمى ركزت على هذا المبدأ. ومن أقوال الرسول ﷺ الكثيرة في هذا الموضوع: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»؛ و«مثل المؤمنین في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد...»؛ ومن أقوال المسيح عليه السلام: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به»؛ وقال بوذا الحكيم: «لا تؤذ الآخرين بما تعتقد أنه يؤذيك»؛ وقال الحكيم كونفوشيوس: «لا تعامل غيرك بما تكره أن يعاملك به»؛ وجاء في التوراة: «لا تعامل أخاك بقول أو فعل يزعجك إذا وقع عليك».

ولعله من المفيد الإشارة إلى بعض الخطوات التي يمكن أن تساعد الإنسان على التعرف على المشاكل والبحث عن حلول لها:

- حاول أن تسجل المشكلة أو تعبر عنها بأقصى ما تستطيع من الوضوح والصراحة، وخاصة إذا كانت المشكلة أخلاقية. والواقع أن مما يعرقل حل المشاكل أن يخجل المرء، أو يرتبك، أو يتردد في سرد الحقائق حول مشكلته، أو تأخذه العزة بالإثم فيرفض الاعتراف حتى لنفسه.

- اعترف وثق بأن لكل مشكلة حلاً. ويكون الاعتراف يسيراً إذا كان الخيار بين «الخير والشر، والصالح والفساد»؛ ويكون الاعتراف عسيراً إذا كان الحل مرتبطاً بإغراء جذاب، أو بعواقب مخيفة.

- لا تسارع إلى قبول الحلول التي تقفز أول وهلة إلى فكرك. فالآراء والأفكار الأولى ليست عادة هي الحلول المثلى. ومن الأخطاء المسارعة

إلى الرضى بالحلول لمجرد أنها مفروضة علينا، أو لأنها تمثل الممارسات التقليدية، أو لكونها تتماشى مع موجات الحياة الجديدة.

لا شك في أن احترام المسؤولين من الفضائل، ولكنهم بشر معرضون للخطأ. والحل السليم هو الذي تثبت صحته أمام الاعتراضات المطروحة والحلول البديلة، وأمام التساؤلات: لماذا، وكيف، وأين، ومتى؟ وليس مبرراً قول البعض: كل الناس يفعلون ذلك؛ والأغلبية ليست دوماً على حق.

- احرص على جمع المزيد من المعلومات عن الموضوع، وابحث عن حلول جديدة. وإذا كانت المشكلة عويصة قد لا تكون ظروفها واضحة. حاول أن تطرح المشكلة على المجر بين وأهل الذكر ممن تثق بأرائهم. ويساعدك هذا على التخفيف من قلقك وتوترك، وعلى الاسترخاء الذي يفيد في التفكير في الحلول السليمة.

- اعتبر النتائج والعواقب قبل الموافقة على أي حل أو التوقيع على أية وثيقة لأنك ستكون ملزماً بالتنفيذ. ففي بعض الأحيان تظهر النتائج من أول وهلة، وأحياناً لا تتجلي عواقب التزاماتك إلا بعد مدة. وليس من الحكمة أن يركز المرء على المزايا والفوائد الحالية، ويهمل النتائج والعواقب بعيدة المدى. ولا شك في أن حل المشاكل المعقدة، وخاصة الأخلاقية منها، يتطلب كثيراً من التجربة ومساعدة أهل الذكر. وقد قال الفيلسوف فولتير: خسرت مرتين، واحدة عندما خسرت قضية في المحكمة، والأخرى عندما ربحت قضية في المحكمة. ويصدق على مشاكل الحياة ما يصدق على صحة الإنسان: الوقاية خير من العلاج.

مراحل العمر، حسن الختام



يقول الشاعر الانكليزي روبرت براونينغ :

«عش معي ومع الحياة عمراً مديداً،

فأحلى سنوات العمر ما زالت أمامنا،

إنما خلقت سنوات العمر الأولى، سنوات الشباب

لتجعل باقي حياتنا سعيداً،

فثق بالله، ولا تخف، وتمتع بحياتك حتى الرmq الأخير».

إن مرحلة الشباب هي المرحلة المناسبة للتفكير في مستقبل الحياة، لأن الشباب أمامه متسع من الوقت ليبنى ويستعد للحياة الكاملة. ولعله من العسير على معظم الشباب أن يهتموا بالتخطيط للمستقبل، ويهملوا متع الحاضر. وقد قال الفيلسوف أرسطو في هذا الصدد: ليس من الحكمة أن نلقي محاضرات على الأطفال، حول الأخلاق، لأن عقولهم لم تنضج بعد ليدركوا ما عليهم أن يفعلوه ليعيشوا حياة سعيدة في المستقبل».

يقول كاتو الأكبر⁽¹⁾: لقد جعلت الطبيعة مسيرة الحياة محدودة،

(1) CATO الأكبر (234 - 149 ق.م) رجل دولة، كاتب، وخطيب روماني شهير.

وجعلت الزمان يسير في اتجاه واحد؛ وكل مرحلة من حياتنا صالحة لإنجاز أشياء مناسبة لموسم العمر. وهكذا فإن مراحل الشباب، والكهولة، والشيخوخة، لكل منها مزايا ينبغي استغلالها في موسمها المناسب. ولكن كما أعجبُ بالشاب الذي يتمتع بشيء من صفات الرجل المسن، كذلك أعجبُ بالرجل المسن الذي يحتفظ بشيء من صفات الشباب». ثم يوجه كاتو كلامه إلى المسنين ويعظم دورهم فيقول: إن المهام العظيمة لا تتجز فقط بالقوة البدنية ورشاقة الجسم، بل تتجز بالتفكير وسداد الرأي والتجارب».

ويقول الفيلسوف الروماني سينك: إن مرحلة العمر التي توفر للمرء أعظم المتعة هي المرحلة التي يشعر خلالها بأن شمس حياته بدأت رحلتها نحو الانحدار، بل أرى أن المرحلة التي تسبق الغروب لها كذلك متعتها، إذا كان المرء قد أبلى بلاءً حسناً وترك ذكراً طيباً وراءه».

ويقول الشاعر الإنكليزي تشوسر: إن لكبر السن مزايا خاصة من الحكم والتجارب.. وقد يسبقني الشاب في حلبة السباق، ولكني أتفوق عليه في ميدان الحيلة والرأي والدهاء». ويقول حكيم آخر: لقد تركت الشيخوخة تجاعيد على بشرة وجهي، ولكنني لم أسمح لها أن تطبع تجاعيد على صفحات فكري؛ ولم أسمح لخلق النكد ومذاق الحموضة أن يلوثا سلوكي.

الواقع أن هناك ثلاثة طرق لمعرفة مرحلة العمر الحقيقية التي

يمر بها الإنسان: العمر حسب تاريخ الميلاد، والعمر البيولوجي، والعمر
السايكولوجي. ويلاحظ أن السنّ الوحيد المحدد هو السن حسب تاريخ
الميلاد. ولكننا نلاحظ كذلك أننا نجد شخصاً سنه خمسين عاماً
ويتمتع بصحة جسدية ونفسية أفضل من ابن خمسة وعشرين عاماً؛
بينما نجد شخصاً آخر في سن الخمسين يبدو وكأنه بلغ السبعين.

ويمكن أن نلجأ إلى المعيار البيولوجي الذي يعطينا بيانات دقيقة
عن مدى تأثير السنين على أعضاء المرء وأنسجته مقارنة بحالة
أشخاص آخرين في نفس العمر بعدد السنين. ومن المعلوم أن مرور
الزمن لا يؤثر بنفس الدرجة على جميع أعضاء الجسد.

ويلاحظ أن العمر البيولوجي قد يتغير ويتحسن، فممارسة
الرياضة بطريقة منتظمة، مثلاً، يمكن أن تحسّن بعض الآثار السلبية
مثل ضغط الدم، والبدانة، وضعف العضلات وغيرها. وقد لاحظ
الأطباء أن كبار السن الذين اتبعوا نظام حياة صحيّ معتدل يحسنون
متوسط عمرهم المتوقع بنحو عشر سنوات.

والعمر السايكولوجي أكثر مرونة من العمر البيولوجي، وهو
يختلف من شخص إلى آخر حسب الظروف النفسية والفكرية التي يمر
بها الإنسان، وله ارتباط وثيق بمشاعر المرء وأفكاره الإيجابية والسلبية
تجاه تجارب الحياة. وكما يقال بأن العقل السليم يكون في الجسم
السليم، يمكن القول كذلك بأن الجسم السليم مرتبط بالعقل السليم.

ومن العوامل التي تؤثر إيجابياً على عمر الإنسان وتساعد على

المحافظة على نشاطه وحيويته: القناعة، بأن يرضى بالقليل ويعمل لتحسين ظروفه المادية والفكرية، ويتجنب التنافس المقلق؛ وألا يضيع وقته في التحسر على ما فات؛ وأن يتجاوب بمرونة مع الناس؛ وألا يشتمل في الجدل؛ وألا يتدخل في كثير من شؤون الناس؛ وأن يترك لكل شخص حريته فيما يختار؛ وأن يتجنب ظروف العزلة، والتوتر، والاكتئاب؛ وألا ينتقد أو يهاجم كل من يسيئ إليه، وأن يكون متفائلاً بالمستقبل، راضياً بما قسم الله له يبتهج قلبه بفصل الشتاء والصيف معاً.

لقد وازنت الطبيعة بين الجسد والفكر والروح لكون هذه العناصر الثلاثة المكون الحقيقي لشخصنا. والإنسان لا يستطيع أن يفعل أي شيء، من أداء صلاة، إلى التمتع بلحظة حب، إلى تذوق طعام، بدون أن يؤثر ذلك في كيانه، والجسد هو المسرح الذي يسمح لأية تجربة أن تظهر إلى الوجود. والفكر هو العنصر الذي يميز الإنسان عن بقية المخلوقات؛ وتؤثر هذه العوامل في قدرته العالية على التفكير، وفي وظائف حيوية متنوعة منها المشاعر والاحساسات مثل الملذات والآلام، والتخييلات، والإدراك السليم، والاستنتاج، والتبصر، والوعي، والتوقعات والآمال والأحلام، والاختيار، وتكوين المفاهيم، وتكوين عالم اللاشعور، وغير ذلك من النشاطات وسمات طبع الشخصية.

الشيخوخة :

إن الخوف من الشيخوخة قد يسبب كثيراً من المتاعب النفسية،

ويؤثر على قدرة الشخص على التكيف مع الظروف الجديدة. والإنسان الذي يرفض أن ينسجم مع بواذر الشيخوخة يفقد كثيراً من متع الحياة، بل يؤثر ذلك على مستوى إنتاجه (أي إنتاج)، ويتجه بحياته نحو التعاسة. والأشخاص الذين لا يقدرّون على مواجهة ظروف الشيخوخة بشجاعة وبالمزيد من حب الحياة لا يشعرون في نهاية المطاف بأنهم عاشوا حياة راضية سعيدة.

ومن المفيد أن نراعي الشعور بمرحلة الشيخوخة نفسياً، والشعور بها جسدياً. فالشيخوخة النفسية يُمكن أن تبدأ في أي سنّ، وقد لا يحدث هذا الشعور حتى في سنّ متقدمة، أما الشيخوخة الجسدية فهي تتسرّب تدريجياً، متقلّة من عضو لآخر، ولا مفرّ منها. وعاجلاً أم آجلاً سيأتي ذلك اليوم الذي تنظر فيه إلى المرأة وتشاهد صورة غير التي تعودت عليها.

وليس من الحكمة عندئذ أن تقلق وتكتئب، أو تسارع إلى البحث عن ينبوع الشباب. كما أنه ليس من الضروري أن تبطئ في مشيتك، أو تحني ظهرك، أو تغيّر أسلوب حياتك وتخفّف نشاطك، وتطيل الجلوس في الحدائق العامة أو في المقاهي، وكأنك توحى لنفسك ولمن حولك بأن زمانك قد انتهى. والواقع أن أهم الأشياء في هذه المرحلة هو حالتك الفكرية ومستوى معنوياتك. فإذا بدأت تشعر بأنك لم تعد تصلح لشيء، ولا تقدر على شيء، وأنت قد سئمت الحياة وسئمت منك، فإنك بهذه الأفكار السلبية تساعد مظاهر الشيخوخة في هجومها عليك.

والواقع أنه ليس أمام المرء، عندما يلاحظ بوادر كبر السنّ، سوى خيارين: أن يتأسف على ما وصل إليه حاله، ويبكي عهود الشباب الزائل، أو أن يعقد العزم على استغلال ما لديه من تجارب وطاقات وإمكانيات مادية وثقافية، قد لا توجد حتى لدى الشباب، ليواصل نشاطه بما يناسب سنّه، ويتمتع بالحياة بما يلائم إمكانياته الفكرية والبدنية.

تذكر أن كبر السن حالة نفسية وليست مجرد عدد السنين وتاريخ الميلاد. ربما يضعف سمعك، أو بصرك، أو تبلى بعض أسنانك، أو ينحني ظهرك، أو يببّض شعرك رأسك... لقد أصبح الطب يملك الوسائل والتقنيات التي تعالج هذه الظواهر، وكذلك على المرء أن يتعايش مع بعض علامات تقدم السنّ الفسيولوجية.

إن الخوف من الشيخوخة، والتركيز على جوانبها السلبية قد يتلف الاطمئنان النفسي، ويجعل المرء يدور في حلقة سلبية لأنه يتوقع تدهور صحته وتزايد آلامه، فيتوقف عن نشاطاته الحياتية، وهذا يجعله يبدو أقل حيوية وأقل قدرة على المساهمة في إنجاز الأعمال مما يؤثر سلبياً على معنوياته ومشاعره.

ومن الطبيعي أن تظهر أعراض الشيخوخة على الجسد في سنّ ما، ولكن الأفكار والمشاعر لا تتأثر بذلك، ولا ينبغي لها أن تتأثر بعدد السنين. ولكننا نلاحظ في الحياة الواقعية أن بعض الأشخاص ينجون من أعراض الشيخوخة، بينما يقع آخرون فريسة لها بسهولة. وقد تجد نفسك وسط مجموعة من الناس، بعضهم يظهر عليه كبر السن وهو في الأربعينات، بينما يبدو آخرون وكأنما كتب لهم دوام الشباب. وقد

يصاحب تقدم السن آلام جسدية، غير أن هذه الآلام ليست نتيجة الشيخوخة، بل هي نتيجة أمراض يمكن الوقاية منها أو علاجها. ويؤكد الأطباء أن أعضاء الإنسان وأنسجته يمكن أن تعيش حتى مائة وعشرين سنة قبل أن تؤثر عليها الشيخوخة.

وما أكثر ما نسمع الناس يشكون من الظروف الخارجية ومدى تأثيرها على حياتهم الجسدية والنفسية، ولكن الخبراء يرون أن الظروف الخارجية إنما تؤثر على الإنسان بناء على طريقة تفسيره لها، وأنه بوسع المرء، بشيء من الذكاء والتجربة، أن يعطي للحوادث، ماضيها وحاضرها، تفسيراً إيجابياً لصالحه، أو يتخذ منها موقف المحايد المراقب. ولنتذكر أننا عندما نواجه ظروفاً خارجية تزعجنا أو تغضبنا أن مدى انساجمنا معها أو مقاومتنا لها يعكس سلوكاً دفاعياً، إيجابياً أو سلبياً، هو خلاصة تجاربنا الماضية، ومدى قوتنا المعنوية والأخلاقية، وهذا ما يملي علينا طريقة المواجهة.

ولا شك أن السلوك الذي تدفعنا إليه المحبة أفضل من السلوك الذي يدفعنا إليه الخوف والغضب. وعندما يركز المرء على الحوادث السيئة التي آلمته في الماضي فإنه يوجه وقته وطاقته الحالية إلى الاحتراس من الماضي، وهو بذلك يفرض الماضي المؤلم على الحاضر؛ ولا يكون هذا السلوك مفيداً إلا إذا حاول المرء أن يستفيد من تجاربه ليجعل الحاضر أفضل من الماضي، من غير أن يسمح للماضي المؤلم أن يعرقل الحياة في الحاضر والمستقبل.

وفيما يلي ملاحظات لأشخاص عاشوا حتى بلغوا مائة سنة أو تجاوزوها:

- جميعهم قاموا بأعمال شديدة، ولكن كانوا يحبون عملهم.
- لم يكونوا شديدي الطموح.
- عاشوا حياة هادئة، سعداء بأسرهم ومعتقداتهم.
- كانوا يحبون الحياة ويتمتعون بأبسط مباحها.
- كانت حياتهم تتسم بالقناعة والاكتفاء الذاتي.
- كانوا من المحظوظين الذين لم يصابوا بأمراض قاتلة.
- كان عملهم وحياتهم تتضمن شيئاً من الحركة والنشاط الرياضي المعتدل.
- كان وزنهم ضمن الحدود المطلوبة.
- كان سلوكهم يميل إلى التفاؤل، والمرح، وحب الناس والحياة. وكانوا من المسامحين الذين لا يسارعون إلى إصدار الأحكام على الناس والحوادث، ولا إلى فرض آرائهم حول ما هو صحيح أو خطأ، وما هو حق أو باطل. وكان من أبرز ما يتسم به سلوكهم «الاعتدال».

انتهى بفضل الله وعونه

سلسلة عالم الثقافة

10



سلسلة
عالم
الثقافة
10

بنو
الازرق بن علو

المختصر المفيد

أضواء

على مسرح الحياة

كلمات تنعش الحياة

الشعر والحياة

حصاة الأيام

أدب - فلسفة - تاريخ

الإنسان والقلق

نقطة من الأدب العالمي

الرحلة

(سائير - تاريخ - أدب - حكايات)

منارات

في بحارة الأدب العالمي

قلائد الذهب

فكروا فكروا وإلهام



نبذة عن المؤلف

ولد الأزرق بن علو في الجزائر، وحصل على:

- ليسانس في العلوم الاجتماعية من جامعة بلفراد (1961).
- ماجستير في العلاقات الدولية من الجامعة الأمريكية بواشنطن (1966).
- عضو البعثة الدبلوماسية الجزائرية في واشنطن (1964 - 1971).
- مراسل جريدة الشعب الجزائرية في واشنطن (1972 - 1975).
- موظف بمنظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة في روما منذ (1979).

■ من مؤلفاته :

◆ كلمات تنعش الحياة.

◆ الشعر والحياة.

◆ حصاة الأيام (ادب . فلسفة . تاريخ) .

◆ الإنسان والقلق .

◆ نقضات من الأدب العالمي .

◆ الرحلة (سائير - تاريخ - أدب - حكايات) .

◆ منارات في رحاب الأدب العالمي .

◆ قلائد الذهب في الحكمة والأدب .

◆ أضواء على مسرح الحياة .

دار قباء الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

المالك والمدير العام: العقيد شيرين ثابت



16 عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر

تليفاكس 02/ 22621365 تليفون 02/ 24025777

محمول 002/ 0123140315

E-mail: modern_qubaa@hotmail.com info@qubaaelhadetha.com

www.qubaaelhadetha.com